بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي لم يخلق الخلق عبثا، ولم يتركهم سدى، وإنما أمرهم ونهاهم، وجعل لبقائهم أجلا ينتهي إليه، ولأعمالهم يوما يَلقونها فيه.

وصلّى الله وسلّم على عبده ورسوله محمد خاتم أنبيائه، وإمام رسله، وعلى سائر إخوانه النبيين، صفوة خلقه وقدوة أوليائه، الذين علّموا الخلق ما أمر الله به ونهى، وأخبروهم بما يحصل للمكلفين بعد الموت من الأحوال والأقوال، فبلّغوا وبيّنوا، وأنذروا وبشّروا، فعليهم وعلى من آمن بهم واتّبع هداهم أفضل الصلاة والتسليم إلى يوم البعث والنشور.

أما بعد:

فإن من حكمة الله تعالى أن جعل لحياة الإنسان دُورا تتعاقب، ومنازل تتوالى، تختلف حياته فيها من حيث الأحكام والصفات تبعا لتباين تلك الدُور، واختلاف تعلّقات الروح بالبدن فيها من دار إلى دار، فلكلٍّ من الحياة الدنيوية والحياة البرزخية والحياة الأخروية أحكام تختص بها، ولما كانت الحياتان: البرزخية والأخروية من الغيب التي اختص الله تعالى بعلمه، وكان الإقرار بهما ركنا من أركان الإيمان، تحدّثت نصوص الكتاب والسنة عنهما بجلاء ، وبيّنت نوعية الحياة وأحوال المخلوقين فيهما.

ولقد تنوّع حديث النصوص عن قضايا هاتين الحياتين، فحينا تدعو إلى الإيمان بهما، وحينا تتحدث عن أهمية ذلك الإيمان وآثاره على السلوك، وأحيانا تبين أحوال الناس فيهما، وحينا آخر تذكر ما يصدر من بعض المخلوقات فيهما من أقوال.

ولـمّا رأيت كثرة المؤلفات في وصف هاتين الحياتين وبيان حال الخلق فيهما دون تعرّض لجمع ما يصدر منهم من أقوال- وهي من الكثرة بمكان- عزمت على جمعها ثم بيان ما تضمنته من دلالات عقدية، خدمةً لكتاب الله وسنة نبيّه، وتوضيحا لنصوص الوعد والوعيد، بتجلية معانيها وبيان محتواها. وقد وسمت هذا الموضوع بـ:

((**أقوال الثقلين والملائكة في البرزخ والموقف:دلالاتها العقدية وما فيها من الردود على المخالفين**)) والله أسأل أن يرزقني التوفيق والسداد وأن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم فإنه حسبي ونعم الوكيل.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذا الموضوع في أمور يمكن إجمالها في الفقرات التالية:

١- ارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم والسّنة المطهّرة، وذلك لأنّ هذه الأقوال- كغيرها من الأمور التي تحدث بعد الموت - غيبيّات لا تؤخذ إلا من لسان الشارع، ولا تجمع مادّتها إلا من معين الكتاب والسنة الصحيحة.

٢- تعلّقه بالإيمان باليوم الآخر الذي يعدّ من أعظم أركان الإيمان، وأشدّها ارتباطا بالإيمان بالله، وأكثرها ذكرا في النصوص، والذي يعدّ الإيقان به ومعرفة تفاصيله من أعظم أسباب الاستقامة، والانحراف فيه من أكبر دواعي التقاعس عن الطاعات والانهماك في المحرمات.

٣- أن في دراسة هذا الموضوع بيان إحاطة علم الله تعالى بما كان وما يكون من أحوال البشر وأقوالهم.

٤- أن هذا الموضوع يسهم في تقرير مذهب أهل السنة، وإثراء أدلتهم في كثير من مسائل الاعتقاد، وخاصة المسائل التي كثر فيها الانحراف، مثل مسألة الكلام، ومسألة الشفاعة، ومسألة النزول الإلهي وغيرها من مسائل الاعتقاد.

٥- أنّ في جمع ما يصدر من البشر في البرزخ والموقف من الأقوال إثباتا للحياة فيهما وإن كانت حقيقتها مما اختص الله تعالى بعلمه.

٦- أنّ في دراسة هذا الموضوع ردا على الذين زعموا وقوع التعارض في هذه الأقوال، حيث إن الله أخبر بأنهم لا ينطقون، ثم حكى لنا جملة من أقوالهم. كما أن فيها ردودا على بعض الفرق التي استدلت ببعض أقوال أهل الموقف استدلالات باطلة، كما استدلت الرافضة بقوله صلى الله عليه وسلم (سحقا لمن غيّر بعدي) على كفر أكثر الصحابة بعده ﷺ.

أسباب اختيار الموضوع:

لقد تضافرت لديّ عدة أسباب رغّبتني في الكتابة عن هذا الموضوع من أهمّها ما يلي:

١- أنه موضوع يدعو إلى تدبّر القرآن الكريم وتفهّم نصوص السنة ومعرفة معانيهما بالرجوع إلى كتب أهل العلم من المفسرين وشرّاح الحديث وعامة كتب المعتقد، ولا يخفى ما يعود لطالب العلم في ذلك من فوائد وثمرات.

٢- أنه قد بدا لي من خلال البحث في موضوعي في مرحلة الماجستير الذي كان عن : «**أقوال أهل الجنة وأهل النار في القرآن والسنة ودلالاتها العقدية**» وفرة المادة العلمية في هذا الموضوع وجدارة البحث فيه، وأنها أكثر من ضعف مادة الموضوع السابق، فنويت منذ ذاك دراسته والاستفادة والإفادة منه.

٣- أن هذا الموضوع - وإن هديت إليه أخيرا- يعدّ بوابة للموضوع السابق ومقدّمة له، فهما متكاملان، والبحث في أحدهما لا يقل أهمية عن البحث في الآخر، بل يصبح دراسة هذا الأخير أولى لكونه تمهيدا للدراسة السابقة وتوطئة لها، ولِمَا تقرّر عندي من أنّ المادة العلمية فيه أوفر بكثير.

الدراسات السابقة في الموضوع:

لقد كثرت المصنّفات والمؤلفات في موضوع الحياة البرزخية وموضوع اليوم الآخر قديما وحديثا تبعا لأهمية الإيمان بهاتين الحياتين ، وقد تنوّعت هذه المصنّفات في موضوعاتها، فبعضها اختصت بموضوع نعيم القبر وعذابه؛ وبعضها درست موضوع الموقف وأحوال الناس فيه؛ واختصّت بعضها في دراسة لجنة ووصفها ونعيم أهلها؛ وبعضها تناولت موضوع النار وصفتها وعذاب أهلها؛ وكلها من النفاسة بمكان، إلا أنني لم أقف - رغم كثرة هذه المصنّفات- على دراسة أفردت فيها ما صدر من الثقلين والملائكة من أقوال في البرزخ والموقف ، إلاّ الجزء الذي يتعلق منها بأقوال أهل الجنة وأهل النار والتي سبق أن درستها في مرحلة الماجستير، وثمّت فروق بين الدراستين أجملها في النقاط التالية:

١- أن الدراسة الأولى انحصرت في جمع أقوال أهل الجنة وأهل النار بعد الاستقرار فيهما، وهذه تشمل دراسة أقوال الثقلين والملائكة في كل من البرزخ والموقف.

٢- أنّ الدراسة السابقة لم تدخل فيها أقوال غير البشر، وهذه تشمل أقــوالهم وأقــوال غيرهم من الجن والملائكة.

٣- أنّ الموضوع السابق كانت الدراسة فيها منحصرة في القرآن والكتب الستة، أمّا هذه الدراسة فستشمل القرآن الكريم والكتب الستة وغيرها من دواوين السنة المطهرة.

٤- أنّ هذا الموضوع يتضمن من الردود على المخالفين أكثر مما تضمنه الموضوع السابق.

هذا؛ والله تعالى أسأل أن يقيل لنا العثرات، ويذلّل لنا الصعوبات، وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، فإنه جواد كريم.

خطة البحث:

جعلت البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

المقدمة:ذكر أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة فيه، وخطة البحث ومنهجي فيه.

التمهيد: في حقيقة الموت، ومجمل الاعتقاد فيه، وأحوال الناس عنده، والرد على المفاهيم الخاطئة فيه.

الباب الأول: أقوال أهل البرزخ ودلالاتها العقدية،وفيه توطئة وفصلان:

التوطئة: معنى البرزخ، ومجمل الاعتقاد الحق في الحياة البرزخية، مع الرد على المخالفين فيها، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى البرزخ في اللغة والشرع.

المطلب الثاني: مجمل اعتقاد أهل السنة في الحياة البرزخية.

المطلب الثالث: الرد المجمل على المخالفين في الحياة البرزخية.

الفصل الأول: أقوال أهل الإيمان في البرزخ، ودلالاتها العقدية، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أقوال الأنبياء في البرزخ، وفيه توطئة وأربعة مطالب:

التوطئة: مجمل خصائص الأنبياء في البرزخ.

المطلب الأول: مخاطبات نبي الله إبراهيم للنبي صلى الله عليه وسلم في المعراج، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: فضيلة الكلمات الأربع.

المسألة الثانية: الرد على منكري وجود الجنة الآن.

المطلب الثاني: أقوال نبي الله موسى عليه السلام في المعراج، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تمام نصيحته عليه السلام لهذه الأمة.

المسألة الثانية: إثبات صفة العلوّ والرد على منكريها.

المطلب الثالث: أقوال النبي صلى الله عليه وسلم في البرزخ.

المطلب الرابع: الرد على المفاهيم الخاطئة في رده عليه السلام على سلام المسلمين عليه.

المبحث الثاني: أقوال الملائكة وبقية المؤمنين في البرزخ، وفيه ثلاثة عشر مطلبا:

المطلب الأول: قول المؤمن لحاملي جنازته: ((قدّموني، قدّموني))

المطلب الثاني: قول المؤمن للملك ((دعني حتى أصلّي)).

المطلب الخامس: الرد على من أنكر وجود النار الآن.

الباب الثاني: أقوال أهل الإيمان في الموقف،ودلالاتها العقدية، وفيه توطئة و فصلان.

التوطئة: التعريف بالموقف، وبيان عدم التعارض بين قوله تعالى: ﴿**هذا يوم لا ينطقون. . .** ﴾ وبين ما ذكر عن أهل الموقف من أقوال.

الفصل الأول:أقوال الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في الموقف ودلالاتها العقدية،وفيه تمهيد، وسبعة مباحث:

التمهيد: أقوال عامة الناس في الموقف، ودلالاتها العقدية، وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول: قولهم بعضهم لبعض:((ألا ترون ما أنتم فيه، ألا ترون ما قد بلغكم)).

المطلب الثاني: قول بعضهم لبعض:((ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم)).

المطلب الثالث: قولهم لآدم عليه السلام:((أنت أبو البشر خلقك الله بيده...)).

المطلب الرابع: قولهم لنوح عليه السلام:((أنت أول الرسل إلى الأرض ...)).

المطلب الخامس: قولهم لإبراهيم عليه السلام ((أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض)).

المطلب السادس: قولهم لموسى عليه السلام:((...فضلك الله برسالاته وبتكليمه)).

المطلب السابع: قولهم لعيسى عليه السلام:((أنت رسول الله، وكلمت الناس في المهد)).

المطلب الثامن: قولهم له عليه السلام:((...وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه)).

المطلب التاسع: قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم:((...أنت رسول الله وخاتم الأنبياء...)).

المبحث الأول: الأقوال التي صدرت عن جميع الأنبياء والرسل عليهم الصّلاة والسلام في الموقف ودلالاتها العقدية. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: استشهادهم على إبلاغهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته.

المطلب الثاني: قولهم: ﴿ **لَا عِلْمَ لَنَا** ﴾ .

المطلب الثالث:قولهم: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

المطلب الرابع: قولهم ((اللهم سلّم سلّم)).

المبحث الثاني:أقوال نبي الله آدم عليه السلام في الموقف ودلالاتها العقدية. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: قوله لرب العالمين:((لبيك وسعديك والخير في يديك)).

- فهرس الفرق والمذاهب.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس المحتويات.

المنهج المتبع في البحث:

سأسير في هذه الدراسة بإذن الله على المنهج الاستقرائي مع التحليل، ومن مكمّلاته ما يلي:

١- جمع ما في القرآن الكريم وما صحّ من السنة من أقوال الثقلين والملائكة في البرزخ والموقف دون ما صدر منهم بعد الاستقرار في الجنة أو النار.

٢- الإتيان بشرح موجز لكل نصّ ورد فيه هذه الأقوال؛ وذلك لتظهر الدلالات العقدية التي تضمّنها.

٣- تذييل كل نص من هذه النصوص بذكر ما فيها من الدلالات العقدية تقريرا أو ردّا.

٤- عزو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية مع كتابتها بالرسم العثماني.

٦- تخريج الأحاديث، فإن كان الحديث في الصّحيحين أو في أحدهما اكتفيت بذلك.

وإن كان في السنن الأربعة أو في بعضها أذكر تخريجه فيها، أمّا إن كان في غيرها من دواوين السنة فسأكتفي بذكر ذلك المصدر فقط، مع الرجوع إلى أقوال أهل العلم في بيان درجة الحديث.

٧- الالتزام بعلامات الترقيم، وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

٨- الترجمة للأعلام غير المشهورين ترجمة موجزة.

٩- التعريف بالفرق والمذاهب الواردة في هذا البحث.

١٠- تذييل البحث بفهارس علمية، وهي المذكورة في آخر الخطة.

سائلا المولى عزّ وجلّ العون والتسديد في جميع الأمور، والله تعالى ولي التوفيق.

شكر وتقدير:

أحمد ربي سبحانه وأشكره، وأثني عليه الخير كله على ما منّ عليّ من نعمة الإسلام، وهداني لسنة خير الأنام، وعلى ما وفّقني لسلوك سبيل طلب العلم الشرعي في مهاجر إمام رسله ومدينة خاتم أنبيائه عليهم أزكى الصلاة وأفضل التسليم، فله الحمد من قبل ومن بعد.

ثم أشكر والديّ الغاليين اللذين شجّعاني على سلوك طلب العلم، وبذلا الغالي والنفيس في سبيل مواصلتي عليه؛ فجزاهما الله عني خير ما جازى والدين عن ولدهما.

ثم الشكر لهذه الدولة السنية: حاضرة الإسلام والمسلمين، وخادمة العلم وأهله، المملكة العربية السعودية، على أياديها البيضاء، وإحسانها المتوالي على شعوب الأمة الإسلامية؛ والذي من جملته وأفضله إنشاء هذه الجامعة الإسلامية المباركة، خدمة للدين، وهدية لأبناء المسلمين، فجزى الله قادها خيرا، وزادهم توفيقا، وأبقاهم ذخرا وفخرا للإسلام والمسلمين.

ثم أشكر جميع المشايخ، والقائمين على أمر هذه الجامعة المباركة، على ما يبذلونه من جهود جبارة في تحقيق رسالتها.

وأخصّ بالشكر الجزيل شيخي الجليل فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، المشرف على هذه الرسالة، الذي له اليد الطولى في مساعدتي على إنجازها منذ الوهلة الأولى؛ بملحوظاته الدقيقة وآرائه السديدة، فقد كان جزاه الله خيرا مشرفا ومربّيا، فلم يدخّر جهدا في النصح والنصيحة، واستفادتي من أخلاقه وشمائله لا تقل قدرا من استفادتي من إرشاداته العلمية، فجزاه الله عني خير ما جازى مشرفا عن طالبه، وجعل ذلك كله في ميزان حسناته يوم القيامة إنه سميع مجيب.

كما أشكر كلّ من أسهم في هذا العمل بتوجيه أو نصح أو إعارة كتاب أو مراجعة مسألة، وأخصّ بالذكر منهم أخويّ في الله وصديقي المخلصين محمد بامبا امينغ وغورا امبوب على ما أعطياناني من وقتهما الغالي في مراجعة هذه الرسالة وتنسيقها، فجزى الله الجميع خيرا، وجمعنا جميعا– بعد عمر طويل، وحياة سعيدة– في دار كرامته؛ فإنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد: حقيقة الموت، ومجمل الاعتقاد فيه، وأحوال الناس عنده، والرد على بعض المفاهيم الخاطئة فيه.

المطلب الأول: حقيقة الموت.

-معنى الموت في اللغة:

« الميم والواو والتاء أصل صحيح، يدل على ذهاب القوّة من الشيء، ومنه الموت خلاف الحياة».[(١)]

والموت والموتان والمـُوات ضدّ الحياة؛ والاسم منه المِيْتة، ويقال رجل ميِّت وميْت، وقوم موتى، وأموات، وميّتون، وميْتون.(٢)

- معنى الموت في الاصطلاح.

أمّا معناه في الاصطلاح فهو عبارة عن زوال القوّة الحيوانية، وإبانة الروح عن الجسد.[(٣)]

وقيل:«الموت صفة وجودية خُلقت ضدّ الحياة».(٤)

وقيل: « أنواع الموت بحسب أنواع الحياة:

فالأوّل: ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنبات،. نحو قوله تعالى: ﴿ وَيُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾.[(٥)] ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾.[(٦)]

الثاني: زوال القوّة الحاسّة؛ قال: ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾.[(٧)] ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾.[(٨)]

الثالث: زوال القوّة العاقلة؛ وهي الجهالة. نحو:

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤٩٢/٢).

(٢) ينظر لسان العرب (٢١٧/١٣).

(٣) ينظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (٦١٦/٢).

(٤) التعريفات للجرجاني ص(٢٣٤).

(٥) سورة الروم الآية (١٩).

(٦) سورة ق الآية (١١).

(٧) سورة مريم الآية (٢٣).

(٨) سورة مريم الآية (٦٦).

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾.[1] وإيّاه قصد بقوله: ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾.[2]

الرابع: الحزن المكدِّر للحياة؛ وإيّاه قُصد بقوله: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾.[3]

الخامس: المنام فقيل: النوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل؛ وعلى هذا النحو سمّاهما الله سبحانه وتعالى توفّيا؛ فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾.[4] ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي فِي مَنَامِهَا ﴾[5]».[6]

وليس الموت فناء محضا كما يتوهّم البعض؛ قال العلماء: «الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلّق الروح بالبدن، ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدّل حال، وانتقال من دار إلى دار».[7]

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٢٢).

(٢) سورة النمل الآية (٨٠).

(٣) سورة إبراهيم الآية (١٧).

(٤) سورة الأنعام الآية (٦٠).

(٥) سورة الزمر الآية (٤٢).

(٦) المفردات في غريب القرآن (٢/٦١٦).

(٧) ينظر تفسير القرطبي (١٨/١٨١). والتذكرة له (١/١١٢).

المطلب الثاني: مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في الموت؛ والرد على بعض المفاهيم الخاطئة فيه.

إنّ الموت حدث جلل، وأمر عظيم، إذ هو تبدّل من حياةٍ مشاهَدة إلى حياة أخرى غيبية، وانتقال من دار معروفة إلى أخرى مغيبة، ولأجل ذلك حصل لبعض الناس إزاءه مفاهيم خاطئة، وعقائد فاسدة، ومن هنا كان ذكر مجمل الاعتقاد الحقّ في الموت، مع الرد على المفاهيم الخاطئة فيه–قبل الخوض في موضوع أقوال المكلّفين في البرزخ والموقف– مناسبا.

وقد بدا لي من خلال النظر في النصوص الواردة من الكتاب والسنة في الموت؛ ومن خلال النظر في أقوال العلماء عن الموت أنّ عقيدة أهل السنة فيه تتلخّص في الأصول الآتية.[(١)]

الأصل الأول: الإيمان بأنّ الموت خلق من خلق الله وأنه بيده تعالى.

يعتقد أهل السنة والجماعة في الموت بأنه مخلوق لله، وأنّه بيده تعالى يقدّره على من يشاء، متى شاء، وكيف شاء، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ .[(٢)]

ومعنى قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ أي: خلق الموت المزيل للحياة، والحياة التي هي ضدّ الموت، فأمات من شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم.[(٣)]

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ .[(٤)]

والموت تارة يضاف إلى الملائكة– وعلى رأسهم ملك الموت– لأنهم المباشرون لذلك، ويتولّونه بإذن الله.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ .[(٥)]

---

(١) ينظر معارج القبول بشرح سلم الوصول لحافظ الحكمي (٧٠٣/٢-٧١٢).

(٢) سورة الملك الآية (١-٢).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦٤/١٢)، وزاد المسير (٣١٩/٨).

(٤) سورة المؤمنون الآية (٨٠).

(٥) سورة الأنعام الآية (٦٠).

وتارة يضاف إلى الله لأنه المتوفّي على الحقيقة؛ قال ﷻ: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ . (١)

وفي هذا الأصل ردٌّ على الملاحدة الذين أنكروا كون الموت بيد الله؛ ومخلوقا له، وأسندوه إلى فعل الطبيعة؛ فقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفني.(٢)والذين أخبر الله تعالى عن أسلافهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ . (٣) أي: أنّ منكري البعث يقولون: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا؛ يموت الآباء، ويحيا الأبناء، وما يفنينا إلا مرّ الزمان وطول العمر واختلاف الليل والنهار، و لم يقولوا هذا عن علم علموه.(٤) إن هم إلا قوم غاية ما عندهم الظن؛ فما يتكلمون إلا به، ولا يستندون إلا إليه.(٥)

كما أنّ فيه ردا على من يزعم من المتصوفة أنّ للأولياء حقّ التصرف في الكون، وأنّ لهم القدرة على شفاء المرضى وإماتة الأحياء، وإحياء الموتى، وأنّ الأقطاب هم خلفاء الله في الأرض ونوّابه في التصرف في الكون جملة وتفصيلا.(٦)

وقد ادّعى بعضهم في ذلك أنّ الوليّ -بعد الفتح عليه- يفعل كل ما يريد، فيحيي الموتى إذا أراد ذلك، وينادي الروح فتجيبه مسرعة ولو كانت رميمة.(٧)

وقد أكثر الصوفية في كتبهم قصص إحياء الموتى من قبل شيوخهم؛ حتى باتت مسألة إحياء الموتى عند كثير منهم من الأمور المسلّمة، وخاصّية من خصائص الأولياء؛(٨)فشبّهوا

الأولياء؛(٨)فشبّهوا شيوخهم بذلك بالخالق المحيي المميت سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الجاثية الآية (٢٦). وانظر تفسير القرطبي (١٠/٧).

(٢) ينظر الملل والنحل (٢٣٤/٢).وإغاثة اللهفان (٢٥٥/٢-٢٥٦).

(٣) سورة الجاثية الآية (٢٤). وينظر روح المعاني للألوسي (١٥٣/٢٥).

(٤) ينظر تفسير البغوي (١٤٤/٤).

(٥) ينظر فتح القدير(١٣/٥).

(٦) ينظر جواهر المعاني (٨٨/٢-٨٩). ومقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها (١٥٥/٣).

(٧) ينظر جواهر المعاني (١٥٠/٢-١٥١).

(٨) ينظر على سبيل المثال طبقات ابن ضيف الله ص (١٤٣)، وجامع كرامات الأولياء (١٥٤/٢).

الأصل الثاني: الإيمان بأن الموت متحتّم على من كان في الدنيا من أهل السّماوات والأرض.

من عقيدة أهل السنة في الموت الإيمان بأنه حتم على من كان في الدنيا من أهل السماوات والأرض من الإنس والجنّ والملائكة وغيرهم من المخلوقات. قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١) فهذا إخبار من الله تعالى بأنه الدائم الباقي، الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت.

وقيل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا ما أريد به وجهه. وهذا القول لا ينافي القول الأول؛ فهو إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلاّ ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة، والقول الأوّل مقتضاه أنّ كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدّس؛ فإنه الأوّل الآخر الذي قبل كل شيء وبعد كل شيء.(٢)

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. (٣) « يخبر تعالى أنّ جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السماوات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم...».(٤)

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٥) أي: دوام البقاء في الدنيا.(٦)

وثبت في السنة أنّ النبي ﷺ كان يقول: (...اللّهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني؛ أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون...).(٧)

---

(١) سورة القصص الآية (٨٨).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٣/٢١٩٣).

(٣) سورة الرحمن الآية (٢٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٧٧٠).

(٥) سورة الأنبياء الآية (٣٤-٣٥).

(٦) تفسير البغوي (٣/٢٠٥).

(٧) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦٩٤٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوّذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، برقم (٢٧١٧).

الأصل الثالث: أنّ لكل إنسان أجلا محدودا لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه.

يذهب أهل السنة إلى أنّ كل إنسان له أجل محدود، وأمد معدود ينتهي إليه، لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، وأنّ كل إنسان مات أو قُتل أو حرق؛ وبأيّ سبب كان حتفه؛ فإنّما هلك بأجله، لم يستأخر عنه و لم يستقدم طرفة عين، وإنّ ذلك السبب الذي كان فيه حتفه هو الذي قدّره الله تعالى، وقضاه عليه، وأمضاه فيه، و لم يكن له بدّ منه، ولا محيصَ عنه، ولا مفرّ له ولا مهرب، ولا فكاك ولا خلاص، قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ .[(١)] وقال تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .[(٢)]

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ اللّهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ،وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيّام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجّل شيئا قبل حلّه، أو يؤخّر شيئا عن حلّه، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيرا وأفضل).[(٣)]

ولا تعارض بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ في حديث آخر: (من سرّه أن يُبسط عليه رزقه، أو يُنسأ له في أثره، فليصل رحمه).[(٤)]

حيث ذكر العلماء في الجمع بينهما جوابين:

الأوّل: أن هذه الزّيادة تكون بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضّياع في غير ذلك.

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٤٥).

(٢) سورة الأعراف الآية (٣٤).

(٣) رواه مسلم في صحيحه،كتاب القدر، باب بيان أنّ الآجال والأرزاق وغيرها، لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، برقم (٢٦٦٣).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، برقم (٥٩٨٦)، ومسلم في صحيحه،كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطعها، برقم (٢٥٥٧).

الثاني: أنّها بالنسبة لما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ، فيظهر لهم أنّ عمر فلان مثلا ستون سنة إلاّ أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون سنة، وقد علم الله ما سيقع من ذلك، فهي بالنسبة إلى علم الله وما سبق به قدره لا زيادة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة وهو مراد الحديث.[١]

قال أبو الحسن(٢)رحمه الله:« ...ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان؛ وأنّ من مات وقتل فبأجله مات وقتل...».(٣)

وقال الإسماعيلي[٤]رحمه الله عن أهل السنة: « ويقولون: إنّ الله عزّ وجلّ أجّل لكل حيّ مخلوق أجلا هو بالغه، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وإن مات أو قتل فهو عند انتهاء أجله المسمى له، كما قال الله عز وجل﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾.[٥]».[٦]

وقال البغدادي[٧]رحمه الله:« وقال أهل السنة في الآجال: إنّ كلّ من مات حتف أنفه أو أو

---

(١) ينظر شرح الإمام النووي لصحيح مسلم(٣٣٠/١٦).

(٢) أبو الحسن هو علي بن إسماعيل بن إسحاق كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، تلقى مذهب المعتزلة وتقدّم فيهم، ثم انتقل إلى مذهب ابن كلاب، ثم منّ الله عليه فسلك نهج أهل السنة، ومن مصنفاته مقالات الإسلاميين، والإبانة عن أصول الديانة، وغيرها توفي سنة ٣٢٤هـ ينظر: السير (٨٨/١٥)، والأعلام (٢٦٣/٤).

(٣) الإبانة عن أصول الديانة ص (٢٠). والفرق بين الفرق ص (٣٣٠).

(٤) الإسماعيلي هو الإمام الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني الشافعي، كتب الحديث وهو صبي، وله تصانيف؛ منها: مسند عمر، والمستخرج على الصحيح، توفي سنة ٣٧١هـ. ينظر سير الأعلام النبلاء (٢٩٢).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٥٤).

(٦) اعتقاد أئمة الحديث ص (٧٧).

(٧) البغدادي هو الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي صاحب التصانيف البديعة، توفي سنة ٤٢٩هـ ينظر سير الأعلام النبلاء (٥٧٢/١٧).

قتل فإنما مات بأجله الذي جعله الله أجلا لعمره؛ والله تعالى قادر على إبقائه والزيادة في عمره، لكنه متى لم يُبْقِهِ إلى مدة لم تكن المدة التي لم يبقه إليها أجلا له ».(١)

وفي هذا رد على بعض المعتزلة(٢)الذين زعموا أنّ المقتول لم يمت بأجله قطعا، وأنهّ من قتل قتيلا فقد أعجله عن أجله، وبقي له من الأجل ما لم يستوفه و لم يستكمله.

وذهب بعضهم إلى أنه لو لم يقتل جاز أن يموت في ذلك الوقت، وجاز أن لا يموت، ولا يقطع على واحد من الأمرين.(٣)

يقول القاضي عبد الجبار(٤)مبينا آراء المعتزلة في هذه المسألة وذاكرا رأيه فيها:

« ... وإنما الخلاف في المقتول لو لم يقتل كيف يكون حاله في الحياة والموت؟ فعند شيخنا أبي الهذيل أنه كان يموت قطعا؛ وعند البغداديين يعيش قطعا.

والذي عندنا يجوز أن يحيا، ويجوز أن يموت، ولا يقطع على واحد من الأمرين ».(٥)

وفيما سبق إيراده من نصوص الكتاب والسنة والنقولات من أئمة السلف رحمهم الله رد لهذه الآراء. وبالله التوفيق.

---

(١) الفرق بين الفرق ص (٣٣٠).

(٢) يأتي التعريف بهم ص (٤٦).

(٣) ينظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص (٧٨٢)؛ ومقالات الإسلاميين ص (٢٥٦) والتنبيه والرد ص (١٧٦).

(٤) القاضي عبد الجبار هو أبو الحسن عبد الجبار أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسد آبادي، من كبار المعتزلة وأشهرهم تصنيفا في الاعتقاد على مذهب الاعتزال، ومن مصنفاته: المغني في أبواب التوحيد والعدل. وفضل الاعتزال وطبقات المعتزلة. توفي سنة ٤١٥هـ. ينظر ميزان الاعتدال (٣٣٣/٢)، وشذرات الذهب (٢٠٣/٣).

(٥) شرح الأصول الخمسة ص (٧٨٢).

الأصل الرابع: الإيمان باستئثار الله تعالى بعلم هذا الأجل دون غيره من المخلوقين.

يؤمن أهل السنة والجماعة بأنّ ذلك الأجل المحتوم، والحدّ المرسوم لانتهاء كلّ عمر إليه لا اطّلاع للخلق عليه، ولا علم لهم به، وأنّ ذلك من مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها إلا هو.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.[١]

فقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لوقوعها جوابا عن سؤال مقدّر في نفوس الناس، وقد أفادت حرف«إنّ» التأكيد بتحقيق علم الله تعالى بوقت الساعة؛ وذلك يتضمن تأكيد وقوعها؛ وفي كلمة«عنده» إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم، لأن العندية شأنها الاستئثار.

وجملة﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ عطف على جملة الخبر؛ والتقدير : وإن الله ينزل الغيث فيفيد التخصيص بتنزيل الغيث؛ والمقصود عنده علم وقت نزول الغيث، وليس المقصود مجرد الإخبار بأنه ينزل الغيث لأن ذلك ليس مما ينكرونه. ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ أي ينفرد بعلم جميع أطواره؛ من نطفة وعلقة ومضغة، ثم من كونه ذكرا أو أنثى وإبّان وضعه بالتدقيق ؛ وجيء بالمضارع لإفادة تكرر العلم بتبدّل تلك الأطوار والأحوال؛ والمعنى : ينفرد بعلم جميع تلك الأطوار التي لا يعلمها الناس لأنه عطف على ما قُصد منه الحصر.

وأما قوله: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾فمعناه نفي علم أية نفس بأخصّ أحوالها؛ وهو حال اكتسابها القريب منها في اليوم الموالي يومَ تأمُّلِها ونظرِها، وكذلك مكان انقضاء حياتها، وذلك للنداء عليهم بقلة علمهم؛ وهذا النفي للدراية بهذين الأمرين عن كل نفس فيه كناية عن إثبات العلم بهما لله تعالى واختصاصه تعالى بعلمهما.[٢]

---

(١)سورة لقمان الآية (٣٤).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (٢١/ ١٩٦-١٩٩).

وقال قتادة[١] في هذه الآية:

«خمس من الغيب استأثر بهن الله؛ فلم يطلع عليهن ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، إنّ الله عنده علم الساعة فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة؛ في أيّ سنة ولا في أيّ شهر أليلا أم نهارا، وينزل الغيث فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث؛ أليلا أم نهارا، ويعلم ما في الأرحام، فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، أخيرا أم شرا، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت، ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر في سهل أم في جبل».[٢]

وعن سالم بن عبد الله[٣] عن أبيه : (أنّ رسول الله ﷺ قال: (مفاتح الغيب خمس ، إنّ الله عنده علم السّاعة، وينزّل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت، إن الله عليم خبير).[٤]

ومعنى حصر مفاتح الغيب في هذه الخمسة أنها هي الأمور المغيبة المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم، وعُبِّر عنها بالمفاتح لأنها تكون مجهولة للنّاس، فإذا وقعت فكأنّ وقوعها فتح لما كان مغلقا؛ وأمّا بقية أحوال الناس فخفاؤها عنهم متفاوت، ويمكن لبعضهم تعيينها؛ مثل تعيين يوم كذا للزفاف، ويوم كذا للغزو، وهكذا مواقيت العبادات والأعياد، وكذلك مقارنات الأزمنة مثل يوم كذا مدخل الربيع ؛ فلا تجد مغيبات لا قِبَل لأحد بمعرفة وقوعها من أحوال الناس في هذا العالم غير هذه الخمسة.[٥]

---

(١) هو قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطاب السدوسي البصري، مفسّر حافظ، وكان مع علمه بالحديث رأسا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب، مات بواسط سنة ١١٧ هـ وقيل : سنة ١١٨هـ. ينظر : تذكرة الحفاظ (١٢٢/١)، وتهذيب التهذيب (٤٢٨/٣-٤٣٠).

(٢) الدر المنثور (٥٣١/٦).

(٣) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي أبو عمر أو أبو عبد الله المدني أحد الفقهاء السبعة على قول، كان ثبتا عابدا فاضلا كان يشبّه بأبيه في الهدي والسمت، من كبار الثالثة مات في آخر سنة ١٠٦هـ. ينظر تهذيب التهذيب (٣٨٠/٣)، وتقريب التهذيب ص (١٦٦).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب وعنده فاح الغيب، برقم: (٤٦٢٧).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٩٨/٢١).

وقال الإمام القرطبي[١]رحمه الله:« وأجمعت الأمة على أنّ الموت ليس له سنّ معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم؛ وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، مستعدا لذلك».[٢]

وفي هذا رد على الشيعة[٣] الذي يزعمون أنّ أئمتهم يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنهم لا يخفى عليهم شيء؛ مما كان وما يكون، وقد أكثرت الرافضة في كتبهم من الروايات عن الأئمة يثبتون لأنفسهم هذه الخاصية؛ منها:

ما أورده الكليني[٤]في كتابه الأصول من الكافي؛ في باب أنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنّه لا يخفى عليهم شيء؛ أنّ أبا عبد الله قال:« لو كنت بين موسى والخضر عليهما السلام لأخبرتهما أني أعلم منها، ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما، لأنّ موسى والخضر عليهما السلام أُعطيا علم ما كان، و لم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة، وقد ورثناه من رسول الله ﷺ وراثة».[٥] وذكر أيضا أنه قال: «إني لأعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنة وما في النار، وأعلم ما كان وما يكون»[٦] وذكر عنه أيضا أنه قال: «كان أمير المؤمنين (يعني عليا ابن أبي طالب

---

(١) القرطبي هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي، كان إماما زاهدا في الدنيا وعالما متفننا متبحرا، له تصانيف مفيدة توفي سنة ٦٧١هـ. ينظر: الديباج المذهب لابن فرحون (٣١٧/٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٧٤/٥٠ت٧٥).

(٢) التذكرة (١٢٤/١).

(٣) **الشيعة**: فرقة تنتسب إلى الإسلام تعتقد بأحقية علي ﷺ بالإمامة على باقي الصحابة بما فيهم الشيخان، وأنّ ذلك ثبت نصا، وأنّ الإمامة لا تخرج من أولاده؛ ومن عقائدهم: القول بعصمة الأئمة عن الكبائر والصغائر، وبغض الشيخين وشتمهما وغير ذلك من العقائد الباطلة، ينظر: الملل والنحل(١٤٦/)، وفرق معاصرة (٣١٦/١) والموسوعة الميسرة (١٠٦٩/٢، ١٠٩٥).

(٤) الكليني هو محمد بن يعقوب بن إسحاق أبو جعفر، المرّوج المجدد للمذهب الشيعي في رأس المائة الرابعة، ألف كتابه الكافي في عشرين سنة، وقرأه عليه جمع كثير، توفي سنة ٣٢٨وقيل ٣٢٩هـ. ينظر طبقات أعلام الشيعة المسمى: «نوابغ الرواة في رابعة المئات» للطهراني ص (٣١٤-٣١٥).

(٥) الأصول من الكافي للكليني؛ كتاب الحجة، ص (٢٦١).

(٦) المصدر نفسه.

طالب ﷛) كثيرا ما يقول: أنا قسيم الله بين الجنة والنار، ...لقد أوتيت خصالا ما سبقني إليها أحد قبلي، علمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب، فلم يفتني ما سبقني، و لم يعزب عني ما غاب عني». (١)

ويذكر أيضا أن أبا جعفر قال:

« لو كان لألسنتكم أوكية لحدّثت كل امرئ بما له وما عليه ». (٢)

وروى أيضا في باب أنّ الأئمة يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم عن أبي عبد الله (جعفر الصادق) أنه قال:

« أيّ إمام لا يعلم ما يصيبه، وإلى ما يصير إليه، فليس ذلك بحجة الله على خلقه». (٣)

وهذه نقولات قليلة بالنسبة لما يذكره الرافضة وينقلون في زعمهم عن الأئمة في هذا الباب.

كما أنّ فيه أيضا ردا على الصوفية الذين يدّعون أنّ الأولياء يعلمون ما في السماوات وما في الأرض، وما في اللوح المحفوظ والعرش، ومن أقوالهم في ذلك؛ ما ذكره النبهاني(٤) في ترجمة محمد شمس الدين الحنفي(٥)

أنه لو سئل عن أي شيء لأجاب من اللوح المحفوظ. (٦)

---

(١) المصدر نفسه (١١٧).

(٢) المصدر نفسه، كتاب الحجة، باب أنّ الأئمة لو سُتِر عليهم لأخبروا كل امرئ بما له وما عليه

(٣) الأصول من الكافي، كتاب الحجة، باب أنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلاّ باختيارهم، ص (١٥٨).

(٤) النبهاني هو أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل النبهاني الشافعي الأديب الصوفي؛ من مصنفاته: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية؛ و جامع كرامات الأولياء، مات سنة ١٣٥٠ هـ ينظر معجم المؤلفين (١٣/٢٧٥-٢٧٦).

(٥) هو محمد شمس الدين الحنفي المصري الشاذلي؛ زعم النبهاني أنه كان من أجلاء مشايخ الصوفية في مصر، وسادات العارفين، وأحد الأوتاد؛ مات سنة ٧٤٨هـ. ينظر جامع كرامات الأولياء (١/٢٦١-٢٧٠).

(٦) المصدر نفسه (١/٢٦٨،٢٦١).

وقال ابن ضيف الله السوداني[١]
إنّ من الأولياء من يتكلم بالمغيبات فينظر في اللوح المحفوظ ويخبر منه، فلا يتغير ولا يتبدل ما أخبر عنه.[٢]

وقال محمّد السائح[٣]عن شيخه التيجاني[٤] مدّعيا معرفته بالمغيبات:
وأما مكاشفته...بمعنى إخباره بالأمر قبل وقوعه فيقع وفق ما أخبر به؛ فلا يكاد ينحصر ما حدّث به الثقات عنه،ومن ذلك إخباره بأمور لم تقع إلا بعد وفاته بالتصريح أو التلميح.[٥]
وهذا قليل من كثير مما يذكره الصوفية عن مشايخهم في هذا الباب.

---

(١) ابن ضيف الله هو محمد بن ضيف الله بن الفقيه ضيف الله بن علي بن ضيف الله السوداني، تفقه على مذهب المالكية، ثم عكف على الكتب الصوفية وخاصة كتاب طبقات الشعراني حتى صار من غلاة أهل التصوف؛ ومن مصنفاته: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان؛ مات سنة ١٢٢٤هـ. ينظر ترجمته في مقدمة كتابه الطبقات للدكتور يوسف فضل ص (١٥-١٧).

(٢) ينظر طبقات ابن ضيف الله ص (٦١).

(٣) محمد السائح هو أبو حامد محمد بن العربي السائح الشرقي، من كبار شيوخ الطريقة التيجانية، مات سنة ١٣٠٩هـ. ينظر الأعلام (٦/٢٦٥).

(٤) التيجاني هو أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن أحمد التيجاني نسبة إلى« بني تجين» من البربر مؤسس الطريقة التيجانية؛ توفي سنة ١٢٣٠هـ. ينظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف ص (٣٧٨).

(٥) ينظر بغية المستفيد بشرح منية المريد ص (٢٤٦-٢٤٧)

الأصل الخامس: الإيمان بما ورد في الشرع من الأمور الغيبية التي تكون أثناء الموت.

يثبت أهل السنة والجماعة كل ما ثبت في النصوص من الأمور الغيبية التي تصاحب الموت، كنزول الملائكة وجلوسهم حول الميت مدّ البصر، وتبشيرهم للمؤمن برحمة الله، كقولهم: (... اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب؛ اخرجي حميدة؛ وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان ...).(١)

وإخبارهم الكافر بما سيصير إليه من سخط الله وغضبه وأليم عقابه، كقولهم: (... اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث؛ اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغسّاق وآخر من شكله أزواج...).(٢)

وكذلك ما ورد في ضرب الملائكة للكفّار أثناء القبض؛ كما قال تعالى:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾.(٣)

ويقرون كذلك بما أخبر الله أنه يصدر من بعض الموتى من مخاطبات أثناء الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.(٤)

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.(٥)

---

(١) رواه أحمد في المسند، برقم (٨٧٦٩)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، ينظر تحقيق المسند (٣٧٧/١٤).

(٢) سبق تخريجه؛ وهو تتمة لحديث السابق.

(٣) سورة محمد الآية (٢٧-٢٨).

(٤) سورة المؤمنون الآية (٩٩-١٠٠).

(٥) سورة المنافقون الآية (١٠).

ويُقرّون كذلك بما يصاحب الموت من سكرات قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[١]أي: وجاءت شدة الموت وغلبته على فهم الإنسان كالسكرة من النوم أو الشراب.

وقوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ فيه قولان:أحدهما أن «ما» ههنا موصولة أي: الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتتناءى وتفرّ، قد حلّ بك ونزل بساحتك.

الثاني: أنّ«ما» نافية؛ بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.[٢]

وقد اختُلِف في المخاطب في هذه الآية:

فقيل: هو الكافر؛ وقيل غير ذلك.

والصّحيح أنّ المخاطب بها الإنسان من حيث هو.[٣]

وهذه السكرات لا يسلم منها أحد، إذ لو سلم منها أحد لسلم منها نبينا محمدﷺ.[٤]

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللهﷺ (كان بين يديه علبة[٥]ماءٍ فجعل يدخل يديه يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: لا إله إلا الله إن للموت سكرات).[٦]

قال الإمام البيهقي[٧]رحمه الله تعالى في كتابه إثبات عذاب القبر:

---

(١) سورة ق الآية (١٩).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٤١٧/١١)، وتفسير القرآن العظيم (٢٧٠٧/٤).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٧٠٧/٤).

(٤) ينظر اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة ص(٥٧).

(٥) العُلْبَة : قَدَح من خَشب؛ وقيل: من جِلْد وخَشَب يُحْلب فيه. ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر(٥٥٠/٣).

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٤٩).

(٧) البيهقي هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي؛ نسبة إلى«بيهق » قرية بنيسابور، الإمام الحافظ الفقيه، من مصنفاته الأسماء والصفات، والاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، والجامع لشعب الإيمان، توفي سنة ٤٥٨هـ. ينظر وفيات الأعيان (٥٧/١)، وسير أعلام النبلاء (١٦٣/١٨).

«باب الدليل على أنّ الله تعالى يخلق على من فارق الدنيا أحوالا لا نشاهدها و لا ندركها، يتنعّم فيها قوم، ويتألم آخرون...

قال الله جل ثناؤه فيمن أنعم عليهم بالإيمان و الاستقامة:

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.[١] قال مجاهد[٢]: ذلك عند الموت... وقال فيمن أنعم عليهم بالشهادة: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾.[٣] فقطع عليهم بأنهم أحياء وهم ذا يرون في دار الدنيا متلطّخين في الدماء، قد صاروا جيفة تأكلهم سباع الطيور و الوحوش، وفي ذلك دلالة على جواز خلق الله تعالى عليهم أحوالا يستمتعون فيها وإن كنا لا نقف عليها...».[٤]

ثم أخذ رحمه الله يذكر الأدلة من السنة في ذلك؛ إلى أن قال:

« ...وفي كلّ ذلك و فيما روي أمثاله تركناه لأجل التخفيف و ترك التطويل دلالة على ما قصدناه؛ من جواز حدوث هذه الأحوال على من فارق الدنيا؛ و إن كنا لا نشاهدها، ولا نقف عليها، ووجب اعتقادها عند ورود الخبر الصحيح بها».[٥]

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٠).

(٢) مجاهد هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي مولاهم المكّي، إمام في التفسير، ثقة، توفي سنة ١٠٢هـ، ينظر سير أعلام النبلاء ((٤/٤٤٩))، وتقريب التهذيب (٢/٢٢٩).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٦٩-١٧٠).

(٤) إثبات عذاب القبر ص (٦٦).

(٥) المصدر نفسه ص (٦٩).

الأصل السادس:أنه لا رجعة إلى هذه الدنيا بعد الموت.

يؤمن أهل السنة والجماعة باستحالة الرجوع إلى هذه الدار بعد فراقها، وأنّ ذلك مما صرّحت نصوص الكتاب والسنة بنفيها، قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .[١]

« يخبر الله تعالى عن حال المحتضرين عند الموت من الكافرين أو المفرّطين في أمر الله تعالى وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرّجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ... فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار، ويوم النّشور ووقت العرض على الجبّار، وحين يعرضون على النّار».[٢]

وفي هذا رد على عقيدة الرجعة التي اتفقت عليها الشيعة الرافضة.[٣]ومرادهم بذلك أنّ النبي ﷺ وأهل بيته علي والحسن والحسين وبقية الأئمة سيرجعون إلى الدنيا قبل قيام الساعة، وفي المقابل يرجع أبو بكر وعمر وعثمان وعائشة وكل من آذى أهل البيت ليقام عليهم الحد، ويُنتَقَم لأهل البيت منهم وذلك إذا ظهر المهدي المنتظر عندهم.[٤]

ومن رواياتهم في تقرير هذه العقيدة:

« ليس منّا من لا يؤمن برجعتنا، ولا يقر بحلة المتعة».[٥]

« واعتقادنا في الرجعة أنه حق ».[٦]

---

(١) سورة المؤمنون الآية (١٠٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٢٠٠١/٣).

(٣) سبق التعريف بهم.ص (٢٤).

(٤) ينظر مجمع البيان للطبرسي(٢٥٢/٥)، وبحار الأنوار للمجلسي (١٢٣/٥٣)، والإيقاظ من الهجعة للحر العاملي ص(٣٣)، ومنتهى الآمال للقمي (٣٤١/٢)، والمقالات ص (١٥) والفرق بين الفرق ص (٣٩). (٢٠١)، وبطلان عقائد الشيعة ص (٩٥-٩٧).

(٥) منتهى الآمال للقمي (٣٤١/٢).

(٦) الاعتقادات لابن بابويه ص (٩٠).

الأصل السابع: انتفاء علم الأحياء عن الموتى وعلم الموتى عن الأحياء بعد الموت.

يعتقد أهل السنة والجماعة بانقطاع خبر الأموات عن الأحياء وكذلك خبر الأحياء عن الموتى إلا فيما خصّه الشرع، وورد فيه دليل،كسماع الميّت خفق نعال مشيّعيه عند رجوعهم، وسماعهم سلام المسلّمين عليهم؛ وغير ذلك مما ورد فيه دليل على شعور الموتى به.

فقد روى البخاري في صحيحه :(أنّ أمّ العلاء[١]قالت: لما توفي عثمان بن مظعون ... وجعلناه في ثيابه؛ دخل علينا ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله.

فقال لي النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ : أمّا عثمان فقد جاءه والله اليقين؛ وإنّي لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به؛ قالت فوالله لا أزكّي أحدا بعده أبدا).[٢]

هذا بالنسبة لانتفاء علم الأحياء عن الأموات؛أما الدليل على انتفاء علم الأموات عن الأحياء فهو ما ثبت في السنة من حديث أبي هريرة ﷺ يرفعه(إنّ المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيودّ لو خرجت يعني نفسه- والله يحب لقاءه، وإنّ المؤمن يصعد بروحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلانا في الدنيا أعجبهم ذلك؛وإذا قال: إنّ فلانا قد مات قالوا:ما جيء به إلينا...).[٣]

---

(١) أم العلاء بنت الحارث بن ثابت بن خارجة الأنصارية، صحابية من المبايعات، وكان رسول الله ﷺ يعودها في مرضها، ويقال إنها والدة خارجة بن زيد بن ثابت. ينظر الاستيعاب (٦٣٢/١)، الإصابة في تمييز الصحابة (٤٣٩/٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة برقم (٣٩٢٩).

(٣) رواه البزار (٤١٤/١)، برقم (٨٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٠/٦) برقم (٢٦٢٨).

الأصل الثامن: الإيمان بما ورد من ذبح الموت بعد فصل القضاء.

يثبت أهل السنة كذلك ما جاء في النصوص من ذبح الموت بعد دخول أهل الجنّة الجنة وأهل النّار النّار.

فعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

(يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد؛ يا أهل الجنة فيشرئبّون[١]وينظرون؛ فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم هذا الموت؛ وكلهم قد رآه.

ثم ينادي يا أهل النار؛ فيشرئبّون، وينظرون، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم هذا الموت؛ وكلهم قد رآه فيذبح .

ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ...).[٢]

فإن قيل:الموت عرض فكيف يذبح؟

قيل: يجعله الله مجسّما حيوانا مثل الكبش.[٣] ولا مانع أن ينشيء الله من الأعراض أجسادا يجعلها مادة لها كما ثبت أن سورتي البقرة وآل عمران يجيئان يوم القيامة كأنهما غمامتان ونحو ذلك من الأحاديث.[٤]

---

(١) فيشرئبّون: أي يَرفعُون رُؤسَهم لينظُرُوا إليه.وكُلّ رافع رأسه مُشْرَئِبٌّ، يقال: اشْرَأَبَّ إِليه ولَهُ اشْرِئْبَاباً أي: مَدَّ عُنُقَه لِيَنْظُرَ؛ والاسم منه الشُّرَأْبِيبَةُ بالضَّمِّ كالطُّمَأْنِينَة. ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر(١١٢٩/٢)، وتاج العروس (٦١٨/١).

(٢) رواه البخاري في صحيحه،كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ برقم (٤٧٣٠).

(٣) ينظر عمدة القاري (٢٥/١٩).

(٤) ينظر فتح الباري (٤٢١/١١).

الأصل التاسع: ذكر الموت وجعله على البال، والاستعداد له قبل نزوله.

هذا الأصل يعتبر لازما من لوازم الإيمان بالأصول السابقة، وثمرة من ثمراتها، بل هو أهمّها، فمن علم يقينا تحتّم الموت عليه، وأنّه لا رجعة بعده إلى هذه الدار، ولا يدري متى يداهمه لزمه الإكثارُ من ذكر الموت، وجَعْله على البال، والتّأهّب له قبل نزوله، والاستعداد لما بعده قبل حصوله، والمبادرة إلى العمل الصالح قبل دهوم البلاء وحلوله، والعلمُ يقينا بأنّه الفيصل بين هذه الدار وبين دار القرار، وأنه الفصل بين ساعة العمل والجزاء عليه، وأنه الردم بين الإنسان وآماله، والمفضي به إلى أعماله، وإلى الحسن والقبيح من أقواله، ولهذا كله قال النبي ﷺ : (أكثروا ذكر هاذم[١]اللذات).[٢]

فذِكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجّه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، وهو مفيد للمؤمن على أية حال كان، فذكر الموت في حالة الضيق والمحنة يسهّل عليه بعض ما هو فيه، فيعلم أنه لا يدوم، والموت أصعب منه، وتذكّر ه في حالة النعمة والسعة يمنع من الاغترار بها والسكون إليها.[٣]

وقد قيل إن من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة.

ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة.[٤]

---

(١) الهاذم: مِن هذَمَ الشيءَ يَهذِمه؛ إذا قطعه أو أكله بسرعة. ينظر لسان العرب(٦٠٦/١٢).

(٢) رواه أحمد في المسند برقم (٧٩٢٥)، وإسناده حسن، ينظر تحقيق المسند (٣٠١/١٣).

(٣) ينظر التذكرة للقرطبي (١٢٣/١).

(٤) المصدر نفسه.

المطلب الثالث: أحوال الناس عند الموت.

قسّم الله تعالى الناس عند الموت ثلاثة أقسام، قسمان من أهل الإيمان والسعادة،وقسم ثالث من أهل الشقاوة؛ فقال ﷻ: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ .(١)

فهذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم، إمّا أن يكون من المقرّبين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإمّا أن يكون من المكذّبين بالحق، الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله.

فإن كان المحتضر من المقرّبين- وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرّمات والمكروهات وبعض المباحات- فله الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن.

وأما إذا كان المحتضر من أصحاب اليمين- وهم الذين اقتصروا على التزام الواجبات، واجتناب المحرمات، و لم يزيدوا على ذلك- فتبشّرهم الملائكة؛ وتقول لأحدهم: سلام لك أي: لا بأس عليك؛ أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين.

وقيل: المعنى أن الملائكة تسلّم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين.

وأمّا إن كان المحتضر من المكذّبين بالحق، الضالين عن الهدى؛ فضيافته من الحميم الذي يصهر به ما في البطون والجلود؛ والنار التي تغمره من جميع جهاته.(٢)

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾أي: إن هذا الذي أخبرتكم به أيها الناس من الخبر عن المقربين وأصحاب اليمين وعن المكذبين الضالين وما إليه صائرة أمورهم لهو الحق من الخبر اليقين لا شك فيه.(٣)

---

(١) سورة الواقعة الآية (٨٨-٩٠).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤/٢٨٠٦-٢٨٠٨).

(٣) ينظر تفسير الطبري(١١/ ٦٦٨)، ومعارج القبول (٣/١٠٠٧).

الباب الأول: أقوال أهل البرزخ ودلالاتها العقدية.

توطئة: معنى البرزخ، ومجمل الاعتقاد الحق في الحياة البرزخية، مع الرد على المخالفين فيها.

المطلب الأول: معنى البرزخ في اللغة والشرع.

البَرْزَخُ في اللغة :ما بين كل شيئين؛ والحاجز بين الشيئين، ومنه قيل للميت هو في بَرْزخٍ لأنه بين الدنيا والآخرة.(١) ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ .(٢)

وأما البَرْزَخُ في الشرع: فهو ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث فمن مات فقد دخل البَرْزَخَ. ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .(٣)،(٤).

فالبرزخ دار بين الدنيا والآخرة، يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة.(٥)

قال الشيخ محمد العثيمين(٦)رحمه الله تعالى: « البرزخ الحاجز بين شيئين، والمراد به ما بين موت الإنسان إلى قيام الساعة».(٧)

---

(١) ينظر لسان العرب (٣/٨). والقاموس المحيط ص (٣١٨).

(٢) سورة الفرقان الآية (٣٥).

(٣) سورة المؤمنون الآية (١٠٠).

(٤) ينظر تفسير بن كثير (٣/٢٠٠٢)، ومفردات القرآن (١/١٠٦). والنهاية في غريب الحديث (١/٢٩٦) ولسان العرب (٣/٨).

(٥) ينظر الروح ص (٧٣).

(٦) الشيخ محمد العثيمين هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن سليمان بن عبد الرحمن بن عثمان الذي أطلق عليه عثيمين فاشتهربه؛ ولد في مدينة عنيزة عام ١٣٤٧هـ، وكان ذا ذكاء وهمة في طلب العلم، حفظ القرآن وهو صغير، ثم لازم الشيخ عبد الرحمن السعدي، ومما خلفه من مؤلفات: الشرح الممتع على زاد المستقنع، القول المفيد على كتاب التوحيد، شرح العقيدة الواسطية وغيرها، وتوفي سنة ١٤٢١هـ ينظر الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين لوليد أحمد الحسين ص (١٠) وما بعدها.

(٧) شرح العقيدة السفارينية لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ص (٤٣١).

المطلب الثاني: مجمل اعتقاد أهل السنة في الحياة البرزخية.

ظهر لي من خلال النظر في كتب أهل السنة، وما يستدلون بها من النصوص على عقيدتهم في الحياة البرزخية أنّ معتقدهم فيها يتلخص في الأصول التالية:

الأصل الأول: الإيمان بإعادة روح الميت في جسده وحياته في البرزخ.

يثبت أهل السنة بأنّ الميّت يعاد فيه روحه بعد الصعود بها إلى السماء، وأنه يجلس في قبره، وذلك بعد دفنه حيث يسمع قرع نعال أصحابه الذين شيّعوه ودفنوه.

فقد روى أبو داود في سننه من حديث البراء[١] رضي الله عنه

قال:(خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله؛ كأنما على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا -زاد في حديث جرير ها هنا- وقال: وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ " قال هناد قال " ويأتيه ملكان فيجلسانه...).[٢]

وجاء في حديث البراء[٣]عند الإمام أحمد: (... فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه؛ فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله؛ فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام؛ فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت...).[٤]

---

(١) البراء هو بن عازب بن حارث بن عدي بن جشم الأنصاري الحارثي الخزرجي، يكنى أبا عمارة وقيل أبا الطفيل، استصغر يوم بدر، وأول مشهده الخندق، وغزا مع النبي ﷺ خمس عشرة غزوة، وشهد مع علي رضي الله عنه الجمل وصفّين والنهروان، ثم نزل الكوفة ومات بها زمن مصعب بن الزبير، سنة ٧٢هـ. ينظر الاستيعاب (١/١٥٥)، وتهذيب التهذيب (١/٣٨٨).

(٢) رواه أبو داود في سننه؛ كتاب السنة، باب المسألة في القبر، برقم (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/٩٠٣) برقم (٣٩٧٨).

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤). وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/٣٦٨) برقم (١٦٣٠)، وينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله التركي (٣٠/٤٩٩-٥٠٣).

هذا مع العلم بأنّ إعادة الروح إلى الجسد في البرزخ ليست على الوجه المعهود في الــدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا.[(١)]

فعود الروح إلى الجسد بعد الموت لا يقتضي استمرارها فيه، ولا يستلزم حياة أخرى قبل يوم النشور نظير الحياة المعهودة، بل إعادة الروح إلى الجسد في البرزخ إعادة برزخيــة لا تزيل عن الميت اسم الموت، بل هي نوع حياة برزخية، والحياة جنس تحتها أنواع؛ إثبات بعضها لا ينافي الموت. كما أنّ الموت جنس تحتها أنواع وإثبات بعض أنواعهــا لا ينــافي الحياة؛ كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان إذا استيقظ من النوم قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور).[(٢)]

---

(١) ينظر الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص (٢٨١).

(٢) ينظر شرح قصيدة ابن القيم لأحمد بن إبراهيم بن عيسى (١٧٠/٢).

الأصل الثاني: إثبات سؤال الملكين، والإيمان بكل ما ورد من صفتهما.

يثبت أهل السنة ما ورد من فتنة الملكين للميت في البرزخ، وبما ثبت من صفتهما.

فقد روى الترمذي من حديث أبي هريرةرضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ (إذا قبر الميت، أو قال أحدكم؛ أتاه ملكان أسودان أزرقان (يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل؟

فيقول ما كان يقول هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين، ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نم فيقول: ارجع إلى أهلي فأخبرهم ؟ فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك.

وإن كان منافقا؛ قال سمعت الناس يقولون فقلت مثله، لا أدري. فيقولان: قد كنّا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض التئمي عليه؛ فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذّبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك).[١]

وقد ورد في بعض الأحاديث أنّ الذي يتولى السؤال في القبر ملك واحد كما روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال:

(سمعت النبي ﷺ يقول:إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاء ملك شديد الانتهار، فيقول له ما كنت تقول في هذا الرجل...).[٢]

ولا تعارض بينها إذ ذلك يرجع إلى الأشخاص، فربّ شخص يأتيه الملكان في حال واحد عند انصراف الناس عنه، ليكون السؤال عليه أهول، والفتنة أشدّ بحسب ما اقترف من الآثام، وآخر يأتيانه قبل انصراف الناس عنه، وآخر يأتيه أحدهما على الانفراد فيكون ذلك أخفّ في السؤال لما قدّمه من صالح الأعمال.[٣]

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، برقم (١٠٧١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١١/١) برقم (٨٥٦).

(٢) رواه أحمد في المسند برقم (١٤٧٢٢)، وهو حديث صحيح؛ ينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله بن عبد المحسن التركي (٦٥/٢٣).

(٣) ينظر التذكرة (٣٥٧/١).

قال شيخ الإسلام[١] رحمه الله عن عقيدة أهل السنة في هذه الفتنة:«... فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر وبنعيمه؛ فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم...».[٢]

قال الشيخ السعدي[٣] رحمه الله:

«وهذا الابتلاء والامتحان لكل عبد؛ فأمّا من كان مؤمنا إيمانا صحيحا ثبته الله ولقّنه الجواب الصحيح للملكين، كما قال تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[٤] ...فالمؤمن يجيب الجواب الصحيح ولو كان عاميا أو أعجميا....وأمّا الكافر والمنافق ومن كان في الدنيا غير مؤمن بما جاء به الرسول ﷺ فإنه يستعجم عليه الجواب ولو كان أعلم الناس وأفصحهم؛ كما قال تعالى:

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾[٥]».[٦]

---

(١) شيخ الإسلام هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرّاني ثم الدمشقي، تقي الدين أبو العباس الإمام الفقيه المجتهد المحدث الحافظ المفسّر الأصولي الزاهد، ولد بحران سنة ٦٦١هـ أتقن العلوم الشرعية كلها وهو ابن بضع عشرة سنة، وتولى التدريس بعد وفاة والده وعمره (٢١)سنة، وكان سيفا مسلولا على المبتدعة، ومات معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. وزادت تصانيفه على أربعة آلاف كراس. ينظر الذيل على طبقات الحنابلة (٢/٣٨٧-٤٠٨). والعقود الدرية لابن عبد الهادي ص: (٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/١٤٥).

(٣) الشيخ السعدي هو الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، ولد في بلدة عنيزة سنة ١٣٠٧هـ، حفظ القرآن ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ثم اشتغل بالعلم على علماء بلده ومن يرد إليها، ولما نضج علمه شرع في التأليف، ومن مؤلفاته: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، والقواعد الحسان في تفسير القرآن، وبهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، وتوفي رحمه الله سنة ١٣٧٦هـ. ينظر علماء نجد خلال ثمانية قرون للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام (٣/٢١٨-٢٧٢).

(٤) سورة إبراهيم الآية (٢٧).

(٥) سورة إبراهيم الآية (٢٧).

(٦) التنبيهات اللطيفة للسعدي ص (٤٠).

وهناك صنف من أهل الإيمان لا تشملهم هذه الفتنة، منهم الأنبياء، فهم لا يسألون لوجهين:

الأول: أن الأنبياء أفضل من الشهداء، وقد أخبر النبي ﷺ أن الشهيد يوقى فتنة القبر.

الثاني: أن الأنبياء يسأل عنهم الميت، فهم مسؤول عنهم وليسوا مسؤولين.

وممن لا يشملهم الفتنة أيضا الصدّيقون، لأنّ مرتبة الصدّيقين أعلى من مرتبة الشهداء، فإذا كان الشهداء لا يسألون فالصدّيقون من باب أولى، ولأنّ الصدّيق على وصفه مصدّق وصادق؛ فهو قد عُلم صدقه؛ فلا حاجة إلى اختباره، لأنّ الاختبار لمن يشكّ فيه هل هو صادق أم كاذب؛ أمّا إذا كان صادقا؛ فلا حاجة تدعوا لسؤاله.

ومنهم أيضا الشهيد، والمرابط، ومن لا عقل له كالمجانين والصبيان.[١]

أما عن وقت هذه الفتنة وبدايتها؛ فيقول فيه الشيخ محمد العثيمين[٢]رحمه الله تعالى:
« والظاهر أنّ الفتنة لا تكون إلاّ إذا انتهت الأحوال الدنيوية، وسلِّم إلى عالم الآخرة، فإذا تأخر دفنه يوما أو أكثر لم يكن السؤال حتى يدفن ».[٣]

---

(١) ينظر شرح العقيدة الواسطية للشيخ العثيمين (٢/١١٠-١١٢).

(٢) سبقت ترجمته ص (٣٥).

(٣) شرح العقيدة الواسطية للشيخ العثيمين (٢/١١٣).

الأصل الثالث: الإيمان بنعيم البرزخ.

يثبت أهل السنة جميع ما ثبت في النصوص من نعيم البرزخ لمن كان أهلا له؛ كإفساح القبر للمؤمن مدّ البصر، وفتح بابٍ له إلى الجنة يأتيه من روحها وطيبها، وإلباسه لباس الجنة، ثم مجيء عمله الصّالح على صورة رجل حسن طيّب الثياب والريح يبشّره بالسرور ونومه بعد ذلك حتى يبعثه الله.

فقد جاء في حديث البراء[١] ﷺ في قصة المؤمن (...فينادى مناد في السّماء أن صدق عبدي؛ فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد...).[٢]

وجاء في حديث أبي هريرة السابق في قصة المؤمن (...ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين، ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نم؛ فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك).[٣]

مع الإيمان بأنّ هذا النعيم يتفاوت فيه أهل البرزخ على حسب إيمانهم.[٤]

قال شيخ الإسلام[٥]رحمه الله « مذهب سائر المسلمين بل وسائر أهل الملل إثبات القيامة الكبرى، وقيام الناس من قبورهم، والثواب والعقاب هناك، وإثبات الثواب والعقاب في البرزخ ما بين الموت إلى يوم القيامة؛ هذا قول السلف قاطبة وأهل السنة والجماعة، وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليل من أهل البدع».[٦]

---

(١) سبقت ترجمته (٣٦).

(٢) رواه أحمد في المسند برقم (١٨٥٣٤)، وإسناده صحيح، ينظر تحقيق المسند (٥٠٣/٣٠).

(٣) سبق تخريجه ص (٣٨).

(٤) ينظر شرح العقيدة الطحاوية ص (٥٨٤)، وشرح الصدور للسيوطي ص (١٨١).

(٥) سبقت ترجمته (٣٩).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٦٢/٤).

الأصل الرابع: الإيمان بعذاب البرزخ.

يؤمن أهل السنة كذلك بما ورد وثبت من عذاب الكفار وغيرهم ممن يستحق ذلـــك في البرزخ؛ مثل تضييق القبر عليه حتى تختلف فيه أضلاعه، وضربه بمرزبة لو ضرب بها جبلا كان ترابا، ومجيء عمله على صورة رجل قبيح منتن الريح؛ يبشره بالسوء، وفتح باب له من النار يأتيه من حرها وسمومها.

فقد جاء في آخر حديث البراء [(١)]ﷺ عند أبي داود (...وإن الكافر -فذكر موته قال- وتعـــاد روحه في جسده ويأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان: له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ...فينادي مناد من السماء أن كذب؛ فافرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار. قال: فيأتيه من حرّها وسمومها؛ قال: ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه- زاد في حديث جرير- قال:ثم يُقيّض له أعمى أبكم؛ معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابا؛ قال: فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغـــرب إلا الثقلين فيصير ترابا؛ قال: ثم تعاد فيه الروح...).[(٢)]

ويثبت أهل السنة أن هذا العذاب نوعان: منه ما هو دائم مثل عذاب آل فرعون وعذاب الكفّار، قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .[(٣)]

ومنه ما يكون مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفّت جرائمهم فيعـــذبون حسب جرمهم ثم يخفف عنهم.[(٤)]

وعليه فعذاب البرزخ ليس مختصّا بالكافرين، ولا موقوفا على المنافقين، بل يشاركهم فيـــه طائفة من المؤمنين، وكل على حاله من عمله، وما استوجبه بخطيئته وزلَـــله.[(٥)]

نسأل الله السلامة والعافية منه بمنّه وكرمه.

---

(١) سبقت ترجمته.ص (٣٦).

(٢) رواه أبو داود في سننه؛ كتاب السنة، باب المسألة في القبر، برقم (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٩٠٣/٣) برقم (٣٩٧٨).

(٣) سورة غافر الآية (٤٦).

(٤) ينظر الروح لابن القيم (٨٩) وشرح العقيدة الطحاوية ص (٥٨٢).

(٥) ينظر العاقبة ص (٢٤٦)، والتذكرة (٤١٣/١).

الأصل الخامس: الإيمان بأن هذا العذاب أو النعيم على الروح والبدن معا.

قد اتفق أهل السنة على أن عذاب البرزخ ونعيمه يقع على الروح والبدن معا.[١]

ومن أدلتهم على ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢] أي: أُميتوا في الدنيا، ثم أحياهم في القبور للمسألة.[٣] «استدل العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر؛ ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة ؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسد؛ وهو حي لنفسه لا يتطرق إليه موت ولا غشية ولا فناء».[٤]

ومما استدلوا به أيضا قوله ﷺ في حديث البراء[٥]:(وتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ...فينادي مناد من السماء أن كذب؛ فافرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار. " قال " فيأتيه من حرها وسمومها " قال " ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه...).[٦]

قال شيخ الإسلام[٧] رحمه الله:

« فقد صرّح الحديث بإعادة الروح إلى الجسد، وباختلاف أضلاعه، وهذا بيّن في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين».[٨]

وقال رحمه الله أيضا:

« فاليُعلَم أنّ مذهب سلف الأمة وأئمتها أنّ الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن

---

(١) ينظر كتاب الروح ص (٩٢) و شرح الصدور ص (١٨١).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨).

(٣)تفسير القرطبي (١٥/٢٦١).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سبقت الترجمة له ص (٣٩).

(٦) رواه أحمد في المسند برقم (١٨٥٣٤)، وإسناده صحيح، ينظر تحقيق المسند (٣٠/٥٠٣).

(٧) سبقت ترجمته.ص (٣٩).

(٨) مجموع الفتاوى (٤/٢٨٩).

ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأنّ الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعّمة، أو معذّبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا فيحصل له معها النعيم والعذاب».[١]

وقال الشيخ محمد العثيمين[٢]رحمه الله تعالى عن نعيم القبر وعذابه:

« المعروف عند أهل السنة والجماعة أنّه في الأصل على الروح، والبدن تابع لها، كما أنّ العذاب في الدنيا على البدن والروح تابعة له، وكما أنّ الأحكام الشرعية في الدنيا على الظاهر، وفي الآخرة بالعكس؛ ففي القبر يكون العذاب أو النعيم على الروح، لكن الجسم يتأثر بهذا تبعا، وليس على سبيل الاستقلال، وربما يكون العذاب على البدن والروح تتبعه، لكن هذا لا يقع إلا نادرا، إنما الأصل أنّ العذاب على الروح والبدن تبع، والنعيم على الروح والبدن تبع».[٣]

وهذا النعيم أو العذاب عام لكل من مات قبر أم لم يقبر، فكل ميت إذا أراد الله تعذيبه وصل إلى روحه وبدنه ما يصل إلى المقبور،[٤] وإنما أضيف العذاب أو النعيم إلى القبر لأن لأن المعهود والغالب في أكثر الموتى أنهم يقبرون.[٥]

وقد خالف في هذه المسألة ابن حزم رحمه الله؛ فذهب إلى أن فتنة القبر وعذابه على الروح فقط دون الجسد، وأنكر كذلك أن تكون للميت حياة في قبره.[٦]

ولكن هذه الأدلة الصريحة الواردة في إعادة الروح إلى الجسد، وأنّ الكافر يضمه القبر حتى تختلف فيه أضلاعه؛ كل ذلك يدل دلالة بينة على أنّ العذاب على الروح والبدن معا.

---

(١) المصدر نفسه (٤/٢٨٤).

(٢) سبقت ترجمته ص (٣٦).

(٣) شرح العقيدة الواسطية للشيخ العثيمين (٢/١٢٠).

(٤) ينظر الروح لابن القيم ص (٥٨).

(٥) ينظر الفصل في الملل(٤/ ٥٦). وشرح الصدور ص (١٨١).

(٦) ينظر الفصل (٤/٦٥)

الأصل السادس: الوقوف مع النصوص، والدوران معها في أمور الحياة البرزخية نفيا وإثباتا.

من أصول أهل السنة والجماعة الوقوف مع النصوص والدوارن معها حيث دارت في أمور البرزخ وأحوال الخلق فيه من نعيم أو عذاب، وعدم الكلام عن كيفية هذا العذاب والنعيم، بل يَكِلون علم حقيقتها إلى الله تعالى ،إذ ليس للعقل وقوف على كيفيتها، لكونه لا عهد له في تلك الدار.(١)

قال ابن أبي العز(٢)رحمه الله:« وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به في هذا الدار؛ والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول...».(٣)

وأهل السنة لم يقصروا العمل بهذا الأصل في أمور البرزخ فحسب وإنما يعملون به في جميع أمور الدين، يقول الإمام الأوزاعي(٤)رحمه الله تعالى:« ندور مع السنة حيث دارت».(٥)

أي: نفيا وإثباتا، فما نُفي في الكتاب والسنة نفيناه، وما أُثبت فيهما أثبتناه، ولا نتجاوز القرآن والحديث.

---

(١) ينظر الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص (٢٨١)،واليوم الآخر في القرآن والسنة المطهرة ص(١٠٥).

(٢) ابن أبي العز هو علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، فقيه أصولي تولى القضاء في دمشق ومصر ثم استعفى، وأقبل على التدريس والفتوى توفي سنة ٧٩٢هـ وله مؤلفات. ينظر شذرات الذهب (٣٢٦/٦). ومعجم المؤلفين(١٥٦/٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص (٥٧٨).

(٤) الأوزاعي هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمر بن يُحْمَد الأوزاعي شيخ الإسلام وعالم أهل الشام، قيل كان مولده ببعلبك، وقيل بمحلة الاوزاع، بدمشق، قيل كان مولده في زمن الصحابة سنة ٨٨هـ، وتوفي سنة ١٥٧هـ، وقيل سنة ١٥٩هـ. ينظر سير الأعلام النبلاء (١٠٧/٧-١٣٨).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٦٤/١).

المطلب الثالث: الرد المجمل على المخالفين في الحياة البرزخية.

خالفت الخوارج[(١)] والجهمية[(٢)] وبعض المعتزلة[(٣)] عقيدة أهل الحق أهل السنة والجماعة؛ فأنكروا عذاب القبر ونعيمه.[(٤)] قال القاضي عبد الجبار[(٥)]: وأنكر مشايخنا عذاب القبر على كل حال.[(٦)]

---

(١) الخوارج: هم أولئك الذين خرجوا على علي بن أبي طالب ﷺ بسبب قضية التحكيم. وقد انقسموا بعد ذلك إلى عدة فرق تجاوزت العشرين، يجمعهم القول بتكفير علي وعثمان، وأصحاب الجمل، والحكمين ومن رضي بالتحكيم وصوّب الحكمين. ينظر: الفرق بين الفرق ص (٩٢)، والملل والنحل (١/١١٤)، والفصل لابن حزم (٢/١١٣)، والخوارج للدكتور ناصر العقل ص (٢٨)، والموسوعة الميسرة (٢/١٠٥٣).

(٢) **الجهمية**: إحدى الفرق الكلامية التي تنتسب إلى الإسلام، قامت على البدع الكلامية، والآراء المخالفة لعقيدة أهل السنة، ومن عقائدهم: إنكار أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله كلها، والقول بالإرجاء والجبر، وإنكار السمعيات كالرؤية والصراط والميزان، والحوض، ويجعلون ما ورد في ذلك من باب المجاز، وترجع نسبتها إلى الجهم بن صفوان وقد تأثرت الجهمية بعقائد وآراء اليهود، والصابئة، والمشركين، والفلاسفة الضالين، ينظر: الملل والنحل(١/٨٦). وفرق معاصرة(٣/١١٣١). والموسوعة الميسرة (٢/١٠٥١)، والتسعينية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/٣٧٠-٣٧٢).

(٣) **المعتزلة**: فرقة ظهرت في الإسلام في مستهل القرن الثاني الهجري بزعامة واصل بن عطاء ؛ الذي خالف شيخه الحسن البصري في حكم أهل الكبائر، واعتزل مجلسه، ثم تطورالاعتزال بعد ذلك حتى صارت لهم أصول، وأصبحوا فرقا كثيرة تجمعهم: القول بالأصول الخمسة التي هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينظر الفرق بين الفرق، ص (٤٤، ١٣١). والملل والنحل ص (٢١)،والتعريفات للجرجاني ص(٢٣٨)، والمعتزلة وأصولهم الخمسة ص (١٣-١٤).

(٤) ينظر شرح الأصول الخمسة ص (٧٣٠)؛ ومقالات الإسلاميين ص (٤٣٠). والفصل (٤/٣٨٩). وفرق معاصرة (٣/١١٣٧).والتنبيه والردود على أهل الأهواء والبدع (١٢٤،٩٩).

(٥) سبقت ترجمته. ص (٢١).

(٦) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص (٢٠٢).

ومما استدلوا به على ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[١]

ووجه استدلالهم بالآية: أنّ الموتى لو صاروا أحياء في قبورهم لذاقوا الموت مرتين، لا مرّة واحدة.[٢]

٢- قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[٣] قالوا: إن الغرض من سياق هذه الآية تشبيه الكفرة بأهل القبور في عدم السماع، ولو كان الميّت حيّا في قبره أو حاسّا لم يستقم التشبيه.[٤]

٣- قالوا وأمّا من جهة العقل فإنّا نرى شخصا يُصلب، ويبقى مصلوبا إلى أن تذهب أجزاؤه، ولا نشاهد فيه إحياءً ولا مسألةً، وكذلك من أكلته السباع والطيور، وتفرّقت أجزاؤه في بطونها؛ وكذلك من أُحرِق وذُرِيَ أجزاؤه في الرياح العاصفة؛ فإنّا نعلم عدم إحيائهم ومسألتهم وعذابهم ضرورةً.[٥] وقالوا: لو كشفنا القبر لا نجد فيه ملائكة يضربون الموتى، ولا نجد هناك حيّاتٍ ولا نيرانا تتأجج، وكيف يُفسح له مدّ بصره، أو يُضَّيق عليه ونحن نجده بحاله، ونجد مساحته على حدّ ما حفرناها؛ لم يزد و لم ينقص.؟![٦]

ينقص.؟![٦]

---

(١) سورة الدخان الآية (٥٦).

(٢) ينظر المواقف للإيجي ((٥١٧/٣). والتنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص (١٢٤). ومعارج القبول (٧١٣/٢).

(٣) سورة فاطر الآية (٢٢).

(٤) ينظر معارج القبول (٧١٣/٢).

(٥) ينظر المواقف للإيجي (٥١٨/٣).

(٦) ينظر الروح ص (٦١-٦٢).

والجواب عن استدلالهم بالآية الأولى: أنها لا تدل على مُدّعاهم بوجه؛ فهي تبين صفة أهل الجنة، وما لهم فيها من كمال النعيم، والخلد المقيم، وأنهم لا يذوقون فيها الموت؛ بل ينعمون ولا ييأسون، ويخلدون فلا يموتون، ولا ينقطع نعيمهم كما انقطع نعيم أهل الدنيا بالموت، وأين هذا من نفي عذاب القبر الذي ادّعوه؟!.[١]

وما المانع من كون الروح تتّصل بالجسد في البرزخ اتّصالا خاصا، ليتألم الجسد بما يتألم به، من دون أن تكون حياته كالحياة الدنيوية؟ بل ما المانع من كونها حياة مستقرة لا تشبه الحياة الدنيا فحجب الله تعالى رؤية ذلك عن عباده رحمة منه بهم؟.[٢]

أما استدلالهم بالآية الثانية؛ فالجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: أنّ قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ نفيٌ لاستطاعة الرسول ﷺ أن يُسمعهم؛ وليس بمحال في قدرة الله أن يُسمعهم كما أسمع أهل القليب تبكيتَ النبي ﷺ لهم بقوله ﷺ: (هل وجدتم ما وعد ربكم حقا).[٣]

وهذا إذا حُملت الآية على نفي مطلق السماع بالكلية.

الوجه الثاني: أن يقال: إنّ الآية لم تنف مطلق السماع؛ وإنما فيها نفي سماع الاستجابة وبهذا يتضح تشبيه الكفار بأصحاب القبور.[٤]

قال ابن القيم[٥] رحمه الله: « فسياق الآية يدل على أنّ المراد منها أنّ الكافر الميتَ القلبِ لا تقدر على إسماعه إسماعا ينتفع به؛ كما أنّ من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعا ينتفعون به، ولم يُرِد سبحانه أنّ أصحاب القبور لا يسمعون شيئا البتة، كيف وقد أخبر

---

(١) ينظر المواقف للإيجي (٥١٨/٣)، ومعارج القبول (٧١٤/٢)، وعمدة القاري (١٤٦/٨).

(٢) ينظر معارج القبول (٧١٤/٢).

(٣) رواه أحمد في المسند برقم(١٢٠٢٠)وإسناده على شرط الشيخين؛ ينظر تحقيق المسند (٧٧/١٩).

(٤) ينظر معارج القبول (٧١٦/٢).

(٥) ابن القيم هو العالم العلامة محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ولد سنة ٦٩١هـ واشتغل بالحديث وسائر الفنون فبرع فيها، لازم شيخ الإسلام ابن تيمية بعد رجوعه من مصر ولم يفارقه حتى مات. وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٧٥١هـ وله مؤلفات كثيرة جدا.
ينظر: البداية (٢٣٤/١٤)، وشذرات الذهب(١٦٨/٦). معجم المؤلفين(١٠٦/٩).

النبي ﷺ أنهم يسمعون خفق نعال المشيّعين، وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه، وشرع لنا السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع؟!».(١)

أمّا شبهتهم العقلية؛ وهي احتجاجهم بعدم إدراكهم هذا النعيم أو العذاب بحواسهم، فيقال في الجواب عنها أولا: إنّ الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متّصلا بها غيبا، وحجبها عن إدراك المكَلّفين في هذه الدار، وذلك من كمال حكمته، وليتميّز المؤمنون بالغيب من غيرهم؛ فأوّل ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر، وتجلس قريبا منه، ويشاهدهم عيانا، ويتحدثون عنده، ثم يقبضون روحه، والحاضرون لا يرونهم ولا يسمعونهم.

والله سبحانه وتعالى يُحدِث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك، فهذا جبريل كان ينزل على النبي ﷺ، ويكلّمه بكلام يسمعه، ومن بجانب النبي ﷺ لا يراه ولا يسمعه، وأيضا هؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم.

ثانيا: أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا، ولا من زروع الدنيا، فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها، وإنما هي من نار الآخرة وخضرها، وهي أشدّ من نار الدنيا فلا يحس به أهل الدنيا، فإنّ الله سبحانه قد يُحمي عليه ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحته حتى يكون أعظم حرا من جمر الدنيا، ولو مسّها أهل الدنيا لم يحسّوا بذلك، بل أعجب من هذا؛ أنّ الرجلين يُدفنان أحدهما إلى جنب الآخر، وهذا في حفرة من حفر النار، وذلك في روضة من رياض الجنة، ولا يصل إلى أحدهما شيء مما عند الآخر.

ومثال ذلك في الدنيا: أنّك تجد نائمين في فراش واحد، وهذا روحه في النعيم، والآخر روحه في العذاب، وليس عند أحدهما خبر عن الآخر.

وسرّ المسألة أن هذا النعيم والعذاب ليس من جنس المعهود في هذا العالم، فلو كان الميت بين الناس موضوعا لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه، من غير أن يشعر الحاضرون بذلك، ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه، ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه؛ وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيعذّب في النوم، ويضرب ويتألم، وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البتة.

---

(١) ينظر الروح ص (٤٥).

وبهذا تنزاح هذه الشبهات، ويتبين أنه ليس لدى المنكرين إلاّ مجـــرد تكـــذيب وعنـــاد وجحود؛ وبالله التوفيق. (١)

(١) ينظر التذكرة (٣٧٢/١)، والــروح لابن القيـــم ص (٦٣-٧٣). ومعـــارج القبول (٧١٦/٢-٧١٨).

الفصل الأول: أقوال أهل الإيمان في البرزخ ودلالاتها العقدية.

قد ثبت في النصوص صدور جملة من الأقوال لأهل الإيمان في البرزخ، من هذه الأقـــوال مخاطبة الأنبياء للنبي ﷺ ليلة المعراج، ومنها مخاطبات الملائكة لأهل الإيمان عند سؤالهم في القبر وبعده، ومنها مخاطبات المؤمنين للملائكة، ومنها كذلك مخاطبات المؤمنين بعضـــهم لبعض عندما يأتيهم روح مؤمن قد قُبض حديثا حيث يجتمعون إليه في البرزخ يسألونه عن معارفهم من أهل الدنيا، وفيما يلي من المباحث ذكر كلّ هذه الأقوال، مع بيان ما تشتمل عليها من دلالات عقدية؛ بإذن الله تعالى.

المبحث الأول: أقوال الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام في البرزخ.

المقصود من هذه الأقوال هو ما صدر عن الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام ليلةَ المعراج من الكلام مع النبي ﷺ، فهي تُعتبر من أقوالهم في البرزخ، إذ الحياة البرزخية تبدأ من بعد الموت؛ وهذه الأقوال صدرت عنهم بعد موتهم، إلا عيسى عليه السلام، ومن هذا الوجه دخلت خطاباتهم مع النبي ﷺ ليلة المعراج في هذه الدراسة.

وقد ثبت أنّ كلاًّ من آدم ويحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه خاطبوا النبي ﷺ في تلك الليلة خطابات تتضمن الإقرار بنبوته، ﷺ بقولهم له جميعا:«مرحبا بالأخ الصالح والنّبي الصالح..». إلاّ آدم و إبراهيم عليهما السّلام فإن كلاًّ منهما قال له: ﷺ «مرحبا بالابن الصّالح والنبي الصالح ».[1]

كما صحّ أيضا أن كل واحد منهم دعا الله له بخير لقوله ﷺ: «...فرحّب ودعا لي بخير...»[2]

ولّما كان في خطاب كلٍ من إبراهيم وموسى عليهما السلام للنبي ﷺ في المعراج زياداتٌ ليست في مخاطبات غيرهما من بقية الأنبياء له ﷺ خصّصت كلامهما عليهما السلام بالذكر والدراسة لهذا السبب في مطلبين كما يأتي، وذلك بعدَ توطئة فيها ذكر ما خصّ الله به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في البرزخ من خصائص، بإذن الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام برقم (٣٣٤٢).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات؛ برقم (١٦٣).

التوطئة: خصائص الأنبياء في البرزخ.

لقد خصّ الله سبحانه وتعالى الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام ببعض خصائص في الحياة البرزخية تشريفا لهم وتكريما، لعلّ من المناسب ذكرها قبل الشروع في ذكر أقوالهم في الحياة البرزخية؛ ومن هذه الخصائص:

١- تحريم الله على الأرض أكل أجسادهم.

إنّ مما خصّ الله تعالى به أنبياءه في الحياة البرزخية من الخصائص تحريمه تعالى على الأرض أكل أجسادهم، فقد روى أبو داود في سننه أنّ رسول الله ﷺ قال:

(إنّ من أفضل أيّامكم يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه النفخة، وفيه الصعقة؛ فأكثروا عليّ من الصلاة فيه؛ فإنّ صلاتكم معروضة عليّ؛ فقال رجل: يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرِمت يعني بليت ؟ فقال: إنّ الله قد حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء).[١]

قال الإمام البيهقي[٢]رحمه الله تعالى:

« والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعدما قبضوا ردت إليهم أرواحهم، فهم أحياء عند ربهم كالشهداء ،وقد رأى نبينا ﷺ جماعة منهم ليلة المعراج، وأمر بالصلاة والسلام عليه، وأخبر وخبره صدق أنّ صلاتنا معروضة عليه، وأن سلامنا يبلغه، وأنّ الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».[٣]

وقال ابن أبي العز[٤]رحمه الله تعالى:

«وحرّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء كما روي في السنن، وأمّا الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنه كما هو، لم يتغير، فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم

---

(١) رواه أبو داود في سننه،كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، برقم (١٠٤٧). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/١٩٦) برقم (٩٢٥).

(٢) سبقت ترجمته.ص (٢٨).

(٣) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث للبيهقي ص (٣٠٥).

(٤) سبقت ترجمته. ص (٤٥).

محشره؛ ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة، والله أعلم ؛ وكأنه – والله أعلم – كلما كانـــت الشهادة أكمل والشهيد أفضل كان بقاء جسده أطول».[(١)] والله اعلم.

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص (٣٩٦).

٣- أنهم عليهم الصّلاة والسّلام في قبورهم أحياء يصلّون.

وممّا خص الله تعالى به الأنبياء كذلك في الحياة البرزخية من الخصائص أنهم عليهم الصلاة والسلام أحياء في قبورهم يصلّون، فعن أنس بن مالك ﷺ : قال رسول الله ﷺ: (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون).(١)

وعنه ﷺ أيضا أنّ رسول الله ﷺ قال:

(أتيت – وفي رواية مررت – على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر؛ وهو قائم يصلي في قبره).(٢)

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (لقد رأيتُني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط، قال فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضربٌ جعدٌ كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي؛ أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم (يعني نفسه)، فحانت الصلاة فأممتهم، فلمّا فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد هذا مالِكٌ صاحب النار فسلِّم عليه، فالتفت إليه فبدأني بالسلام ...).(٣)

وهذه الحياة التي ثبتت للأنبياء في قبورهم نثبتها كما في هذه الأحاديث، ولا نمثّلها أو نقيسها بالحياة المعهودة عندنا، إذ هي من الأمور الغيبية التي اختصّ الله تعالى بعلم حقيقتها؛ قال العلامة ناصر الدين الألباني رحمه الله: «واعلم أنّ الحياة التي أثبتها هذا الحديث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما هي حياة برزخية، ليست من حياة الدنيا في

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (١٤٧/٦) برقم (٣٤٢٥)، وصححه الألباني في السلسلة (١٨٧/٢) برقم (٦٢١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ برقم (٢٣٧٥).

(٣) رواه مسلم في صحيحه؛ كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم، والمسيح الدجال، برقم (١٧٢).

شيء، ولذلك وجب الإيمان بها دون ضرب الأمثال لها ؛ ومحاولة تكيفها وتشبيهها بما هو المعروف عندنا في حياة الدنيا».[١]

« فإن قيل كيف يصلون بعد الموت وليس تلك حالة تكليف ؟ قلنا ذلك ليس بحكم التكليف بل بحكم الإكرام والتشريف، لأنهم حُبّب إليهم في الدنيا الصلاة فلزموها، ثم توفّوا وهم على ذلك، فتشرّفوا بإبقاء ما كانوا يحيون عليه، فتكون عبادتهم إلهامية كعبادة الملائكة لا تكليفية».[٢]

قال شيخ الإسلام[٣]رحمه الله تعالى « ...فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئا، لا يطلب منه أن يدعو الله له ولا غير ذلك، ولا يجوز أن يشكى إليه شيء من مصائب الدنيا والدين، ولو جاز أن يشكى إليه ذلك في حياته فإنّ ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك، وهذا يفضي إلى الشرك؛ لأنه في حياته مكلّف أن يجيب سؤال من سأله لما له في ذلك من الأجر والثواب؛ وبعد الموت ليس مكلّفا بل ما يفعله من ذكر لله تعالى ودعاء ونحو ذلك كما أنّ موسى يصلى في قبره وكما صلى الأنبياء خلف النبي ليلة المعراج ببيت المقدس وتسبيح أهل الجنة، والملائكة فهم يمتّعون بذلك، وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسّره الله لهم ويقدره لهم، ليس هو من باب التكليف الذي يمتحن به العباد» .[٤]

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة(٢/١٩٠).

(٢) فيض القدير (٥/٥١٩).

(٣) سبقت ترجمته.ص (٣٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١/٣٥٤)، وينظر التوسل والوسيلة ص (٢٢٩).

المطلب الأول: مخاطبات نبي الله إبراهيم عليه السلام للنبي ﷺ في المعراج.

قد سبقت الإشارة إلى أنّ نبي الله إبراهيم أكثر الأنبياء خطابا مع النبي ﷺ في المعراج -بعد نبي الله موسى- عليهما السلام؛ ومما ثبت له من المخاطبات مع النبي ﷺ ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:

(لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمّد أقرئ أمتك مني السّلام، وأخبرهم أنّ الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).[١]

الشرح.

قوله ﷺ :«لقيت إبراهيم ليلة أسرى بي » أي: إبراهيم عليه السلام وهو في محلّه في السماء.

وقوله ﷺ « ليلةَ أسري بي» أي: ليلة المعراج.

قوله ﷺ:« فقال أقرىء أمتك مني السلام» أي: بلّغهم مني السلام.

قوله ﷺ: « وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء » أي: طيبة التراب، وماؤها طيب لا ملوحة فيه.

قوله ﷺ : «وأنها قيعان » أي: الجنة أرض مستوية، خالية من الشجر.

قوله ﷺ: «وأن غراسها » أي: ما يغرس ويبذر فيها لينبت بعد ذلك هنّ الباقيات الصالحات، والمعنى: أعلمهم بأنّ هذه الكلمات ونحوها سبب لدخول قائلها الجنة، ولكثرة أشجار منزلته فيها، لأنه كلّما كررها؛ نبت له أشجار بعددها.

واعلم أنّه لا دلالة في الحديث على خلوّ الجنة من الأشجار والقصور خلوا كليّا، لأنّ معنى كونها قيعاناً أنّ أكثرها مغروس، وفيها أمكنة واسعة بلا غرس، لينغرس بتلك الكلمات ويتميّز غرسها الأصلي الذي بلا سبب وغرسها المتسبب عن تلك الكلمات.[٢]

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتهليل والتحميد، برقم (٣٤٦٢). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/١٦٠) برقم (٢٧٥٥).

(٢) ينظر تحفة الأحوذي (٩/٣٤٢).

الدلالات العقدية.

قد اشتملت مخاطبات إبراهيم عليه السلام للنبي ﷺ في هذا الحديث على عدّة دلالات عقدية، وهي كالتالي:

الأولى: تمام نصيحة إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة.

إنّ في قول إبراهيم عليه السلام للنبي ﷺ « أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أنّ الجنة...» تمامَ نصيحته عليه السلام لهذه الأمة، وحرصه عليه السلام على صلاحها وفلاحها، بتوجيهه إيّاها إلى ما تنال بها رضوان الله تعالى، وتدخل بها جنته، فأضاف إلى إرساله السلامَ على هذه الأمة إعلامَه إياها بأبواب الخير ووجوهه، وطرق الحصول عليها، مما يستوجب على هذه الأمة محبته عليه السلام والثناء عليه وتولّيه والتّأسي به، بل أعلم الله هذه الأمة أنهم أولى بإبراهيم عليه السلام من اليهود والنصارى الذين ادّعى كل منهم انتسابه إليهم، فقال تعالى:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .(١)

يُنكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ،ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، ثم أنكر عليهم تحاججهم فيما لا علم لهم به، ثم بين كون كلٍّ من هاتين الديانتين بعد إبراهيم عليه السلام ، وأنه كان حنيفا قاصدا إلى الإيمان ، ثم بين تعالى أنّ أحقّ النّاس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتّبعوه على دينه وهذا النبي يعني محمدا ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم.(٢)

وقد روى الترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال :(إنّ لكل نبي ولاة من النبيين، وإنّ وليي منهم أبي وخليل ربي ﷻ).(٣)ومعنى قوله ﷺ «ولاة»أي: أحبّاء وقرناء أولى به من غيرهم.(٤)

---

(١)سورة آل عمران الآية (٦٥-٦٨).

(٢) ينظر تفسير بن كثير(٥٧٢/١).

(٣) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، برقم (٢٩٩٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١/٣) برقم (٢٣٩٤).

(٤) ينظر تحفة الأحوذي (٢٧٤/٨).

الثانية: إثبات وجود الجنة الآن، والرد على منكري ذلك.

إنّ في قول إبراهيم عليه السلام في الحديث «وأخبرهم أنّ الجنة طيبة التربة عذبة الماء» دليلا على أنّ الجنة مخلوقة، وموجودة الآن، وقد تواردت نصوص الكتاب والسنة في الدلالة على ذلك، منها:

النصوص المصرّحة بأنّ الله أعدّها وهيّأها لأهل الإيمان. ومنها:

قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .[١]

وقوله تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .[٢]

وقوله ﷺ: (قال اللهُ تعالى: أعدَدتُ لِعبادي الصالحينَ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطرَ على قلبِ بَشَر...).[٣]

والإعداد: التهيئة والإرصاد.[٤]وهذا يقتضي أنها مخلوقة موجودة الآن، لأنّ الإعداد قد أُخبِر عنه بصيغة الماضي، مما يدل على أن الُمعَدّ قد دخل في حيّز الوجود.[٥]

- ومنها أيضا النصوص التي فيها تصريح النبي ﷺ بأنه رآها.

ومن هذه النصوص قوله ﷺ: (والذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيت؛ لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا. قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار).[٦]

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٣٣).

(٢) سورة الحديد، الآية: (٢١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾، برقم:(٤٧٧٩)، ومسلم في الجنة ونعيمها، باب صفة الجنة، برقم:(٧٠٦٥).

(٤) ينظر لسان العرب(٧٩/٩)،وتفسير القرآن العظيم (٢٠٢/١)،و شرح لمعة الاعتقاد، ص:(٣١).

(٥) ينظر يقظة أولي الاعتبار ص: (٣٧).

(٦) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما، برقم: (٩٦٠).

- ومنها أيضا النصوص التي فيها أنّ الميت يعرض عليه مقعده من الجنة أو النار في قبره.
ومن هذه النصوص: قوله ﷺ:

(إنّ أحدكم إذا مات؛ عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة).(١)

- ومنها كذلك النصوص التي فيها أنّ النبي ﷺ دخلها لما أسري به. ومن هذه النصوص: ما ثبت عنه ﷺ في حديث الإسراء:

(... ثم انطلق بي جبريل، حتى آتي سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي. قال: ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ(٢) اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك).(٣)

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التي ذكرت في كتب أهل السنة والجماعة.(٤)

قال أبو الحسن الأشعري(٥) رحمه الله في بيانه عقيدة أهل السنة في ذلك:

(...ونقر بأنّ الجنة والنار مخلوقتان...).(٦)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، برقم:(١٣٧٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم:(٧١٤٠).

(٢) والجنابذ:جمع جنبذة، وهي القبة.ينظر: النهاية (٣٠٥/١)،وشرح صحيح مسلم للنووي(٢-٣٩٣/٢).

(٣) رواه البخاري في صحيحه؛ كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، برقم (٣٤٩)،ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، برقم(٤١٤).

(٤) ينظر: الشريعة، للآجري (١٣٤٣/٣-١٣٧٠)،وحادي الأرواح ص (١١- ٢١) وشرح العقيدة الطحاوية ص:(٦١٤) ومعارج القبول (٨٦٠/٢).

(٥) سبقت ترجمته ص(١٧).

(٦) الإبانة ص:(٥٥).

وقال الإمام محمد بن الحسين الآجري[(١)] رحمه الله تعالى:

«اعلموا –رحمنا الله وإيّاكم– أنّ القرآن شاهد : أنّ الله عزّ وجلّ خلق الجنة والنار قبل أن يخلق آدم عليه السلام، وخلق للجنة أهلا وللنار أهلا قبل أن يخرجهم إلى الدنيا، لا يختلف في هذا من شمله الإسلام، وذاق حلاوة طعم الإيمان؛ دل على ذلك القرآن والسنة، فنعوذ بالله ممن يكذب بهذا» .[(٢)]

وقال ابن أبي العز[(٣)] رحمه الله:

« أمّا قوله: إنّ الجنة والنار مخلوقتان: فاتفق أهل السنة على أنّ الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك... ».[(٤)]

وعليه ففي قوله عليه السلام:«وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء» رد على الخوارج[(٥)] والمعتزلة[(٦)] الذين زعموا أنّ الجنة لم تُخلق بعد.[(٧)]

الثالثة: أنّ الله تعالى ما زال يزيد في الجنة أمورا بسبب أعمال أهل الإيمان.

إنّ في قول نبي الله إبراهيم عليه السلام :«...وأنها قيعان وأن غراسها ...» دليلا على أنه تعالى مازال يزيد في الجنة أشياء لم تكن فيها بسبب أعمال المؤمنين.[(٨)] وقد روى الترمذي في سننه أن النبي ﷺ قال: (من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة).[(٩)]

---

(١) الآجري هو الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، الفقيه المحدّث، كان صالحا عابدا، ثقة، توفي بمكة سنة ٣٦٠هـ. ينظر وفيات الأعيان (٤/٢٩٢).

(٢) الشريعة للآجري (٣/١٣٤٣).

(٣) سبقت الترجمة له.ص (٤٥).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص (٤٢٠).

(٥) سبق التعريف بهم.ص (٤٦).

(٦) سبق التعريف بهم.ص (٤٦).

(٧) ينظر تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ص (٣٤٨)، والفصل لابن حزم (٤/١٤١).

(٨) ينظر شرح العقيدة الطحاوية ص (٦٢٠).

(٩) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتهليل والتحميد، برقم: (٣٤٦٤). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/١٦٠) برقم (٢٧٥٥).

وهذه الزيادة لا تنافي وجودها الآن وكونها مخلوقة؛ إذ الفرق واضح بين إنشاء الشيء والزيادة فيه.(١) فهي مخلوقة على الجملة؛ كما أنّ الأرض مخلوقة ثم يُحدِث الله تعالى فيها فيها ما يشاء من البنيان.(٢)

الرابعة: بيان فضل الكلمات الأربع.

إنّ في قول إبراهيم عليه السلام للنبي ﷺ « وأنّ غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» بيانا لقدر هذه الكلمات الأربع، وعظم ثوابها، وكثرة خيراتها، وقد وردت في ذلك نصوص كثيرة منها:

ما ورد في أنها أفضل الكلام، فقد ثبت في الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال:(أحبّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت).(٣)

ومنها: ما ورد عن النبي ﷺ أنّ قول هذه الكلمات أحبّ إليه مما طلعت عليه الشمس.

ففي صحيح مسلم أنّ رسول الله ﷺ قال: (لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أَحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس).(٤)

ومن فضائل هذه الكلمات غير ما ذُكر أنهنّ مكفرات للذنوب. ومنها أنهن غراس الجنة. ومن فضائلهن أيضا أنه ليس أحد أفضلَ عند الله من مؤمن يعمّر في الإسلام يكثر من ذكرهنّ، ومنها أنّ الله تعالى اختارهن واصطفاهنّ من بين الكلمات؛ ومنها أنهن جنة لقائلهن من النار؛ ومن فضائلهن أنهن ينعطفن حول عرش الرحمن ولهن دويّ كدويّ النحل يذكرن بصاحبهنّ، ومنها أيضا أنّ النبي ﷺ أخبر أنهن ثقيلات في الميزان، ومنها أنّ

---

(١) ينظر الفصل (١٤١/٤).

(٢) ينظر الفصل (٦٨/٤).

(٣) رواه مسلم في صحيحه ،كتاب الآداب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة، وبنافع ونحوه، برقم (٢١٣٧).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، برقم (٢٦٩٥) .

للعبد بقول كل واحدة منهن صدقة، ومن فضائلهن أيضا أنّ النبي ﷺ جعلهنّ بدلا عن القرآن في حق من لا يحسنه[١]وغير ذلك من الفضائل.

ولعظم هؤلاء الكلمات وكثرة ثوابها خصّص لها كثير من العلماء رحمهم الله أبوابا خاصّة في مصنّفاتهم.[٢]

(١) قد ذكر هذه الفضائل مع أدلتها من السنة الصحيحة شيخنا الفاضل د/ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر في رسالة خاصّة في بيان فضل هذه الكلمات؛ سمّاها بـ: فضائل الكلمات الأربع؛ سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فليراجع للفائدة.

(٢) ينظر مثلا صحيح ابن خزيمة (٣٦٧/١)، وجامع الترمذي (٥٠٨/٥)، وغيرها.

المطلب الثاني: أقوال نبي الله موسى عليه السلام في المعراج.

إنّ الأقوال التي صدرت من نبي الله موسى في أحاديث المعراج مع النبي ﷺ أكثر من أقوال غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه ﷺ ، فقد ثبت أنه عليه السلام قال لمّا علا عليه النبي ﷺ « رب لم أظنّ أن ترفع عليّ أحدا...».(١)

وثبت أيضا أنّ النبي ﷺ لما تجاوزه عليه السلام بكى؛ فقيل له: ما يبكيك ؟ قال « ...أبكي لأنّ غلاما بُعث بعدي يدخل الجنّة من أمته أكثرُ ممن يدخلها من أمتي...».(٢)

وثبت كذلك في آخر الحديث المذكور أنّ النبي ﷺ لما فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة كل يوم، مرّ بموسى عليه السلام فقال: « بم أُمرت؟ قال أمرت بخمسين صلاة كل يوم؛ قال: أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك...».(٣)

وفيما يلي ذكر ما تضمنته هذه الأقوال من الدلالات العقدية بعد شرح موجز لها، بإذن الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾، برقم (٧٥١٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، برقم (٣٨٨٧).

(٣) المصدر نفسه.

قوله ﷺ «... ربّ لم أظن أن يرفع عليّ أحد...».

الشرح.

قال بعض العلماء في شرح كلام موسى هذا :« فهم موسى من اختصاصه بكلام الله تعالى له في الدنيا دون غيره من البشر لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾.[1] أنّ المراد بالناس هنا البشر كلّهم، وأنه استحق بذلك أن لا يُرفع أحد عليه، فلما فضّل الله محمّدا عليه عليهما الصلاة والسلام بما أعطاه من المقام المحمود وغيره ارتفع على موسى وغيره بذلك».

الدلالات العقدية.

لقد تضمّن كلام نبي الله موسى هذا على ما يلي من الدلالات العقدية:

الأولى: إثبات صفة العلوّ لله ﷻ .

تضمن قول نبي الله موسى ﷺ «... ربّ لم أظن أن يرفع عليّ أحد...». إثبات صفة العلوّ لله تعالى بتصريحه ﷺ أنّ النّبي ﷺ رُفِع عليه في معراجه، والرفع إنما يكون إلى الأعلى كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.[2] وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾.[3] وموسى ﷺ في السماء السادسة، مما يدلّ على أنّ الله ﷻ في العلوّ فوق السماوات.

وقد دل على ثبوت هذه الصفة لله كثيرٌ من نصوص الكتاب والسنة؛ ومنها:

١- النصوص التي فيها التصريح بالفوقية مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.[4]

٢- النصوص التي فيها التصريح بعروج الأشياء وصعودها إليه تعالى؛ مثل قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾.[5]

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٤٤).

(٢) سورة النساء الآية (١٥٧).

(٣) سورة مريم الآية (٥٧).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٨).

(٥) سورة المعارج الآية (٤).

وقوله ﷺ :(يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلّون).[١]

وغير ذلك من النصوص، كالنصوص التي فيها التصريح برفع الأشياء إليه؛ والتي فيها التصريح بتنزيل الكتاب منه وغير ذلك.[٢]

أمّا ما روي عن السلف رحمهم الله تعالى من الآثار في إثبات صفة العلو والرد على من أنكر ذلك فكثيرة جدا.[٣]

منها ما روي عن الإمام مالك رحمه أنه قال « الله في السماء وعلمه في كل مكان».[٤]

وروي عن الأوزاعي[٥] رحمه الله أنه قال:«كنّا والتابعون متوافرون نقول إنّ الله عز وجل فوق عرشه...».[٦]

وروي أنّ عبد الله بن المبارك[٧] قيل له: كيف نعرف ربنا عز وجل؟ قال:« في السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية إنه ها هنا في الأرض».[٨]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة،باب فضل صلاة الفجر، برقم (٥٥٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما، برقم (٦٣٢).

(٢) ينظر شرح العقيدة الطحاوية ص: (٣٨١-٣٨٦).

(٣) المصدر نفسه ص (٣٨٦).

(٤) التمهيد (١٣٩/٧)، والعلو للذهبي ص (١٠٣).

(٥) سبقت ترجته.

(٦) ينظر الأسماء والصفات للبيهقي (٣٠٤/٢).

(٧) عبد الله بن المبارك هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمي بالولاء، الإمام الحافظ الفقيه القدوة المجاهد، توفي سنة ١٨١هـ. ينظر تهذيب التهذيب (٣٨٢/٥)، وشذرات الذهب (٢٩٥/١).

(٨) ينظر خلق أفعال العباد ص (١٣)، والرد على الجهمية للدارمي ص (٦٧).

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: « فالسلف والأئمة يقولون: إنّ الله فوق سماواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وكما عُلم المباينة والعلوّ بالمعقول الصريح الموافق للمنقول الصحيح؛ وكما فطر الله على ذلك خلقه». (١)

وقد أنكرت الخوارج(٢)وبعض المعتزلة(٣) والجهمية(٤) اتّصاف الله تعالى بالعلوّ، فذهبوا إلى أنه تعالى في كل في كل مكان، فقالوا هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش، وفي السماوات وفي الأرض وفي كلّ مكان، ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان. (٥)

وادّعوا أنّ الفوقية الواردة ذكرها في النصوص مجاز على فوقية الرتبة والقهر، كما يقال : الذهب فوق الفضة. (٦)

وهذا تبطله النصوص الواضحة التي سبق إيرادها في إثبات صفة العلوّ؛ ويردّه أيضا أنّ فوقية القهر إنما تقال في المتقاربين في المنزلة وأحدهما أفضل من الآخر، وأمّا إذا لم يتقاربا بوجه؛ فلا يصحّ أن يقال فيهما ذلك.فلو أنّ أحدا قال: الجوهر فوق قشر البصل، لضحك منه العقلاء للتفاوت التي بينها، والتفاوت التي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم. (٧)

فالعقول السليمة تثبت علوّ الله تعالى على خلقه، إذ لا ريب أن الله لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك، فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه لكان متصفا بضد ذلك؛ وضد الفوقية السفول، وهو مذموم على الإطلاق لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده؛ فيبقى أن يقال أنه تعالى خلقهم خارجا عن ذاته عاليا عليهم. (٨)

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٢٩٧).

(٢) سبق التعريف بهم .ص (٤٦).

(٣) سبق التعريف بهم.ص (٤٦).

(٤) سبق التعريف بهم.ص (٤٦).

(٥) ينظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ص:(٣٨). و الإبانة للأشعري ص(١٠٨). والفصل(٢ /٩٦).

(٦) ينظر مختصر الصواعق ص(٤٣١).

(٧) المصدر نفسه.

(٨) شرح العقيد الطحاوية (٣٨٠).

الثانية: إثبات فضل النبي ﷺ على نبي الله موسى عليه السلام.

دل قول نبي الله موسى عليه السلام «... ربّ لم أظن أن يرفع عليّ أحد...». على إثباته عليه السلام فضل النبي ﷺ عليه، و قد ورد في بعض الروايات أنّ موسى عليه السلام لما علا عليه النبي ﷺ قال: «... يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله، وهذا أكرم على الله مني...».(١)

بل ثبت فضله ﷺ على سائر الخلائق؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، وأوّل من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأوّل مشفّع).(٢)

فالسيّد هو الذي يفوق قومه في الخير.

وأمّا تقييده ﷺ ذلك بيوم القيامة مع أنّه سيدهم في الدنيا والآخرة؛ فلأنّ في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد، ولا يبقى منازع ولا معاند؛ بخلاف الدنيا؛ فقد نازعه ذلك ملوك الكفّار، وزعماء المشركين، وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى ﴿لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٣)مع أنّ الملك له سبحانه قبل ذلك؛ لكن كان في الدنيا من يدّعى الملك، أو من يضاف إليه، فانقطع كلّ ذلك في الآخرة.

و لم يقل ﷺ هذا فخرا؛ وإنما قاله لوجهين: أحدهما: التحديث بنعمة الله عليه.

والثاني: أنه بيان لما يجب عليه تبليغه إلى أمته، ليعرفوه، ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه، ويوقّروه ﷺ بما تقتضي مرتبته، كما أمرهم الله تعالى؛ وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم.(٤)

---

(١) ينظر بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (١/١٧٠) برقم (٢٧). قال المحقق « هذا الحديث في سنده داود بن المحبّر وهو متروك، وقد ذكره البوصيري في الاتحاف، وقال هذا الحديث مداره على أبي هارون العبدي وهو ضعيف، وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه البزار في مسنده مطولا».

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا محمد ﷺ على جميع الخلق، برقم (٢٢٧٨).

(٣)سورة غافر الآية (١٦).

(٤) ينظر شرح الإمام النووي لصحيح مسلم (١٥/٣٧).

ثانيا: قول موسى عليه السلام « ...أبكي لأنّ غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي ».

الشرح:

«قال العلماء لم يكن بكاء موسى حسدا؛ معاذ الله، فإنّ الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين؛ فكيف بمن اصطفاه الله تعالى؟! بل كان أسفا على ما فاته من الأجر الذي يترتّب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم، المستلزم لتنقيص أجره عليه السلام، لأنّ لكل نبي مثلَ أجر كل من اتّبعه، ولهذا كان من اتّبعه من أمته في العدد دون من اتّبع نبينا ﷺ مع طول مدهم بالنسبة لهذه الأمة، وأمّا قوله «غلام بعث بعدي» فليس على سبيل النقص، بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه؛ إذ أعطى لمن كان في ذلك السنّ ما لم يعطه أحدا قبله ممن هو أَسَنّ منه».(١)

«وقيل بل أراد بالبكاء تبشير نبينا ﷺ ، وإدخال السرور عليه بأنّ أتباعه ﷺ أكثر؛ ولعل تحصيل هذا الغرض بالبكاء آكد من تحصيله بوجه آخر، ففيه إظهار أنه نال منالا يغبطه مِثْلُ موسى».(٢)

---

(١) فتح الباري (٢١١/٧).

(٢) حاشية السندي على النسائي (٢١٩/١).

الدلالات العقدية.

قد اشتمل هذا القول من نبي الله موسى عليه السلام على جملة من الدلالات العقدية؛ وهي ما يلي:

الأولى: إثبات موسى عليه السلام نبوة محمد ﷺ .

لقد تضمّن قول موسى عليه السلام « غلام بُعث بعدي» إثباتَ نبي الله موسى عليه السلام لنبوة نبينا محمّد ﷺ وهو في البرزخ كما أخبر بذلك أمته في حياته؛ قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .(١)

قال الحافظ ابن كثير(٢) رحمه الله: «وهذه صفة محمد في كتب الأنبياء بشّروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، و لم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم».(٣)

بل كل الأنبياء الذين مرّ بهم النبي ﷺ ليلة المعراج أقرّوا له بذلك بقولهم له جميعا:«مرحبا بالأخ الصالح والنّبي الصالح.».(٤)

وهكذا الرسل عليهم السلام، فإنّ بعضهم يبشّر ببعض، ويؤمن بعضهم ببعض؛ قال شيخ الإسلام(٥) رحمه الله تعالى:« والله تعالى جعل من دين الرسل أنّ أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدّق بأولهم ويؤمن به، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .(٦)».(٧)

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٦-١٥٧).

(٢) الحافظ ابن كثير هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي الفقيه الشافعي عماد الدين بن الخطيب، وكنيته أبو الفداء ولد سنة ٧٠٠هـ وتوفي سنة ٧٧٤هـ بدمشق. انظر طبقات المفسرين للداودي ص (٧٩-٨٠). وطبقات المفسرين للأدنه وي ص (٢٦٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١٢١٤/٢).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام برقم (٣٣٤٢).

(٥) سبقت ترجمته. ص (٣٩).

(٦) سورة آل عمران الآية (٨١).

(٧) ينظر مجموع الفتاوى (٩٢/٣).

الثانية: أنّ من يدخل الجنة من أمته ﷺ أكثر ممن يدخلها من أمم الأنبياء عليهم السلام.

دل قول موسى عليه السلام « يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي ». على أنّ من يدخل الجنة من أمة النبي ﷺ أكثر ممن يدخلها من أمّة موسى عليه السلام، ومن يدخلها من أمم بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وقد دل على ذلك أحاديث أخرى منها:

ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (كنّا مع النبي في قُبة فقال: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟. قلنا نعم؛ قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟قلنا: نعم؛ قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟.قلنا: نعم، قال: والذي نفس محمد بيده؛ إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أنّ الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر).(١)

وعن بريدة أنّ النبي ﷺ قال :(أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم).(٢)

ولا ينافي هذا قوله ﷺ في الحديث السابق« أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» لأنه يحتمل أن يكون رجاؤه ﷺ ذلك؛ ثم زيد وبُشّر من عند الله بالزيادة بعد ذلك.(٣)

ومما يقوّي هذا القول ما صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: (أتاني آتٍ من عند ربي فخيّرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئا).(٤) فلو لم يكن يكن الرسول ﷺ يعلم أنه يدخل باختياره الشفاعة أكثر من نصف الأمة لما اختارها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، برقم (٦٥٢٨).

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أهل الجنة، برقم (٢٥٤٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ برقم (٤٢٨٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٤٢٦/٢) برقم (٣٤٦٢).

(٣) ينظر تحفة الأحوذي (٢١٦/٧).

(٤) رواه الترمذي في سننه،كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، برقم (٢٤٤١)، والطبراني في المعجم الكبير(٧٤/١٨) برقم (١٣٦). وصححه الألباني، في صحيح سنن الترمذي (٢٩٥/٢) برقم

ثالثا: قول نبي الله موسى عليه السلام للنبي ﷺ «... أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم؛ وإني والله قد جرّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك...».

الشرح.

قوله ﷺ« وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة » أي مارستهم، ولقيت الشدة فيما أردت منهم من الطاعة.(١)

قوله ﷺ « فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك » قيل: إنّ أمْرَ نبي الله موسى عليه السلام النبيَ ﷺ بمراجعة ربه سبحانه في طلب تخفيف الصلاة عن أمته؛ واستجابةَ النبي ﷺ له في ذلك إنما جاز لأنهما عرفا أنّ الأمر الأول غير واجب قطعا، فلو كانا يعلمان أنّة واجب قطعا لا يقبل التخفيف ما حصل منها ذلك.(٢)

الدلالات العقدية.

دلت هذه الخطابات من موسى عليه السلام للنبي ﷺ على مايلي:

تمام نصيحة موسى عليه السلام لهذه الأمة.

دلّ قول نبي الله موسى للنبي ﷺ « أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم؛ وإني والله قد جرّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك...» على تمام نصحه لهذه الأمة وشفقته بها، حيث إنه عليه السلام لم يزل يأمر النبي ﷺ بمراجعة ربه لسؤال التخفيف من عدد الصلوات حتى استحيا النبي ﷺ من كثرة المراجعة بعدَ ما صار الخمسون صلاةً خمسا.

(١٩٨٦).

(١) ينظر عمدة القاري (٢٩/١٧).

(٢) المصدر نفسه.

كما يدل هذا على حرص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على صلاح الأمم وسعادتها، وما تنطوي عليه قلوبهم من الرحمة على الأمم، مما يدل على أنّ الله تعالى جعل الرحمة في قلوبهم عليهم الصلاة والسلام أكثر مما جعل في قلوب غيرهم.[١]

---

(١) ينظر فتح الباري (٧/٢١٢).

المطلب الثالث: أقوال النبي ﷺ في البرزخ.

إنّ المقصود من أقوال النبي ﷺ في البرزخ هو ما ورد في بعض الأحاديث الثابتة من أنّ النبي ﷺ يرد على سلام المسلمين عليه في أيّ مكان كانوا، ومن هذه الأحاديث:
قوله ﷺ (ما من أحد يسلّم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام).(١)

الشرح.

قال الحافظ بن حجر رحمه الله:
استُشكل هذا الحديث؛ لأنّ عود الروح إلى الجسد يقتضي انفصالها عنه، وهو الموت.
وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة:
منها : أنّ الكلام على ظاهره، و لكن ليس هو نزع موت، بل يكون نزعا لا مشقة فيه.
وقد استشكل ذلك من جهة أخرى؛ وهو أنه يستلزم استغراق الزمان كله في ذلك؛ لاِتّصال الصلاة والسلام عليه في أقطار الأرض ممن لا يحصون كثرة.
وأجيب عنه:
بأنّ أمور الآخرة لا تدرك بالعقل، وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة.(٢)
ومما ورد في وصول سلام أمته إليه ﷺ ما رواه النسائي في سننه أنّ النبي ﷺ قال: (إنّ لله ملائكة سيّاحين يبلغوني عن أمتي السلام).(٣)

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب زيارة القبور، برقم :(٢٠٤١) وصححه الألباني، في صحيح سنن أ بي داود (٣٨٣/١) برقم (١٧٩٥).
(٢) فتح الباري (٤٨٨/٦). بتصرف.
(٣) رواه النسائي في سننه، كتاب السهو، باب السلام على النبي ﷺ(٤٣/٢) برقم (١٢٨١). وصححه الألباني في السلسلة(٥٤/٧) برقم (٢٨٥٣).

وهذان الحديثان إنما استدل بهما العلماء على جواز زيارته ﷺ، والسلام عليه، والدعاء له [1] وأنه ﷺ لا يُدعى وإنما يدعى الله له، كما أمر بذلك أمته في قوله ﷺ: (إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا علي؛ فإنه من صلّى عليّ مرة واحدة صلّى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت له شفاعتي يوم القيامة). [2]

(١) ينظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣٩/٣) واقتضاء الصراط المستقيم (٣٩٩/١) والرد على البكري (١٠٦/١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يسأل الله له الوسيلة، برقم (٣٨٤).

المطلب الرابع :الرد على المفاهيم الخاطئة في رده ﷺ على سلام المسلمين عليه.

أخطأ بعض الناس في فهم هذا الحديث فاستدلوا به على أمور باطلة منها:

أولا: أنّ الرسول ﷺ حي في قبره كحياة أهل الدنيا.

فهم بعض الصوفية من هذا الحديث أنّ الرسول ﷺ حيّ في قبره كحياتنا، وأنه يحضر كل مجلس أو مكان أراد بجسده وروحه، وأنه يتصرّف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض إلى اليوم، وأنه يعلم بأعمال أمته وأحوالها، و لم يتبدل بعد وفاته.(١)

وفي هذا يقول الأستاذ محمد الفقي « فالثقة بعلمه ﷺ بأحوال أمته والإيمان باطلاعه على أعمالها قائمة بالقلوب، لا يجحدها إلاّ جاهل، ولا يكابر فيها إلا مرضى القلوب».(٢)

ثم أخذ يسرد ما يزعم أنه دليل على مدّعاه من نصوص وقصص؛ حتى انتهى به الأمـــر أن ادّعى أنّ النبي ﷺ خاطبه مناما وهو بمكة في مناسبة قصيدة قالها مدحا فيه ﷺ فقال:

«ومما يبعث على زيادة الإيمان بتوفر علمه ﷺ كذلك وإحاطته ومعرفته بأحوال أمته تلك الكلمة الرائعة التي تفضّل فخاطبني بها ﷺ مناما بمكة المكرمة ليلة ١٣ ذي الحجـــة ســـنة ١٣٧٠هـــ والتي أيقظت مني القلب، وهيّجت مني المشاعر، وحرّكت العواطف، وتـــدل قيمتها المعنوية والروحية على عظمتها ومبلغ تأثيرها في أعماق القلوب، إذ يقـــول ﷺ : قصيدتك عرضت عليّ، ومن ذا الذي لا يقرؤها؟ وأنا حأقرؤها».(٣)

والجواب عن هذا الاستدلال الخاطئ أن يقال:

إنّ حياته ﷺ بعد وفاته مخالفة لحياته قبل الوفاة؛ ذلك أنّ الحياة البرزخية غيب من الغيوب، ولا يدري حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى، ولكن من الثابت والمعلوم أنها تختلف عن الحياة الدنيوية، ولا تخضع لقوانينها، فالإنسان في الدنيا يأكل، ويشرب، ويتـــنفس، ويتـــزوّج، ويتحرّك، ويتبرّز، ويمرض ، ويتكلّم، ولا أحد يستطيع أن يثبت أنّ أحدا بعد الموت حتى

---

(١) ينظر رماح حزب الرحيم للفوتي بهامش جواهر المعاني(٢١٩/١). ١٠١١).

(٢) التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية للأستاذ محمد الفقي ص (١٣٠).

(٣) المصدر نفسه ص (١٣٣).

الأنبياء عليهم السلام وفي مقدمتهم نبينا ﷺ تعرّض له شيء هذه الأمور بعد موته.
ومما يؤكّد هذا أنّ الصّحابة رضي الله عنهم كانوا يختلفون في مسائل كثيرة بعد وفاته، و لم يخطر في بال أحد منهم الذهاب إليه ﷺ في قبره، ومشاورته في ذلك، وسؤاله عن الصواب فيها، لماذا؟ إنّ الأمر واضح جدا، وهو أنهم كلّهم يعلمون أنّ النبي ﷺ انقطع عن الحيـــاة الدنيا، و لم تعد تنطبق عليه أحوالها ونواميسها، فرسول الله ﷺ بعد موته حيّ أكمل حياة يحياها إنسان في البرزخ، ولكنها حياة خاصّة لا تُشبه حياة الدنيا.(١)

(١) التوسل للألباني ص: (٥٩-٦٠).

ثانيا: جواز التوسل والاستغاثة به.

قد استدل بعض الصوفية بهذا الحديث أيضا على أنّه يجوز التوسل والاستغاثة به ﷺ ،وأنه لا فرق في ذلك بين حاله ﷺ في حياته وبين حاله بعد وفاته، فـإذا توسّـل بـه سمـع واستجاب فيحصل للمتوسِّل به مقصوده، وتتحقق رغبته.[١]

وفي هذا يقول النبهاني[٢]:

«لقد اتّفق العلماء العارفون على جواز التوسل به عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى لقضاء الحاجات، في حياته وبعد مماته، وقد صار من المجربات أنّ من استغاث به بإخلاص وصدق التجاء؛ تقضى حاجته مهما كانت، ولم يحصل التخلّف لأحد إلا من ضـعف الـيقين، وحصول التردد، وعدم صدق الالتجاء».[٣]

وهذا باطل؛ لأنه قد عُلم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام وبإجماع سلف الأمة وأئمتها أنه لم يكن النبي ﷺ بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين؛ لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم، ولا فعل هذا أحد من أصـحابه رضـوان الله عليهم، وقد كانوا يبتلون بأنواع البلاء بعد موته ﷺ، فتارة بالجدب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدوّ، وتارة بالذنوب والمعاصي، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قـبر الرسول ﷺ ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء للاستغاثة بهـا والـدعاء والشـكوى عندها، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التي هي ضلالة باتّفاق المسلمين.[٤]

ونص الحديث إنما يدل على أنّ الملائكة تبلغه الصلاة والسلام؛ ولم يدل على أنه يبلغه غير ذلك من الأدعية والاستغاثات.[٥]

---

(١) ينظر التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية ص (١٣٠)، وشرح قصيدة ابن القـيم (١٦١/٢)، والتوسل (٥٨).

(٢) سبقت ترجمته.ص (٢٥).

(٣) رحمة الله على العالمين للنبهاني ص (٨١٤-٨١٥).

(٤) ينظر التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية ص (٤٣-٤٤).

(٥) ينظر الاستغاثة (١٠٧/١).

المبحث الثاني: أقوال الملائكة وبقية المؤمنين في البرزخ.

قد ثبت في نصوص السنة المطهّرة أنّ المؤمنين تصدر منهم أقـــوال في الحيـــاة البرزخيـــة، يخاطبون ببعضها ذويهم الذين حملوا جنازهم؛ وبعضها تجري بينهم وبين الملائكة الـــذين يتولّون سؤالهم وفتنتهم في البرزخ، وبعضها يخاطبون بها أعمالهم التي يمثّلـــها الله لهـــم في صورة رجل حسن الوجه والثياب، طيب الريح، والبعض الأخرى يتخاطبون بها فيما بينهم في البرزخ.

وفيما يلي من المطالب ذكر هذه الأقوال، وبيان ما تشتمل عليه من دلالات عقدية؛ بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: قول المؤمن لحاملي جنازته « قدّموني،قدموني».

يُعدُّ ما يصدر من المؤمن من أقوال يخاطب بها حاملي جنازته من أوّل المخاطبات التي تحصل له بعد موته، فقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال:
(إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: قدّموني قدّموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين يذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلاّ الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق).[(١)]

الشرح.

قوله ﷺ «إذا وضعت الجنازة» يحتمل أن يراد «بالجنازة» نفس الميت. وبوضعه: جَعْله في السرير، ويحتمل أن يراد بها السرير، ويكون المراد بوضعها حملها على الكتف؛ والأول أولى لقوله بعد ذلك:«فإن كانت صالحة قالت »؛ فإنّ المراد به الميت.
قوله ﷺ «قدموني قدموني»:ظاهره أن قائل ذلك هو الجسد المحمول على الأعناق؛ وقيل: إنما يقول ذلك الروح؛ وقيل: قائل ذلك مجموع الروح والجسد، إذ لا مانع أن يردّ الله الروح إلى الجسد في تلك الحال ليكون ذلك زيادة في بشرى المؤمن وبؤس الكافر.
واستُبعِد هذا الأخير لأنّ دعوى إعادة الروح إلى الجسد قبل الدفن يحتاج إلى دليل، وأنّ من الجائز أن يحدث الله النطق في الميت إذا شاء.[(٢)]
قوله ﷺ :«وإن كانت غير صالحة قالت يا ويلها أين يذهبون بها» أي :نادت بالويل إظهارا لوقوعه في الهلكة؛ ومعنى النداء يا حزني، وأضاف الويل إلى ضمير الغائب حملا على المعنى كراهية أن يضيف الويل إلى نفسه، أو كأنّه لما أبصر نفسه غير صالحة نفر عنها وجعلها كأنها غيره.
وقوله ﷺ:« يسمع صوتها كل شيء إلاّ الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق» معنى لصعق: أي لغُشي عليه من شدة ما يسمعه؛ وربما أطلق الصعق على الموت، أي: يصيح بصوت منكر لو سمعه الإنسان لغشي عليه.[(٣)]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول الميت على الجنازة قدّموني، برقم (١٣١٦).
(٢) ينظر فتح الباري (١٨٥/٣).
(٣) المصدر نفسه (١٨٦/٣).

وفي إخفاء هذا الصوت عن الإنسان عدة حِكَمٍ؛ منها ما يلي:

- أنّ في إخفاء ذلك سترا للميّت.
- أنّ فيه عدم إزعاج أهله، لأنّ أهله إذا سمعوا ميّتهم يصيح؛ لم يستقر لهم قرار.
- أنّ فيه عدم تخجيل أهله، لأنّ الناس يقولون: هذا ولدكم، هذا أبوكم، هذا أخوكم، وما أشبه ذلك.
- أنه لو سمع النّاس هذا الصوت لكان الإيمان بعذاب البرزخ من باب الشهادة، لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان، لأنّ الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعا، لكن إذا كان غائبا عنهم، و لم يعلموا به إلاّ عن طريق الخبر صار من باب الإيمان بالغيب.(١)

وقد استُشكِل استثناء الإنس فقط عن سماع أقوال الميت في هذا الحديث مع استثناء الثقلين في سماع صيحة الميت الكافر في حديث السؤال في القبر، حيث قال فيه ﷺ «فيضربه ضربة فيصعق صعقة يسمعه كل شيء إلاّ الثقلين ».

والجواب: أنّ كلام الميت بما ذُكر لا يقتضي وجود الصعق وهو الفزع إلاّ من الآدمي لكونه لم يألف سماع كلام الميت، بخلاف الجنّ في ذلك، وأمّا الصيحة التي يصيحها المضروب في القبر فإنها غير مألوفة للإنس والجن جميعا لكون سببها عذاب الله، ولا شيء أشدّ منه على كل مكلف، فاشترك في عدم سماعها الجن.(٢)

وقيل: إنما لم يُمنع الجنّ من سماع كلام الميت لأنه حين يحمل إلى قبره في حكم الدنيا، وليس فيه شيء من الجزاء والعقوبة، لأنّ الجزاء لا يكون إلاّ في الآخرة، وإنما كلامه اعتبار لمن سمعه وموعظة، فأسمعه الله الجنّ لأنه جعل فيهم قوة يثبتون بها عند سماعه ولا يصعقون، بخلاف الإنسان الذي كان يصعق لو سمعه، وصيحة الميّت في القبر عند فتنته هي عقوبة وجزاء، فدخلت في حكم الآخرة، فمنع الله تعالى الثقلين الذين هما في دار الدنيا سماع عقوبته وجزائه في الآخرة وأسمعه سائر خلقه.(٣)

---

(١) ينظر شرح العقيدة الواسطية للشيخ العثيمين (١١٨/٢).

(٢) ينظر فتح الباري (١٨٦/٣).

(٣) ينظر عمدة القاري (١٤٥/٨).

الدلالات العقدية:

قد اشتمل قول الميت المؤمن: «قدّموني قدّموني» على جملة من الدلالات العقدية، وهي ما يلي:

الأولى: إثبات كلام الميت بما ورد فيه الدليل.

إنّ في قول الميّت «قدّموني قدّموني» دليلا على أنّ الميت يتكلّم، وأنّ هذا الكلام يسمعه كل حيوان ناطق وغير ناطق، إلاّ الإنسان.(١) ولهذا ساق الإمام البخاري هذا الحديث تحت الترجمة (باب كلام الميت على الجنازة).(٢)

وفي هذا كلّه دلالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه يُنطق ما شاء من خلقه بدون اشتراط حياة فيه، بل شاءه تعالى أن يُنطق تلك الشاة التي سمّتها اليهودية في يده ﷺ ،كما روى ذلك أبو داود في سننه، فعن أبي سلمة ﵁ قال:

(كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية، ولا يأكل الصدقة ... فأهدت له يهودية بخيبر شاة مصلية سمتها، فأكل رسول الله ﷺ وأكل القوم فقال: ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة.(٣) وهذه الشاة عجماء لم يعهد منها الكلام، ثم إنها ذُبحت وطُبخت، فأنطقها الله تعالى؛ فهذا أعجب من كلام الميت من بني آدم الذي كان الكلام معهودا منه حال حياته.

كما يدل هذا أيضا على كمال الحكمة وتمامها في هذه الشريعة حيث تخبر عن بعض الأمور المغيّبة التي في العلم بها حضّ وحثّ على المسارعة إلى الخيرات، وتحذيرٌ وترهيبٌ من المعاصي والمحرّمات، فمن أيقن بقلبه صدق الرسول ﷺ في إخباره أنّ الميت المؤمن يخاطب حاملي جنازته قائلا لهم:« قدموني قدموني» استعجالا للوصول إلى النعيم الذي أعدّه الله له، أثمر له ذلك المسابقة إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات ليحصل له ذلك يوم يُحمَل على نعشه ويُشَيَّع جنازته.

---

(١) ينظر فتح الباري (١٨٥/٣).

(٢) نفس المصدر (٢٤٤/٣).

(٣) سنن أبي داود، كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلا، أو أطعمه فمات، أيقاد منه، برقم (٤٥١٢)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٨٩/٣) برقم: (٥٩٣١).

الثانية: أن ابتداء العرض على الميت مقعده يكون عند حمله إلى القبر.

إنّ ممّا يدل عليه قول الميت« قدّموني قدّموني» أنّ ابتداء العرض على الميّت ما سيؤول إليه من الخير أو الشرّ يكون بعد حمله على الجنازة، وقد ذكر بعض العلماء أنّ مناسبة ذكر الإمام البخاري رحمه الله تعالى (باب كلام الميت على الجنازة) بعد (باب الميّت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ) هو بيان أنّ ابتداء العرض إنما يكون عند حمل الجنازة لأنها حينئذ يظهر لها ما تؤول إليه فتقول ما تقول.(١)

الثالثة: إثبات نعيم البرزخ.

دلّ قول الميت «قدّموني قدّموني» كذلك على إثبات نعيم البرزخ حيث إنّ المؤمن يرى ما أُعِدّ له وما ينتظره من الكرامة في البرزخ فيستعجل وصوله إليه؛ فيقول لحامليه «قدموني قدموني» فلو لم يكن هناك نعيم أعلمه الله تعالى إيّاه ما كان ليطلب– وهو على الجنازة– سرعة التقديم، وقد دلّ على نعيم القبر أدلة أخرى من الكتاب والسنة منها:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ .(٢)وهذه البشارة تكون عند موت المؤمن، وفي قبره وحين يبعث.(٣)وغير ذلك من الأدلة.

كما يدل هذا على استحباب الإسراع بالجنازة تشييعا ودفنا متى تحقّقت وفاته–على حسبما يطاق، وما لا يضر بالمتّبِع الماشي معها–.(٤) لأنّ تأخيره عن الدفن تأخيرٌ له عن النعيم الذي ينتظره في البرزخ، فقد روى أبو هريرة ﷺأنّ رسول الله ﷺ قال:(أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدّمونها، وإن يك سوى ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم).(٥)

---

(١) ينظر فتح الباري (٣/٢٤٤).

(٢) سورة فصلت الآية (٣٠–٣٢).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤/٢٥٥٠). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي ص(٧١٥).

(٤) ينظر التمهيد لابن عبد البر (١٦/٣٤– ٣٥).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب السرعة بالجنازة، برقم (١٣١٥).

المطلب الثاني: قول المؤمن للملك « دعني حتى أصلي».

إنّ من الأقوال التي تصدر من المؤمن أيضا في البرزخ، قوله للمَلَك «دعني أصلي» وهـــذا الخطاب جزء من حديث رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

(إنّ الميت إذا وُضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه.

فَيُؤتى من قِبَل رأسه فتقول الصلاة: ما قِبلي مدخل.ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام : مـــا قِـــبَـــلي مدخل.ثم يُؤْتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قِبلي مدخل. ثم يؤتى من قبل رجليه فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس : ما قبلي مدخل.

فيقال له: اجلس؛ فيجلس وقد مُثّلت له الشمس وقد أدنيت للغروب، فيقال له : أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟

فيقول: دعوني حتى أصلي.فيقولون : إنك ستفعل أخبرني عما نسألك عنه...).(١)

الدلالات العقدية:

قد تضمّن قول المؤمن للملائكة « دعوني حتى أصلي » على بعض الدلالات العقدية وهي مـــا يلي:

الأولى: إثبات وجود الملائكة، وثبوت رؤية البشر لهم في البرزخ.

إنّ في قول المؤمن « دعوني...» مخاطبا الملائكة دليلا على وجود الملائكة، وعلى أنّ أهل البرزخ يروهم حين يأتون ليسألوهم، وفي ذلك دلالة على مغايرة الحياة البرزخيـــة لحيـــاة الدنيا، وعلى اختلاف طبيعة الحياة في هاتين الدارين، إذ لا يحصل رؤية الملائكة في هـــذه الدار إلا لبعض الناس ممن شاء الله تعالى أن يريهم إياهم،(٢)ويكون ذلك في غير صورهم التي خلقهم الله عليها، وذلك لأنّ البشر إذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٨٠/٧) برقم (٣١١٣). والحاكم في المستدرك (٣٧٩/١) بـــرقم (٣٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٩/٣) برقم (٣٥٦١).

(٢) ينظر فتح الباري (١٢٤/١).

من هول ما يشاهدون[١] إلاّ الرسول ﷺ فقد خصه الله تعالى برؤية جبريل على صورته.[٢]
أما في حياة البرزخ فقد دلت الأدلة على أنّ البشر يروهم سواء المؤمن منهم والكافر كما في هذا الحديث وغيره من الأحاديث.

الثانية: تثبيت الله تعالى أهل الإيمان في البرزخ.

إنّ في قول المؤمن للملائكة :«دعوني حتى أصلي» دلالة على أنّ الله تعالى يثبّت المؤمنين في البرزخ، فلا يفزعون عند سؤال الملائكة لهم؛-مع هيبة ذلك الموقف وشدة هوله على غير المؤمنين- وذلك بسبب إيماهم وأعمالهم الزاكية، فهذا المؤمن- على صعوبة هذا الموقف- لا يهتمّ إلا بما كان مهتمّا به في دنياه من العبادة والطاعة التي لم يحصل له ذلك الاطمئنان إلا بقيامه بها خير قيام.قال ﷻ ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[٣] أي: أنّ الله تعالى يثبت المؤمنين في الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ، وبالخير والعمل الصالح، وفي الآخرة بمثل الذي ثبّتهم به في الحياة الدنيا؛ وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ[٤]
بل قد ثبت في السنة أنّ هناك أمورا مَن قام بها أو حصلت له أَمِن من سؤال الملكين منها:
- الرباط في سبيل الله.

فعن سلمان[٥] رضي الله عنه قال:

(سمعت رسول الله ﷺ وسلم يقول: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم(٢/١٠٤٥)،و تفسير النسفي(١/ ٣١٤) والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص (١٧١)

(٢) ينظر عمدة القاري (٤/٢٣٥).

(٣) سورة إبراهيم الآية (٢٧).

(٤) ينظر تفسير الطبري (٧/٤٤٦).

(٥) سلمان الفارسي هو أبو عبد الله، ويعرف بسلمان الخير، مولى رسول الله ﷺ سئل عن نسبه رضي الله عنه فقال: أنا سلمان بن الإسلام؛ أصله من فارس، من رامهرمز، وكان اسمه قبل الإسلام ما به بن بوذخشان، وأوّل مشاهده مع رسول الله ﷺ الخندق؛ و لم يتخلّف عن مشهد بعد الخندق، وتوفي سنة ٣٥هـ في آخر خلافة عثمان؛ وقيل: غير ذلك. ينظر أسد الغابة (١/٤٦٢-٤٦٤).

جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجري عليه رزقه، وأمن الفتان).[١]

وقد استدل غير واحد بهذا الحديث على أن المرابط لا يسأل في قبره كالشهيد.[٢]

- الشهادة في سبيل الله.

فقد روى النسائي في سننه عن رجل من أصحاب النبي ﷺأنّ رجلا قال: (يا رسول الله ما بال المـؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة).[٣] أي: لو كان في هؤلاء المقتولين نفاق كان إذا التقى الزحفان، وبرقت السيوف فرّوا، لأنّ من شأن المنافق الفرار عند ذلك، ومن شأن المؤمن البذل والتسليم لله نفسا، فهذا قد أظهر صدق ما في قلبه حيث برز للحرب والقتل، فلم يعـد في سـؤاله حاجة.[٤]

- من مات في ليلة الجمعة أو في يوم الجمعة مسلما.

فعن النبي ﷺ :(ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلاّ وقاه الله فتنة القبر).[٥] فمن مات يوم الجمعة الجمعة فقد انكشف له الغطاء عمّا له عند الله، لأنّ يوم الجمعة لا تسجر فيه جهنّم، وتغلق أبوابها، ولا يعمل سلطان النار فيه ما يعمل في سائر الأيام، فإذا قبض الله عبدا من عبيده فوافق قبضه يوم الجمعة ؛كان ذلك دليلا لسعادته، وحسن مآبه، ويقيه ذلك فتنة القبر لأنّ سببها تمييز المنافق من المؤمن.[٦]

وهذه الأحاديث التي فيها نفي السؤال في القبر لا تعارض أحاديث السؤال السابقة، بل تخصّصها وتبين من لا يسأل في قبره ولا يفتن فيه ممن يجري عليه السؤال ويقاسي تلك الأهوال.[٧]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله، برقم (١٩١٣).

(٢) ينظر شرح السيوطي على مسلم (٥٠٧/٤).

(٣) رواه النسائي في سننه، كتاب الجنائز، باب الشهيد، (٢٠٥٢). وصححه الألبـاني في صـحيح الترغيب والترهيب (٦٨/٢) برقم (١٣٨٠).

(٤) ينظر التذكرة (٤٢٤/١).

(٥) رواه الترمذي في سننه،كتاب الجنائز، باب ما جاء فيمن مات يوم الجمعة، برقم (١٠٧٤)، وصححه الألباني، في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٠/٣)، برقم (٣٥٦٢).

(٦) ينظر تحفة الأحوذي (١٦٠/٤)

(٧) ينظر التذكرة (٤٢٣/١)، وتحفة الأحوذي (١٦٠/٤)

المطلب الثالث: قول الملائكة للمؤمن « من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟»

إنّ من جملة ما ثبت في السنة من مخاطبات الملائكة لأهل الإيمان فتنتهم المؤمن بهذه الأسئلة؛ فقد ثبت من حديث البراء ﷺ: عن النبي ﷺ قال في قول الله ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ قال: في القبر إذا قيل له من ربك وما دينك ومن نبيك؟).[(١)]

وقد ثبتت في السنة المطهّرة هذه الأسئلة من الملائكة بألفاظ وصور أخرى، ففي بعض الأحاديث أنهم يسألون عن أربعة أمور:

« من ربك؟ ما دينك؟ ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ ما علمك؟...»، ففي بعض روايات حديث البراء عند الإمام أحمد: (... فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه؛ فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله؛ فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام؛ فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت...).[(٢)]

وجاء في أحاديث أخرى أنّ الملائكة يسألون عن أمرين وهما:«من ربك؟ من نبيك؟».

فعن أبي قتادة الأنصاري[(٣)] ﷺ قال: (إنّ المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك، فيقول: الله عز وجل، فيقال له: من نبيك، فيقول: محمد بن عبد الله ﷺ فيقال له ذلك مرات، ثم يفتح له باب إلى النار؛ فيقال له انظر إلى منزلك من النار لو زغت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى منزلك من الجنة إذ ثبتّ...).[(٤)]

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة إبراهيم، برقم (٣١٢٠)، وقال حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/٦٥) برقم (٣٤٩٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤). وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/٣٦٨) برقم (١٦٣٠)، وينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله التركي (٣٠/٤٩٩-٥٠٣).

(٣) أبو قتادة هو الحارث بن ربعي بن بلدمة الأنصاري السلمي؛ فارس رسول الله ﷺ؛ توفي بالكوفة سنة ٥٤هـ في خلافة علي ﷺ وهو الذي صلّى عليه. ينظر الاستيعاب (١/٨٥-٨٦).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/٢٢٤٤)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٠) والحديث حسن ينظر: تحقيق معارج القبول لعمر بن محمود أبي عمر (٢/٧٤٤).

وقد ثبت أيضا سؤالهم عن أمرين بصفة أخرى، وهي: أنهم يقولون للعبد :«ما كنت تعبد...ما كنت تقول في هذا الرجل؟»

فعن أنس بن مالك ﷺ قال:(إنّ رسول الله ﷺ دخل نخلا لبني النجار، فسمع صوتا ففزع؛ فقال: من أصحاب هذه القبور؟ قالوا يا رسول الله ناس ماتوا في الجاهلية.

فقال: تعوّذوا بالله من عذاب النار، ومن فتنة الدجال؛ قالوا: وممّ ذاك يا رسول الله؟ قال: إنّ المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك؛ فيقول له: ما كنت تعبد؟ فإن الله هداه؛ قال: كنت أعبد الله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله؛ فما يسأل عن شيء غيرها...).(١)

وثبت أيضا في بعض الأحاديث أنهم يسألون عن أمر واحد، وهو:« ما كنت تقول في هذا الرجل؟».

فعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: (العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك في النار، أبدلك الله به مقعدا من الجنة؛ قال النبي ﷺ:فيراهما جميعا.

وأمّا الكافر أو المنافق؛ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس.

فيقال: لا دريت، ولا تليت؛ ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين).(٢)

وجاء في حديث آخر صيغة أخرى لهذا السؤال وهي: أنّ الملائكة يقولون:

« أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم؛ ماذا تقول فيه؟ وما ذا تشهد به عليه؟».

فعن أبي هريرة ﷺعن النبي ﷺقال:

---

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب السنة، باب المسألة في القبر، برقم (٤٧٥١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٢١٧/٣)، برقم (٣٥٥٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، برقم (١٣٣٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٧٠).

(إنّ الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات: من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه.

فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قِبَلي مدخل.

ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل.

ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل.

ثم يؤتى من قبل رجليه فتقول فعل الخيرات: من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قِبَلي مدخل.

فيقال له: اجلس؛ فيجلس وقد مُثِلت له الشمس وقد أدنيت للغروب، فيقال له: أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟

فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل، أخبرني عما نسألك عنه؛ أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد عليه؟...).[(١)]

فهذا مجموع ما تم الوقوف عليه من الروايات في أسئلة الملائكة في القبر، وهي لم تخرج في جملتها عند التأمّل عن السؤال عن أمور خمسة؛ وهي: عن الرب سبحانه وتعالى، وعن النبي ﷺ، وعن الدين أو العبادة ، وعن العلم.

والملحوظ أنّ السؤال الذي لم يخل منه حديث من هذه الأحاديث- على تعدّدها- هو السؤال عن النبي ﷺ، فهو إمّا أن يُسأل وحده، أو يُقرن به السؤال عن الربّ وعن الدين وعن العلم، أو يقرن به السؤال عن الرب وعن الدين، أو يقرن به السؤال عن الرب فقط، أو يقرن به السؤال عن العبادة فقط.

ومما يلاحظ أيضا من مجموع هذه الأحاديث أنّ السؤال عن النبي ﷺ متى بدأ به الملكان واستفتحا به اكتفيا به،ولم يسألا عن غيره، ومتى بدآ واستفتحا بالسؤال عن غيره من الأسئلة ، فلا بد أن يكون السؤال عن النبي ﷺ مذكورا معه.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٨٠/٧) برقم (٣١١٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٩/٣) برقم (٣٥٦١).

ولعل السبب في اختلاف هذه الأسئلة وتعدّدها من الملائكة يرجع إلى تفاضل الناس في الإيمان؛ فمن كان إيمانه أكمل وأفضل؛ كانت فتنته بالأسئلة أخفّ وأقل، ومن كان إيمانه أضعف وأعماله أقل؛ كانت الفتنة بالأسئلة أكثر وأشد.

وقد أشار الإمام القرطبي[١] رحمه الله إلى هذا بقوله: «واختلفت الأحاديث أيضا في كيفية السؤال والجواب أيضا؛ وذلك بحسب اختلاف أحوال الناس، فمنهم من يقتصر على سؤاله عن بعض اعتقاداته، ومنهم من يسأل عن كلها ووجه آخر: وهو أن يكون بعض الرواة اقتصر على بعض السؤال، وأتى به غيره على الكمال، فيكون الإنسان مسؤولا عن الجميع ».[٢]

---

(١) سبقت الترجمة له.ص (٢٤).

(٢) التذكرة (١/٣٥٨).

الدلالات العقدية في أسئلة الملائكة.

قد تضمنت هذه الأسئلة من الملائكة بعضا من الدلالات العقدية، منها:

الأولى:إثبات فتنة القبر.

دلت هذه الأسئلة من الملائكة على إثبات فتنة القبر، وهي امتحان الميت واختباره في القبر،(١) وأنها عامة للمكلّفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم، وكذلك اختلف في غير المكلّفين كالمجانين والصبيان؛ وكذلك اختلف في هل هي خاصة بهذه الأمة أم أنها تشمل غيرها من الأمم.(٢)

ومن الأدلة على هذه الفتنة من القرآن قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ وثبت عن النبي ﷺ أنه قال هذا في القبر إذا قيل له من ربك وما دينك ومن نبيك؟).(٣) ومن السنة قوله ﷺ (أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها...).(٤)

ومنها ما روى عثمان بن عفان ﷺقال: (كان النبيﷺ إذا فرغ من دفن الرجل قال: استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل).(٥)

قال ابن أبي العز(٦)رحمه الله:

« وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ولا تتكلم في كيفيته إذ ليس

---

(١) ينظر الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص (٢٦٩).

(٢) ينظر الروح لابن القيم ص (١٢١-١٣٢). وشرح العقيدة الطحاوية ص (٥٨١)، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص (٢٦٩، ٢٧١).

(٣) سبق تخريجه ص (٨٦).

(٤) رواه أحمد في المسند برقم (١٤٧٢٢)، وهو حديث صحيح؛ ينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله بن عبد المحسن التركي (٦٥/٢٣).

(٥) رواه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، برقم (٣٢٢١)، والحاكم (٥٢٦/١) برقم (١٣٧٣) وصححه. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦٢٠/٢) برقم (٢٧٥٨).

(٦) سبقت ترجمته.ص (٤٥).

للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به في هذا الدار».[١] وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: « ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيؤمن بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه؛ فأما الفتنة فإنّ الناس يمتحنون في قبورهم، فيقال للرجل: ما ربك وما دينك ومن نبيك ».[٢]

الثانية: أهمية هذه الأمور التي يسأل عنها الإنسان في قبره.

دل سؤال الملائكة عن هذه الأمور دون غيرها من أمور الدين على أهميتها، ووجوب الاعتناء بها، بإعطاء كل واحد منها حقها تعلّما وعملا، فيحرص المسلم على الإيمان بالله ومعرفته تعالى بأسمائه وصفاته، وتصديق نبيه محمدا ﷺ ومعرفة ما يمكنه من سيرته وأخلاقه، ويتعلم أمور دينه، ويقوم بما يلزم من ذلك من عبادة الله تعالى، والاقتداء بالنبي ﷺ، ليوفق يوم الاختبار والفتنة في القبر للصواب من الجواب، وليكون ممن يثبتهم الله في ذلك الموقف الصعب.

وقد تنبه أحد العلماء الأجلاّء[٣] لأهمية هذه الأصول، فألف فيها كتابا أسماه بالأصول الثلاثة.

الثالثة: إثبات العلاقة بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية.

ليس في مجموع الأحاديث التي وقفت عليها جمع الملائكة بين السؤال عن الربّ وعن العبادة، فمتى ما ورد السؤال عن الرب اكتُفي به عن السؤال عن العبادة، كما في قولهم: «من ربك؟ من نبيك؟».[٤] و إذا ورد السؤال عن العبادة استُغني به عن السؤال عن الرب كما في قولهم:«ما كنت تعبد...ما كنت تقول في هذا الرجل؟».[٥]وهذا إنما يدل على وجود الترابط الوثيق والعلاقة القوية بين هذين النوعين من التوحيد؛ فتوحيد الربوبية

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص (٣٩٦).

(٢) العقيدة الواسطية ص (٢٠).

(٣) هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

(٤)سبق تخريجه ص (٨٦).

(٥) سبق تخريجه ص (٨٧).

يستلزم توحيد الألوهية. ومعنى ذلك أنّ من عرف أنّ الله ربه وخالقه ومدبّر أموره، وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له.

وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية؛ إذ مَن عَبَد الله وحده، ولم يشرك به شيئا فلا بدّ أن يكون قد اعتقد أنه تعالى ربه وخالقه.

ولذا تارة يذكران معا في النصوص كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾.[١]

وتارة يذكر أحدهما مفردا عن الآخر فيجتمعان في المعنى؛كما في قول الملكين « من ربك» أي من إلهك وخالقك؟[٢]

وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [٣] أي إلها وسيدا.[٤]

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[٥] أي إلا أنهم وحّدوا الله وعبدوه مخلصين له الدين[٦] فالربوبية في هاتين الآيتين وما أشبههما هي الإلهية.[٧]

---

(١) سورة الناس الآية (١-٣).

(٢) ينظر الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص (٣٥).

(٣) سورة الأنعام الآية (٦٤).

(٤) ينظر تفسير البغوي (١٢١/٢).

(٥) سورة الحج الآية (٤٠).

(٦) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٥١٢).

(٧) ينظر الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص (٣٥).

المطلب الرابع: قول المؤمن في جواب الملائكة:« ربي الله، ديني الإسلام، ونبيي محمد».

قد اتّفقت الأحاديث التي وقفت عليها على أنّ المؤمن يقول: « ربي الله، ديني الإسلام» جوابا على سؤال الملكين له عن ربّه وعن دينه.

واختلفت ألفاظها في ذكر جواب المؤمن على سؤال الملكين له عن نبيه.

فجاء في بعض الأحاديث أنّ المؤمن يقول:« هو رسول الله ».

فقد ورد في بعض روايات حديث البراء: (...ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ قال: فيقول هو رسول الله ﷺ...).(١)

وفي بعضها أنّه يقول:« أشهد أنه عبد الله ورسوله».

فعن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: (العبد إذا وضع في قبره وتولّى وذهب أصحابه، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله...).(٢)

وفي بعضها أنه يقول « هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله».

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إذا قبر الميت، أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر، والآخر النكير، فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول؛ هو عبد الله ورسوله؛ أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا عبده ورسوله؛ فيقولان: قد كنّا نعلم أنك تقول هذا...).(٣)

---

(١) رواه أبو داود في سننه؛ كتاب السنة، باب المسألة في القبر، برقم (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٩٠٣/٣) برقم (٣٩٧٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، برقم (١٣٣٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٧٠).

(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، برقم (١٠٧١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١١/١) برقم (٨٥٦).

وفي بعضها أنه يقول:« محمد رسول الله ﷺجاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه».
فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إنّ الميت يصير إلى القبر؛ فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مشعوف؛ ثم يقال له: فيم كنت؟ فيقول كنت في الإسلام. فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه...).[(١)]
وفي أحاديث أخرى أنه يقول « محمد جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا، وآمنّا، واتّبعنا».
فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها قالت: (أتيت عائشة زوج النبي ﷺ حين خسفت الشمس، فإذا الناس قيام يصلّون... فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا؛ حتى الجنة والنار، ولقد أوحي إليّ أنكم تفتنون في القبور مثل - أو قريبا من - فتنة الدجال - لا أدري أيّ ذلك قالت أسماء - يؤتى أحدكم فيقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأمّا المؤمن أو الموقن - لا أدري أيّ ذلك قالت أسماء - فيقول هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنّا، واتّبعنا...).[(٢)]
ويلاحظ أنّ اختلاف هذه الأجوبة من أهل الإيمان إنما هو في الألفاظ فقط من حيث الإجمال والتفصيل؛ وإلاّ فهي كلها ترجع إلى معنى واحد، إذ الشهادة بأنه ﷺ رسول الله لا تصحّ إلاّ مع الشهادة بأنْ لا إله إلا الله.
والإقرار بهاتين الشهادتين يتضمن الإيمان بأنّ محمدا ﷺ عبد الله، وأنه جاء بالبينات والهدى من عند الله.
والإيمان بذلك كله يستلزم تصديقه فيما أخبر، وإجابته إلى ما دعا، واتّباعه فيما أمر ونهى؛ فتبين بهذا أنّ أجوبة أهل الإيمان عن هذا السؤال اختلفت في الألفاظ، واتّحدت في المعنى والمضمون. والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، برقم (٤٢٦٨)، وصححه الألباني، في صحيح سنن ابن ماجه(٤٢٣/٢)، برقم (٣٤٤٣).
(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الخطبة قائما، برقم (٩٢٢).

وقد يرجع هذا الاختلاف في الأجوبة إلى تفاضل الناس في الإيمان،[١] حيث لـــوحظ أنّ الأجوبة التي فيها التفصيل كلّها كان سؤال الملكين لأهلها عن أمر واحد فقط؛ وهو النبي ﷺ، مما يدل على خفة الاختبار وقلة الأسئلة، وقد ذُكر فيما سبق أنّ خفة الفتنة في القبر وقلة الأسئلة تعود إلى تفاوت درجات أهل الإيمان.

ومما يؤكد على هذا أنّ التفصيل في الجواب غالبا يكون مع الثبات والاطمئنـــان، وعـــدم الخوف، فلمّا جعل الله ذلك لأهل الإيمان في البرزخ استحضروا ما كانوا عليه في الدنيا من العلم بالله وبرسوله والعمل الصالح، ففصّلوا في الجواب. والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) ينظر التذكر (٣٥٨/١).

الدلالات العقدية في هذه الأجوبة.

قد اشتملت هذه الأجوبة من أهل الإيمان على جملة من الدلالات العقدية؛ وهي:

الأولى:تعلق السعادة في الدنيا والآخرة بالإقرار بهذه الأمور الثلاثة.

دل قول المؤمن « ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ ». على أهمية الإقرار بهذه الأمور الثلاثة وأنه بالرضى بها تحصل السعادة في الدنيا والآخرة، لذا أخبر المصطفى ﷺ أنّ من رضي بهذه الثلاثة ذاق طعم الإيمان؛ وكان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة.

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا).(١)

وصح عن النبي ﷺ أنه قال :(ما من عبد يقول حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، إلا كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة).(٢)

قال ابن القيم رحمه الله:«وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضى بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضى برسوله والانقياد له، والرضى بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة؛ فهو الصديق حقّا، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان؛ ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها، من ذلك تبين أنّ الرضى كان لسانه به ناطقا، فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضى بإلهيته يتضمن الرضى بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها، ... وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضى بربوبيته يتضمن الرضى بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكّل عليه والاستعانة به، والثقة به والاعتماد عليه، وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا فهو مؤمن؛ وإن ارتكب المعاصي والكبائر برقم (٣٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٩٦٩)، والحديث صحيح لغيره، ينظر تحقيق المسند بإشراف د/ عبد الله التركي (٣٠٤/٣١).

فالأول: يتضمّن رضاه بما يؤمر به؛ والثاني: يتضمن رضاه بما يقدّر عليه.

وأمّا الرضى بنبيه رسولا؛ فيتضمّن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلاّ من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة؛ لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه...

وأما الرضى بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضى، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلّم له تسليما ولو كان مخالفا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلّده وشيخه وطائفته ».(١)

ولأهمية الإيمان بهذه الأصول الثلاثة ورد في السنة المطهرة استحباب ترداده في الصباح والمساء، وعند سماع الأذان، حتى يثبت في القلوب اعتقادها،ويرسخ في الأذهان معانيها، ويخف على الألسن ذكرها، ولكي يكون المسلم مستحضرا لها حال حياته وبعد موته؛ فقد صح عنه ﷺ أيضا أنه قال:(من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله؛ رضيت بالله ربا، وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا غفر له ذنبه).(٢)

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٧٢-١٧٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل لأذان وهرب الشيطان عند سماعه، برقم (٣٨٦).

الثانية:أنّ قول هذه الأمور الثلاثة لا ينفع إلا مع القيام بها علما وعملا.

دل مجموع ما ورد من أجوبة أهل الإيمان:«... أشهد أنه عبد الله ورسوله...»،« ...هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله...»،« ...محمد جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنّا واتّبعنا...»، أنّ قبول هذه الأصول الثلاثة عند الله معلّق بشروط متى ما انتفت لا تقبل من العبد في الدنيا ولا يوفّق للإجابة بها في البرزخ، ومنها: الإيمان بالرسول ﷺ ،وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر،وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد كائنا من كان، فإن شهادة أنّ محمدا ﷺ رسول الله تقتضي ذلك كله.[١] وهذا مستفاد من قولهم:« ...محمد جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنّا واتّبعنا...».

ومنها أيضا الوسطية في حقّ النبي ﷺ بين الغلوّ والجفاء، وبين الإفراط والتفريط؛ وهو مستفاد من قولهم:«... أشهد أنه عبد الله ورسوله...».فإن الإتيان بهاتين الصفتين وجَمْعهما دفع للإفراط والتفريط؛ فإنّ كثيرا ممن يدّعي أنه من أمّته أفرط بالغلوّ قولا وعملا، وفرّط بترك متابعته، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به، وتعسّف في تأويل أخباره وأحكامه بصرفها عن مدلولها والصدوف عن الانقياد لها مع إطراحها.[٢]

(١) ينظر فتح المجيد ص (٤١).

(٢) المصدر نفسه.

المطلب الخامس: قول المؤمن:« قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت».

قد مرّ معنا أنّ الملكين يسألان الإنسان في البرزخ – حسب ما وقفت عليه- من الأحاديث عن خمسة أمور منها «ما علمك»؛ وجواب أهل الإيمان عن هذا السؤال هو:

«قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت».

فقد ورد في بعض روايات حديث البراء أنّ النبي ﷺ قال: (...فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به، وصدّقت).[(١)]

الدلالات العقدية.

قد اشتمل هذا الجواب من المؤمن على بعض الدلالات العقدية؛ منها:

الأولى: أنّ قراءة القرآن من أعظم ما ينجو بها العبد في الدنيا والآخرة.

إنّ في قول المؤمن :« قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت» دلالة على أنّ أشرف العلوم العلم بكتاب الله تعالى، وأنّ قراءته مع الإيمان به والتصديق بما فيه من أفضل القربات، وأزكى الطاعات، حيث قدّم هذا العبد المؤمن قراءته للقرآن وإيمانه به على سائر معلوماته وأعماله.

والنصوص الواردة في فضل قراءة القرآن وكثرة ثوابها كثيرة جدّا؛ ويكفي أن الله تعالى شهد لمن يتلونه أنهم المؤمنون به، فقال تعالى:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .[(٢)]

وقد ورد آثار كثيرة عن السلف في معنى قوله تعالى: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ منها ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال:

«والذي نفسي بيده إنّ حقّ تلاوته أن يحلّ حلاله، ويحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله،

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤)، وأبو داود في سننه؛ كتاب السنة، باب المسألة في القبر، برقم (٤٧٥٣)،وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٩٠٣/٣) برقم (٣٩٧٨). وينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله التركي (٤٩٩/٣٠-٥٠٣).

(٢) سورة البقرة الآية (١٢١).

ولا يحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئا على غير تأويله».(١)

وعن عمر بن الخطاب في قوله:«﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾قال: إذا مرّ بذكر الجنة سأل الله الجنــة، وإذا مرّ بذكر النار تعوّذ بالله من النار».(٢)

وعن الحسن قال:«﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه».(٣)

ومما ورد من السنة من فضل قراءة القرآن قوله ﷺ :

(من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة؛ والحسنة بعشر أمثالها؛ لا أقــول آلم حــرف؛ ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف).(٤)

وعن النواس بن سمعان(٥) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

(يأتي القرآن وأهله الذين يعملون به في الدنيا، تقدمه سورة البقرة وآل عمــران، قــال نواس: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال تأتيان كأنهما غيايتان وبينهما شرف، أو كأنهما غمامتان سودوان، أو كأنهما ظلة من طير صواف؛ تجادلان عن صاحبهما).(٦)

---

(١) تفسير الطبري (١/٥٦٦).

(٢) الدر المنثور (١/٢٧٢).

(٣) تفسير الطبري (١/٥٦٦).

(٤) رواه الترمذي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له مــن الأجر،برقم (٢٩١٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩/ ١٠٧) برقم (٣٣٢٧).

(٥) النواس بن سمعان هو ابن خالد بن عمرو بن قرط بن عبد الله بن أبي بكر بن كــلاب العــامري الكلابي له ولأبيه صحبة، وهو معدود في الشاميين؛ ويقال: إنّ أباه سمعان بن خالد وفد على النبي ﷺ فدعا له رسول الله ﷺ وأعطاه نعليه فقبلهما رسول الله ﷺ؛ وزوّجه أخته. فلما دخلت على النبي ﷺ تعوذت منه؛ فتركها ﷺ وهي الكلابية. ينظر الاستيعاب(١/٤٨٦)،والإصابة (٦/٤٧٨).

(٦) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، برقم (٨٠٥).

وعن عبد بن بريدة عن أبيه قال:

(كنت جالسا عند النبي ﷺ فسمعته يقول تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة، قال: ثم مكث ساعة ثم قال: تعلّموا سورة البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني فيقول ما أعرفك؛ فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان بم كسينا هذه؟ فيقال بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له اقرأ واصعد في درجة الجنة وغرفها، فهو في صعود، ما دام يقرأ، هذّا كان أو ترتيلا).(١)

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال:«من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة».(٢)

الثانية: إثبات اسم من أسماء القرآن.

دل قول المؤمن « قرأت كتاب الله...» على إثبات اسم من أسماء القرآن ورد تسميته به في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

أمّا من القرآن ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .(٣)

ومن السنة قوله ﷺ (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده).(٤)

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم (٢٢٩٥٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٣٠/٧) برقم (٢٨٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٢٥/١).

(٣) سورة الفاطر الآية (٢٩-٣٠).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار،باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، برقم (٢٦٩٩).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام، وقد يراد به ما يكتب فيه.(١)

فإن أريد بالكتاب الأوراق والمداد فهو مخلوق، أمّا إن أريد به نفس الكلام والحروف التي فيه؛ فهي غير مخلوقة؛ قال شيخ الإسلام(٢) رحمه الله:

«فالواجب أن يقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فالقرآن في المصاحف كما أنّ سائر الكلام في الصحف، ولا يقال إنّ شيئا من المداد والورق غير مخلوق؛ بل كل ورق ومداد في العالم فهو مخلوق، ويقال أيضا القرآن الذي في المصحف كلام الله غير مخلوق والقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله غير مخلوق» (٣)

وقال رحمه الله أيضا:

« ومن قال إنّ المداد أو الورق أو صفة العبد أو فعله أو حفظه وصوته قديم أو غير مخلوق فهو مخطىء».(٤)

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٢٥).

(٢) سبقت ترجمته. ص (٣٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/٢٤٢).

(٤) المصدر نفسه (١٢/٥٦٥).

المطلب السادس: قول المؤمن بعد سؤال الملائكة« رب أقم الساعة».

قد ثبت عن رسول الله ﷺ أنّ المؤمن يقول بعد إجابته على أسئلة الملكين، ونجاته من عذاب القبر:« رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي»، فقد جاء في بعض روايات حديث البراء ، أن النبي ﷺ قال في قصة المؤمن: (...ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجئ بالخير؛ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي وما لي...).[١]

وجاء في حديث آخر أنه يقول:«... أرجع إلى أهلي فأخبرهم».[٢]

وفي حديث آخر أنه يقول: « دعوني أبشّر أهلي».

فعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا رأى ما فسح له في قبره، يقول دعوني أبشّر أهلي؛ فيقال له: اسكن).[٣]

الدلالات العقدية.

الأولى: إثبات نعيم البرزخ.

دل مجموع ما ورد في هذه الأحاديث من قول المؤمن:« ربّ أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي»،«أرجع إلى أهلي فأبشرهم»،« دعوني أبشر أهلي»؛ على نعيم القبر حيث ذكر هذا المؤمن أنّ سبب رغبته في الرّجوع إلى أهله هو تبشيرهم؛ والبشارة في الأصل إنما تكون فيما يُسِر.

وقد سبق ذكر بعض أدلة الكتاب والسنة على إثبات نعيم البرزخ بما يغني عن إعادتها هنا.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤). وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٦٨/١) برقم (١٦٣٠)، وينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله التركي (٤٩٩/٣٠-٥٠٣).

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، برقم (١٠٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٩/٣)، برقم (١٣٩١).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٤٥٤٧)والبيهقي في إثبات عذاب القبر ص (١٢٦-١٢٧)، وهو صحيح؛ ينظر تحقيق المسند (٤١٥/٢٢).

الثانية: انتفاء علم الأحياء عن الأموات؛ وعلم الأموات عنهم.

دلّ قول المؤمن في البرزخ:« رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي» على انقطاع علم الأموات عن الأحياء، وانقطاع علم الأحياء عنهم، إذ لو كان هذا المؤمن يعلم أنّ أهله عالمون بما هو فيه من النعيم، لما احتاج إلى طلب الرجوع إلى الدنيا ليخبر هم بذلك، ولكان يغنيه ذلك عن هذا الطلب، ولكنه علم- وهو في البرزخ- انقطاع العلم بين أهل هذين الدارين- إلا فيما خص بدليل- وأنه لا يقابل أهله إلاّ في عرصات القيامة،- إذا قدر له الله ذلك- فطلب من الله إقامة الساعة ليقابل أهله فيبشّرهم.

وقد تقدم ذكر الأدلة على هذا الأصل.

الثالثة: إثبات البعث بعد الموت، وإثبات اسم من أسماء يوم القيامة.

يدل قول هذا المؤمن « رب أقم الساعة ...» على إثبات البعث بعد الموت، وعلى أنّ الحياة البرزخية لها مدة تنتهي إليها؛ مثل الحياة الدنيوية في ذلك؛ وأنها يعقبها قيام الناس وبعثهم للمجازات.

كما أنّ في طلب المؤمن هذا إشارة إلى أن نعيم الآخرة أتم وأفضل من نعيم البرزخ، وأن هذا المؤمن قد علّمه الله وهو في البرزخ ما سيؤول إليه من الثواب العظيم والنعيم المقيم.

كما أنّ في قوله هذا أيضا إثباتا لاسمٍ من أسماء يوم القيامة وهو «الساعة» وقد ورد في القرآن الكريم تسميته بذلك في آيات عدة، منها:

قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .(١)

وقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .(٢) وغير ذلك من الآيات.

وقد ورد في السنة أيضا تسمية هذا اليوم العظيم بالساعة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: (

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٧).

(٢) سورة النازعات الآية (٤٢-٤٦).

كان رسول الله ﷺيوم بارزا للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر قال يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال يا رسول الله ما الإحسان ؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإنــك إن لا تراه فإنه يراك قال يا رسول الله متى الساعة ؟ قال ما المسؤول عنها بأعلم مــن الســائل ولكن سأحدثك عن أشرا طها إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها...).(١)

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (إنّ من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبــت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا).(٢)

إلى غير ذلك من الأحاديث التي سمى فيها النبي ﷺ يوم القيامة بالساعة.

والساعة : جزء من أجزاء الزمان، ويعبّر به عن القيامة تشبيها له بذلك، لسرعة الحساب فيه، كما قال :﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ .(٣) أو لسرعة مجيئه كما نبّه تعالى عليه بقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .(٤)

وبقوله: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٥)، (٦).

وقيل: إنما أطلق عليها لأنها على طولها كساعة عند الله.(٧)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم (٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه؛ كتاب التوحيد، باب رفع العلم، برقم (٨٥).

(٣) سورة الأعراف الآية (٦٢).

(٤) سورة النازعات الآية (٤٦).

(٥) سورة الأحقاف الآية (٣٥).

(٦) ينظر مفردات القرآن للراغب الأصبهاني ص (٧٣٤).

(٧) ينظر تفسير البيضاوي (٧٩/١).

المطلب السابع: قول الملائكة للمؤمن:« كان هذا منزلك لو كفرت بربك...».

قد ورد في أحاديث ثابتة أن المؤمن يُرى في قبره- بعد الفتنة والاختبار من الملكين- مقعده من الجنة أو النار، فعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال:

(شهدت مع رسول الله ﷺ جنازة فقال رسول الله ﷺ يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلي في قبورها، فإذا الإنسان دفن فتفرق عنه أصحابه؛ جاءه ملك في يده مطراق، فأقعده: قال ما تقول في هذا الرجل، فإن كان مؤمنا قال أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول صدقت ثم يفتح له باب إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك، فيفتح له باب إلى الجنة؛ فيريد أن ينهض إليه، فيقول له اسكن، ويفسح له في قبره).[١]

وفي حديث أنس ﵁ في البخاري ومسلم

(...فيقال انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعدا من الجنة، قال النبي ﷺ فيراهما جميعا).[٢]

وفي حديث جابر ﵁ (...فيقول له الملك انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار، قد أنجاك الله منه؛ وأبدلك بمقعدِك الذي ترى من النار مقعدَك الذي ترى من الجنة، فيراهما كلاهما...).[٣]

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم (١١٠٠٠)،وابن أبي عاصم في السنة برقم :(٨٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠/٩) برقم (٣٣٩٤)، وينظر تحقيق المسند (٣٤/١٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، برقم (١٣٣٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٧٠).

(٣) رواه أحمد في المسند برقم (١٤٧٢٢)، وهو حديث صحيح؛ ينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله بن عبد المحسن التركي (٦٥/٢٣).

الدلالات العقدية:

اشتمل هذا الخطاب من الملائكة للمؤمن على جملة من الدلالات العقدية، وهي:

الأولى: أنّ الله تعالى جعل لكل إنسان منزلين.

دل قول الملك للمؤمن «كان هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك» على أنّ الله تعالى جعل لكل إنسان منزلين، منزل من الجنة، وآخر من النار؛ وأن هذين المنزلين يُراهما الإنسان في قبره مؤمنا كان أو كافرا؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا له منزلان؛ منزل في الجنة، ومنزل في النار. فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ...).(١)

والحكمة في عرض منزلة كل من المؤمن والكافر عليه ليزداد المؤمن بذلك شكرا لله، ويزداد الكافر حسرة على حسرته.

فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكرا ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة).(٢)

الثانية: إثبات تأثير الأسباب.

إنّ في قول الملك للمؤمن:« كان هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك» دليلا على أنّ للأسباب تأثيرا في مصير الإنسان يوم القيامة، كما أن لها تأثيرا في الدنيا، وأن سبب دخول الجنة هو الإيمان بالله، وسبب دخول النار هو الكفر به تعالى.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة فيها ترتيب الثواب والعقاب على الأسباب،

قال تعالى ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .(٣) «أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم».(٤)

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة،برقم (٤٣٤١). وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٤٣٨/٢) برقم (٣٥٠٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٦٩).

(٣) سورة الأعراف الآية (٤٣).

(٤)تفسير القرآن العظيم (١١٦٦/٢).

وقال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.[١] أي: فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها؛ فسيبكون كثيرا في عذاب أليم، جزاء بما عملوا من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.[٢]

وبالجملة فالقرآن مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب.[٣]

وفي هذا رد على الجهمية الذين أنكروا تأثير الأسباب؛ وقالوا: إن الله لم يخلق شيئا بسبب وليست الطاعات والتوحيد سببا لدخول الجنة والنجاة من النار، ولا الشرك والكفر والمعاصي سببا لدخول النار، بل يدخل هؤلاء الجنة بمحض مشيئته من غير سبب، ويدخل هؤلاء النار بمحض مشيئته من غير سبب.[٤]

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فالسلف والأئمة متفقون على إثبات الأسباب والحِكَم خلقا وأمرا».[٥]

ويقول ابن ا لقيم رحمه الله تعالى: « ... فمنع الأسباب أن تكون أسبابا قدح في العقل والشرع، وإثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسبِّبها قدح في التوحيد والتوكل، والقيام بها وتنزيلها منازلها والنظر إلى مسببها وتعلق القلب به جمع بين الأمر والتوحيد، وبين الشرع والقدر، وهو الكمال ».[٦]

الثالثة: بيان أهمية الأعمال والحث على الاعتناء بها.

إنّ في قول الملك للمؤمن:« كان هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك» إثباتا بأنّ هذا المؤمن إنما نال ما ناله من السعادة بعد فضل الله تعالى بإيمانه، وقيامه بما أوجبه الله تعالى عليه من الطاعات، واجتناب المحرمات، وفي ذلك تنويها بشأن

---

(١) سورة التوبة الآية (٨٢).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٣٢٣).

(٣) مدارج السالكين (٣/٤٨٩).

(٤) ينظر مدارج السالكين (٣/٤٩٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/٤٨٥).

(٦) طريق الهجرتين ص (٤٦٦).

الأعمال، وبيانا لأهميتها، وأنّ السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة إنما يربطه الله تعالى بما يقوم به العبد من الأعمال، ولذا يقرن الله تعالى كثيرا في القرآن بين الجزاء والعمل؛ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .(١)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ .(٢)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ .(٣)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .(٤)

﴾ .(٤)

فهذا أصل يجب أن يعرف؛ فالمدح والذمّ والثواب والعقاب إنما يترتب على الإيمان والعمل الصالح، أو على ضدّ ذلك من الكفر والفسوق والعصيان.(٥)

ولهذا تواردت النصوص من الكتاب والسنة في التنويه بشأن الأعمال الصالحة، والدعوة إليها، ومدح المسارعين إليها، والمتنافسين فيها، كما في قوله تعالى عن الأنبياء عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .(٦) أي: إنهم كانوا يبادرون إلى الخيرات، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكمّلونها ويكمّلونها

---

(١) سورة البقرة الآية (٦٢).

(٢) سورة البقرة الآية (١٥٩-١٦٢).

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٤-١٧٥).

(٤) سورة البقرة الآية (٢١٨).

(٥) ينظر مجموع الفتاوى (١٤٤/٢٧).

(٦) سورة الأنبياء الآية (٩٠).

على الوجه اللائق الذي ينبغي،ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزا الفرصة فيها.[١]

بل جعل الله سبحانه وتعالى الأعمال الصالحة الميزان الذي يتفاضل بها الناس، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [٢].

ففي هذه الآية إخبار للناس بأنه تعالى خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوبا والقبائل؛ وأنّ جميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء؛ وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ لا بالأحساب.[٣]

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (...ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه).[٤]

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «معناه من كان عمله ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال؛ فينبغي أن لا يتّكل على شرف النسب، وفضيلة الآباء، ويقصّر في العمل».[٥]

فمن أخّره عمله السيئ، وتفريطه في العمل الصالح، لم ينفعه في الآخرة شرف النسب؛ إذ لا يحصل التقرب إلى الله تعالى بالنسب بل بالأعمال الصالحة.[٦]

وروى الإمام مالك أنّ أبا الدرداء[٧]ﷺ كتب إلى سلمان الفارسي[١]ﷺ أنْ هلم إلى الأرض المقدّسة؛ فكتب إليه سلمان ﷺ أنّ الأرض لا تقدس أحدا؛ وإنما يقدس الإنسان عمله.[٢]

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٥٠٢).

(٢) سورة الحجرات الآية (١٣).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤/٢٦٩٧-٢٦٩٨).

(٤) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه، برقم (٢٦٩٩).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٧/٢٢-٢٣).

(٦) ينظر عون المعبود (١٠/٥٤)، وتحفة الأحوذي (٨/٢١٦).

(٧) أبو الدرداء هو عويمر بن قيس بن زيد، وقيل : عويمر بن ثعلبة بن عامر بن زيد بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، وهو مشهور بكنيته، شهد أحدا وما بعدها من المشاهد، وكان أحد الحكماء العلماء والفضلاء؛ مات بعد صِفّين سنة ٣٨ وقيل ٣٩هـ . وقيل: إنه توفي قبل ذلك في خلافة عثمان ﷺ ينظر الاستيعاب (١/٣٨٠-٣٨١).

(١) سبقت ترجمته.ص (٨٤).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢/٧٦٩)، برقم (١٤٥٩).

الرابعة:أنّ الجنة والنار مخلوقتان.

إنّ مما تضمنه قول الملك «كان هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك». أيضا إثبات أن كلاًّ من الجنة والنار مخلوقة مهيأة، حيث إن الملَك أشار إليهما بقوله« هذا منزلك» والإشارة تكون إلى الشيء الموجود.

ويزيد هذا القول جلاءً ما جاء في الروايات الأخرى: (...فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار، قد أنجاك الله منه؛ وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراهما كلاهما...).[(١)] حيث أشار إليهما في الرواية الأولى، وأمر الميت بالنظر إليهما في الرواية الثانية هذه، وما كان الملَكُ ليأمر الميت في قبره بالنظر إلى شيء لم يوجد و لم يخلق بعد، وقد سبق في حديث أبي هريرة بيان أنّ الحكمة في كون كل ميّت يرى مقعده من الجنة أو النار ليزداد السعداء شكرا لله على ما أنجاهم من النار، ويزداد الأشقياء حسرة على ما فاتهم من النعيم؛ وهذا مما يؤكّد أن كلا من المؤمن والكافر رأى مكانه من الدارين، وأن كلا من الدارين موجودة؛ إذ لو لم تخلقا بعد لم يتأت رؤيتهما، ولانتفى الحكمة المذكورة في الرؤية.

وقد سبق إيراد الأدلة على خلق الجنة ووجودها الآن بما يغني عن الإعادة.[(٢)]

أمّا النار فقد دلت نصوص من الكتاب والسنة على خلقها ووجودها الآن؛ أمّا ما يدل على ذلك من الكتاب فمنها:

- قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾.[(٣)] والإعداد يعني: الإرصاد، والتهيئة.[(٤)]وقد ورد بصيغة الماضي مما يدل على أنّ المعد قد دخل في حيز الوجود.[(٥)]

---

(١) سبق تخريجه ص (١١١).

(٢) ينظر ص (٥٨)

(٣) سورة البقرة الآية (٢٤).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير(٦٢/١)، شرح لمعة الاعتقاد ص:(١٥٢).

(٥) ينظر:التفسير الكبير للفخر الرازي(٤/٩).و يقظة أولي الاعتبار ص:(٣٨).

وقوله تعالى عن آل فرعـــون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾.[١]، .[٢]

ومن السنة ما روى ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلّى؛ قالوا يا رسول الله؛ رأيناك تناول شيئا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت؟ قال: إني أريت الجنة فتناولت منها عنقودا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا...).[٣]

---

(١) سورة غافر الآية (٤٦).

(٢) ينظر أصول السنة لابن أبي زمنين ص (١٣٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، برقم (٧٤٨).

المطلب التاسع: مخاطبات المؤمنين بعضهم لبعض في البرزخ.

إنّ من الأقوال التي ثبتت في السنة أنها تصدر من أهل الإيمان في البرزخ مخاطبة أرواح المؤمنين ببعضها لبعض، فقد روى النسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:(إذا حُضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح الله وريحان، وربٍّ غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضا، حتى يأتون به باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين؛ فلهم أشدّ فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه ماذا فعل فلان ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غم الدنيا؛ فإذا قال أما أتاكم؟! قالوا ذُهب به إلى أمّه الهاوية).(١)

الشرح.

قوله ﷺ « إذا حُضر المؤمن » على بناء المفعول أي: حضره الموت . والخطاب من قوله:« اخرجي »للنفس؛ فيستقيم هذا الخطاب مع عموم المؤمن للذكر والأنثى.

وقوله ﷺ:« إلى رَوح الله » بفتح الراء أي: إلى رحمته.

وقوله ﷺ « وريحان »: أي: طيب كأطيب ريح المسك، وقيل صفة مصدر أي: خروجا كخروج أطيب ريح المسك.

قوله ﷺ « ماذا فعل فلان »أي: ما شأنه وحاله.

قوله ﷺ « فإذا قال أما أتاكم » أي: إذا قال في الجواب إنه مات أما أتاكم.

قوله ﷺ« ذُهب به إلى أمه الهاوية » على بناء المفعول أي: أنه لم يلحق بنا فقد ذهب به إلى النار. (٢)

وقال أبو هريرة ﷺ يرفعه (إنّ المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيودّ لو خرجت -يعني نفسه- والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين

---

(١) رواه النسائي في سننه، كتاب الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه، برقم (١٨٣٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٣/٣)برقم (١٣٠٩).

(٢) ينظر حاشية السندي على النسائي (٤/٨-٩).

فيستخبرونه عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال : تركت فلانا في الدنيا أعجبهم ذلك وإذا قال : إن فلانا قد مات قالوا: ما جيء به إلينا...).[١]

الدلالات العقدية.

قد اشتمل سؤال موتى المؤمنين لهذه الروح التي قدمت إليهم عن أهل الدنيا على جملة من الدلالات العقدية؛ وهي كالتالي:

الأولى: أنّ الموتى لا يعلمون بأحوال أهل الدنيا، كما أنّ أهل الدنيا لا يعلمون بأحوالهم.

إنّ في تساؤل هؤلاء الموتى عن أخبار معارفهم في الدنيا لدليلا على أنّ الدنيا غيب على أهل البرزخ، فلا يعلمون ما يجري على أهل هذه الدار بعد موهم وانتقالهم منها، ولذلك يجتمعون على روح الميت القادم إليهم حديثا يستخبرونها، ويسألونها عن أحوال من تركوهم في الدنيا، وقد سبق ذكر الأدلة على انقطاع الأخبار بين الأحياء والأموات بما أغنى عن الإعادة.

وفي هذا رد على بعض الصوفية الذين زعموا أنّ الأولياء يعلمون ما في الكون أحياء وأمواتا، ويسمعون ممن يستغيث بهم، ويغيثونه، ومن هذا المنطلق أكثروا في كتبهم أمر المريدين بالاستغاثة بالأولياء أمواتا وأمواتا متى ضاقت أمورهم ، وساءت أحوالهم، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره أبو الهدى الرفاعي[٢]مرشدا إلى الاستغاثة بأحمد الرفاعي[٣]: «

---

(١) رواه البزار (٤١٤/١)، برقم (٨٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٠/٦) برقم (٢٦٢٨).

(٢) أبو الهدى الرفاعي هو محمد بن حسن وادي بن علي حزام الصيادي الرفاعي الحسني الصوفي، كانت له الكلمة العليا عند السلطان عبد الحميد في تنصيب القضاة والمفتين، من كتبه « فرحة الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب» مات سنة ١٣٢٨هـ ينظر الأعلام (٩٤/٦).

(٣) أحمد الرفاعي هو أبو العباس أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسني، مؤسس الطريقة الرفاعية الصوفية، يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح-بين واسط والبصرة- ذكر النبهاني أنه أحد الأقطاب الأربعة، وذكر له خوارق وكرامات، مات سنة ٥٨٧هـ. ينظر كرامات الأولياء (٤٩٠/١-٤٩٥)، والأعلام (١٧٤/١).

من ضاق حاله لهمة أو لحاجة، أو عسر عليه مقصد، أو كان في سجن، أو بغى عليه ظالم، فليتوضأ ويصلي ركعتين، ويصلي على النبي مائة مرة، ويكون هذا في بيت خال، ويقرأ سورة الفاتحة، ويتوجّه قاصدا للشرق، نحو فلاة أم عبيدة مرقد الغوث الحسني...أحمد الرفاعي، وينادي بالاعتقاد والانكسار، يا وسيلة الطالبين، يا كعبة الطائفين، يا غوث يا غوث؛ ...يا قطب الأقطاب المتصرفين، يا صاحب التصرف في الحياة والممات،...أغثني، توجّهْ لجدك خير الأنام، وقوموا بقضاء حاجتي،... أدركني يا أحمد الأولياء رضي الله عنك؛ أغثني ».(١)

الثانية: أنّ أرواح المؤمنين تتلاقى في البرزخ.

دل اجتماع أرواح المؤمنين في البرزخ على روح هذا المؤمن تسألها أنّ أرواح أهل الإيمان تتقابل في البرزخ وتتلاقى هناك، وأن كلّ من مات من المؤمنين التحقت روحه بأرواحهم، واجتمعت بهم هناك؛ وذلك مستفاد من قولهم:«ما جيء به إلينا».ومما استُدِل به على تلاقي أرواح المؤمنين في البرزخ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .(٢)

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: « وهذا يدل على تلاقيهم من ثلاثة أوجه:

أحدهما: أنهم عند ربهم يرزقون، وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون.

الثاني: أنهم إنما استبشروا بإخوانهم لقدومهم ولقائهم لهم.

الثالث: أن لفظ (يستبشرون) يفيد في اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضا مثل (يتباشرون) ».(٣) وقال أيضا رحمه الله تعالى: « المسألة الثانية: وهى أن أرواح الموتى هل تتلاقى، وتتزاور وتتذاكر أم لا ؟وهي أيضا مسألة شريفة،كبيرة القدر، وجوابها:

---

(١)قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر لمحمد بن الهدى أفندي الرفاعي ص(٢٣٧).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٦٩-١٧١).

(٣) الروح لابن القيم ص (١٨).

أن الأرواح قسمان: أرواح معذّبة، وأرواح منعّمة، فالمعذّبة في شغل بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي، والأرواح المنعّمة المرسلة غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا، وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها».(١)

الثالثة: أنّ لكلٍّ من أرواح أهل الإيمان وأرواح الكفار مستقرّا خاصّا في البرزخ.

إنّ قول الموتى من أهل الإيمان في البرزخ للميت المؤمن الذي قدم إليهم روحه: «ما جيء به إلينا» يفيد أيضا أنّ لكل من أرواح الكفّار وأرواح المؤمنين مستقرّا خاصّا في البرزخ، إذ لو كان مستقر الأرواح مكانا واحدا لَجِيءَ بهذا الذي أُخبِروا أنه مات إليهم، ولمّا لم يؤت به إليهم دل ذلك أنه في مستقر آخر غير مستقر المؤمنين.

وقد اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة إلى عدة أقوال:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه الروح:

« المسالة الخامسة عشرة: وهي أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى القيامة؟ هل هي في السماء أم في الأرض؟ وهل هي في الجنة أم لا؟ وهل تودع في أجساد غير أجسادها التي كانت فيها فتنعم وتعذب فيها؟ أم تكون مجردة؟

هذه مسالة عظيمة تكلّم فيها الناس، واختلفوا فيها، وهي إنما تتلقى من السمع فقط».(٢)

فقيل: أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار.(٣)

وقيل: إنّ أرواح المؤمنين بفناء الجنة، على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

---

(١) المصدر نفسه ص (١٧).

(٢) الروح ص (٩٠).

(٣) قال ابن القيم رحمه الله:« فأمّا من قال هي في الجنة فاحتجّ بقوله تعالى﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ قالوا وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت، وقسّم الأرواح إلى ثلاثة أقسام: مقربين وأخبر أنها في جنة النعيم، وأصحاب يمين حكم لها بالإسلام وهو يتضمن سلامتها من العذاب، ومكذبة ضالة وأخبر أن لها نزلا من حميم وتصلية جحيم، قالوا وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعا » الروح ص (٩٣).

وقيل: إنها على أفنية قبورهم.(١)

وقيل: إنّ الأرواح بعد الموت مرسلة تذهب حيث شاءت.

وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله عز وجل و لم يزيدوا على ذلك.(٢)

وقيل:إنّ أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت.(٣)

وقيل: أرواح المؤمنين في علّيين في السّماء السابعة، وأرواح الكافرين في سجّين في الأرض

---

(١) ذهب إلى هذا ابن عبد البر رحمه الله، وقال: « وهو أصح ما ذُهب إليه في ذلك من طريق الآثار لأنّ الأحاديث الدالة على ذلك ثابتة متواترة » التمهيد (١٤/١٠٩). وقال ابن القيم رحمه الله :« وأما قول من قال: الأرواح على أفنية قبورها، فان أراد أن هذا أمر لازم لها لا تفارق أفنية القبور أبدا فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة، من وجوه كثيرة ...وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتا، أولها إشراف على قبورها وهي في مقرها فهذا حق ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور » الروح ص (١٠٠).

(٢) قال ابن القيم رحمه الله:« وأما قول من قال: أرواح المؤمنين عند الله تعالى، و لم يزد على ذلك؛ فإنه تأدّب مع لفظ القرآن حيث يقول الله عز وجل﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾... وهذا القول لا ينافي قول من قال: هم في الجنة، فإن الجنة عند سدرة المنتهى، والجنة عند الله، وكأنّ قائله رأى أنّ هذه العبارة أسلم وأوفق » الروح ص (١٠٤-١٠٦).

(٣) قال ابن حزم رحمه الله: «ذهب قوم من الروافض إلى أنّ أرواح الكفّار ببرهوت وهو بئر بحضرموت، وأن أرواح المؤمنين بموضع آخر أظنه الجابية، وهذا قول فاسد لأنّه لا دليل عليه أصلا، وما لا دليل عليه فهو ساقط، ولا يعجز أحد عن أن يدّعي للأرواح مكانا آخر غير ما ادعاه هؤلاء، وما كان هكذا فلا يدين به إلاّ مخذول» الفصل في الملل(٤/٥٧). وقال ابن القيم رحمه الله :« وأمّا قول من قال إنّ أرواح المؤمنين بالجابية، وأرواح الكفّار بحضرموت ببرهوت؛ فقال أبو محمد بن حزم هذا من قول الرافضة، وليس كما قال، بل قد قاله جماعة من أهل السنة» وذكر منهم عبد الله بن عمرو. الروح ص (١٠٦).ثم قال رحمه الله:« فإن أراد عبد الله بن عمرو بالجابية التمثيل والتشبيه، وأنها تجمع في مكان فسيح يشبه الجابيه لسعته وطيب هوائه، فهذا قريب، وإن أراد نفس الجابية دون سائر الأرض فهذا لا يعلم إلا بالتوقيف، ولعله مما تلقّاه عن بعض أهل الكتاب» الروح (١٠٧).

السابعة تحت خد إبليس.(١)

وقيل : أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكافرين ببئر برهوت.(٢)

وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفّار عن شماله.(٣)

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى بعد ذكر هذا القول: أمّا قول من قال إنّ أرواح المؤمنين في علّيين في السماء السابعة، وأرواح الكفّار في سجّين في الأرض السابعة، فهذا قول قد قاله جماعة من السلف والخلف ويدل عليه قول النبي ﷺ إنّ الميت إذا خرجت روحه عُرِج بها إلى السماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة التي فيها الله عز وجل... ولكن هذا لا يدل على استقرارها هناك؛ بل يُصعد بها إلى هناك للعرض على ربها، فيقضي فيها أمره، ويكتب كتابه من أهل عليين أو من أهل سجين، ثم تعود إلى القبر للمسألة، ثم ترجع إلى مقرّها التي أودعت فيه، فأرواح المؤمنين في عليين بحسب منازلهم؛ وأرواح الكفار في سجين بحسب منازلهم. ينظرالروح ص (١٠٧)، بتصرف.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله:« وأمّا قول من قال إن أرواح المؤمنين تجتمع ببئر زمزم فلا دليل على هذا القول من كتاب ولا سنة يجب التسليم لها ولا قول صاحب يوثق به، وليس بصحيح فإنّ تلك البئر لا تسع أرواح المؤمنين جميعهم، وهو مخالف لما ثبت به السنة الصريحة من أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة.وبالجملة فهذا من أبطل الأقوال وأفسدها. وهو أفسد من قول من قال أنها بالجابية فإن ذلك مكان متسع فضاء بخلاف البئر الضيقة » الروح ص (١٠٨).

(٣) قال ابن القيم عند ذكر هذا القول:« وأمّا قول من قال إنّ أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن يساره فلعَمر الله لقد قال قولا يؤيّده الحديث الصحيح؛ وهو حديث الإسراء، فإنّ النبي ﷺ رآهم كذلك، ولكن لا يدل على تعادلهم في اليمين والشمال، بل يكون هؤلاء عن يمينه في العلوّ والسعة، وهؤلاء عن يساره في السفل والسجن» المصدر نفسه (١٠٨). ثم قال رحمه الله: فإن قيل فإذا كانت أرواح أهل السعاده عن يمين آدم، وآدم في السماء الدنيا، وقد ثبت أنّ أرواح الشهداء في ظل العرش، والعرش فوق السماء السابعة فكيف تكون عن يمينه وكيف يراها النبي ﷺهناك في السماء الدنيا؟ فالجواب من وجوه؛ أحدها: أنه لا يمتنع كونها عن يمينه في جهة العلوّ كما كانت أرواح الأشقياء عن يساره في جهة السفل.الثاني: أنه غير ممتنع أن تعرض على النبي ﷺ في سماء الدنيا وإن كان مستقرها فوق ذلك. الثالث: أنه ﷺ لم يخبر أنه رأى أرواح السعداء وأرواح الأشقياء جميعا، فقد يكون ﷺ رأى هناك بعض الأرواح لا كلها. والله أعلم.

وقيل: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.(١)

وقيل:مستقرها العدم المحض.(٢)

وقيل: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها.(٣)،(٤).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى بعد ما ذكر أقوال الناس واختلافهم في مستقر الأرواح بعد مفارقتها الأبدان؛ قال بعد ذلك:«فإن قيل فقد ذكرتم أقوال الناس في مستقر الأرواح ومأخذهم؛ فما هو الراجح من هذه الأقوال حتى نعتقده؟

قيل: الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت؛ فمنها أرواح في أعلى علّيين في الملإ الأعلى؛ وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء.ومنها أرواح في حواصل طير تسرح في الجنة حيث شاءت؛ وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم.(٥)

---

(١) هذا قول ابن حزم رحمه الله في هذه المسألة. ينظر الفصل:(٥٨/٤).ولا دليل عليه.ينظر الروح ص (١٠٩).

(٢) قال ابن أبي العز رحمه الله معلقا على هذا القول:« وهذا قول من يقول: إن النفس عَـرَضٌ من أعراض البدن، كحياته وإدراكه. وقولهم مخالف للكتاب والسنة» شرح الطحاويةص (٥٨٤). وقال ابن القيم رحمه الله: وهذا قول من قال إنها عرض من أعراض البدن وهو كالحياة وسائر أعراض الجسم؛ وهو قول ابن الباقلابي، وكذلك قال أبو الهذيل العلاف. وهؤلاء عندهم أنّ الجسم إذا مات عدمت روحه كما تعدم سائر أعراضه المشروطة بالحياة؛ فإذا مات الإنسان فلا روح تصعد إلى السماء وتعود إلى القبر، وتقبضها الملائكة، ويستفتحون لها أبواب السماوات، ولا تنعّم ولا تعذّب؛ وإنما ينعّم ويعذّب الجسد؛ إذا شاء الله تنعيمه أو تعذيبه ردّ إليه الحياة في وقت يريد نعيمه أو عذابه، وإلاّ فلا أرواح هناك قائمة بنفسها البتة. ثم قال رحمه الله: وهذا قول يردّه الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة، وأدلة العقول والفطر؛ وهو قول من لم يعرف روحه فضلا عن روح غيره. ينظر الروح ص (١١٠-١١١) بتصرف.

(٣) قال ابن أبي العز رحمه الله معلّقا على هذا القول:« وهذا قول التناسخية منكري المعاد، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلّهم » شرح الطحاوية ص (٥٨٤).

(٤) ينظر الفصل (٥٧/٤-٥٩)، والروح ص (٩٠-٩٣)، وشرح الطحاوية ص (٥٨٢-٥٨٤).

(٥) يدل على هذا ما رواه الترمذي عن ابن مسعود ﷺ : أنه سئل عن قوله:﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فقال:(أمّا إنا قد سألنا عن ذلك، فأُخبِرنا أن أرواحهم في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت...).

بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره، كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أنّ رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله مالي إن قتلت في سبيل الله قال الجنة؛ فلما ولّى قال إلاّ الدين؛ سارّني به جبريل آنفا.(١)

ومنهم من يكون محبوسا على باب الجنة كما في الحديث الآخر رأيت صاحبكم محبوسا على باب الجنة.(٢)

ومنهم من يكون محبوسا في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم استشهد فقال الناس هنيئا له الجنة فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده إنّ الشملة التي غلها لتشتعل عليه نارا في قبره.(٣)

ومنهم من يكون مقرّه باب الجنة؛ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه الشهداء :على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية... ومنهم من يكون محبوسا في الأرض، لم يعل روحه إلى الملأ الأعلى، فإنها كانت روحا سفلية أرضية، فإنّ الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية، كما لا تجامعها في الدنيا، والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والأنس به والتقرّب إليه بل هي أرضية سفلية لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلاّ هناك، كما أنّ النفس العلويّة التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والقرب إليه والأنس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها؛ فالمرء مع من أحبّ في البرزخ ويوم القيامة، والله تعالى يزوّج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد... فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخواتها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك.

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم (١٧٢٥٣)، وهو صحيح. ينظر تحقيق المسند (٢٨/٤٩٢).

(٢) رواه أحمد في المسند برقم (٢٠١٥٧)؛بفلظ (إنّ صاحبكم قد حبس على باب الجنة بدين كان عليه)، وهو صحيح؛ ينظر تحقيق المسند (٣٣/٣٢٩).

(٣) هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، برقم (٤٢٣٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلاّ المؤمنون، برقم (١١٥).

ومنها أرواح تكون في تنور الزناة، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة؛ فليس للأرواح سعيدها وشقيّها مستقر واحد، بل روح في أعلى عليين، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض.

وأنت إذا تأمّلت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء، عرفت حجة ذلك، ولا تظن أنّ بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضا فإنها كلّها حق يصدّق بعضها بعضا، لكن الشأن في فهمها، ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأنا غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالا، وصعودا وهبوطا، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم، والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة، والنعيم والإطلاق». [١]

(١) الروح ص (١١٥-١١٦).

الرابعة: إثبات عذاب البرزخ.

ومّما تضمّنه مخاطبة أهل الإيمان بعضهم لبعض في البرزخ أيضا إثبات نعيم البرزخ وعذابه، أما إثبات النعيم فمستفاد من قول بعضهم لبعض :«دعوه فإنه كان في غم الـــدنيا»، وفي رواية: (...دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم...).(١) وهذا يُفهم أنهم في نعيم وراحـــة هناك، وأنّ هذه الروح التي قدمت إليهم كان في غموم وهموم، وأنها بالتحاقها بهم ينتهي غمّه.وقد سبق ذكر بعض الأدلة على إثبات نعيم البرزخ.

أما إثبات العذاب فمستفاد من قولهم:«ذُهب به إلى أمّه الهاوية»، أي: أنه لم يلحق بنا فقد ذُهب به إلى النّار.(٢) وقد دل على عذاب البرزخ جملة من الأدلة، منها:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .(٣) فقول الملائكة ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ دليل واضح على إثبات عذاب البرزخ، إذ لو تأخّر عنهم العذاب إلى انقضاء الدنيا وقيـــام الآخرة لـــمّا صحّ أن يقال لهم: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ .(٤) ومنها قوله تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٥) أي: أنهم في البرزخ يعرضون على النار صباحا ومساء ما بقيت الدنيا.(٦) ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب ألما، وأعظمـــه نكالا،وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور.(٧)

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٨٤/٧) برقم (٧٣٣)، وصححه الألباني في صـــحيح الترغيـــب والترهيب (٢١٩/٣) برقم (٣٥٥٩).

(٢) ينظر حاشية السندي على النسائي (٤/ ٩)

(٣) سورة الأنعام الآية (٩٣).

(٤) ينظر كتاب الروح ص (١٣٢).

(٥) سورة غافر الآية (٤٥-٤٦).

(٦) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٥٢٦/٤)، وتيسير الكريم الرحمن ص:(٧٠٥).

(٧) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٥٢٦/٤)، وينظر للاستزادة من الأدلة شرح العقيدة الطحاوية ص (٥٧٢)، ومعارج القبول (٧١٧/٢- ٧١٩).

المطلب العاشر: قول الملائكة للمؤمن« نم كنومة العروس».

هذا الخطاب ممّا تخاطب به الملائكة المؤمن في البرزخ بعد فتنته بالأسئلة.

فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :(إذا قـبر الميـت أو قـال: أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان؛ يقال لأحدهما المنكر، والآخر الـنكير، فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول؛ هـو عبـد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقولان قد كنـا نعلم أنك تقول هذا؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له نم، فيقول: ارجع إلى أهلي فأخبرهم ؟ فيقـولان:نم كنومـة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حـتى يبعثـه الله مـن مضـجعه ذلك). (١)

الشرح.

قوله ﷺ:« إذا قُبر الميت »أي: إذا أُدخل في القبر.

وقوله ﷺ «أتاه ملكان أسودان أزرقان»: أي أزرقان أعينهما.

وقوله ﷺ «يقال لأحدهما المنكر، وللآخر النكير» فهما كلاهما ضد المعروف؛ سميا بهمـا لأنّ الميت لم يعرفهما، ولم ير صورة مثل صورتهما.

وقوله ﷺ «فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل » عُبِّر بذلك امتحانا لئلا يتلقن تعظـيم النبي ﷺ عن عبارة الملك.

وقوله: « فيقول ما كان يقول » أي: قبل الموت.

وقوله ﷺ:«قد كنا نعلم أنك تقول هذا» أي: الإقرار بالوحدانية والرسالة.وعلمهما بذلك إما بإخبار الله تعالى إياهما بذلك، أو بمشاهدتهما في جبينه أثر السعادة.

وقوله ﷺ:« ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين »أي: يوسّع له فيه.

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، برقم (١٠٧١)، وصـححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١١/١) برقم (٨٥٦).

وقوله ﷺ:«فيقول أرجع إلى أهلي فأخبرهم » أي: بأنّ حالي طيب، ولا حزن لي، ليفرحوا بذلك.

وقوله ﷺ: « كنومة العروس » العروس: يطلق على الذكر والأنثى في أول اجتماعهمـــا، وقد يقال للذكر العريس.

وقوله ﷺ:« الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه » عبارة عن عزّته وتعظيمه عنـــد أهلـــه؛ حيث يأتيه غداة ليلة زفافه مَن هو أحبّهم إليه فيوقظه على الرفق واللطف.

قوله ﷺ «حتى يبعثه الله » هذا ليس من مقول الملكين؛ بل من كلامه ﷺ أي: ينام طيب العيش حتى يبعثه الله.[1]

الدلالات العقدية.

قد تضمن قول الملكين لهذا المؤمن« نم كنومة العروس» على ما يلي من الدلالات:

الأولى:إثبات نعيم القبر.

إنّ في قول الملكين لهذا المؤمن« نم كنومة العروس» دلالة على نعيم البرزخ، حيث أمـــراه بنوم شبّهاه بنومة العروس، وما ذلك إلا لأنه يكون في طيب العيش هناك.[2]

وقد مرّ ذكر بعض الأدلة على ذلك.كما أنّ في قولهما «نم...» أيضا دلالة على الحيـــاة البرزخية؛ وأنّ هذا النعيم على الروح والبدن، إذ إن الروح لا تفارق البدن حالـــة النـــوم مفارقة كلية، بل يبقى لها تعلّق به من وجه وإن فارقته من وجه آخر.[3]

الثانية: أنّ المؤمن لا يفزع يوم البعث.

قد تضمن قول الملكين للمؤمن « نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليـــه» على إثبات البعث حيث إنهما أثبتا له الاستيقاظ، كما يتضمن نفي الفزع والخوف عـــن المؤمن يوم البعث، حيث شبّها استيقاظه باستيقاظ من يوقظه أحبُّ أهله إليه، وأعطفهـــم عليه، فيوقظه على الرفق واللطف؛ مما يدل على أنّ المؤمن يبعث آمنا مطمئنا.

---

(١) ينظر تحفة الأحوذي (٤/١٥٥-١٥٦). وعمدة القاري (٨ /١٤٤). والتذكرة (١/٣٨٤).

(٢) ينظر تحفة الأحوذي (٤/١٥٦).

(٣) ينظر شرح العقيدة الطحاوية (٥٧٨).

وقد دلت نصوص أخرى على انتفاء الفزع عن أهل الإيمان في ذلك اليوم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١) أي: أنّ من سبقت لهم السعادة في علم الله، فتيسر لهم الأعمال الصالحة مبعدون عن النار غاية البعد، فلا يسمعون حركة النار ولا حركة أهلها، ولا يحزنهم الفزع الأكبر الذي يحصل حين النفخ في الصور النفخة الآخرة؛حيث تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور يبشرونهم بالفرح والسرور والأمن من المخاوف.(٢)

وقال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .(٣)

قال ابن كثير رحمه الله: « يخبر تعالى أنّ أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم ربهم؛ فكل من كان تقيا كان لله وليا؛﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾على ما وراءهم في الدنيا».(٤)

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠١-١٠٣).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٩/٩٣)، وتفسير القرطبي(١١/٣٠٢)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٥٠٣-٥٠٤)، وفتح القدير (٣/٦١٣).

(٣) سورة يونس الآية (٦٢-٦٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/١٤٣٨).

المطلب الحادي عشر: قول المؤمن لعمله « من أنت فوجهك الذي يجيء بالخير».

ثبت أن من الأقوال التي تجري لأهل الإيمان في البرزخ مخاطبتهم لأعمالهم؛ ففي حديث البراء أنّ النبي ﷺ قال عن المؤمن :(...ويُفسح له في قبره مدّ بصره؛ قال ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرّك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير؛ فيقول أنا عملك الصالح...).(١)

الدلالات العقدية.

تضمن قول المؤمن لعمله مخاطبا إياه « من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير...» من الدلالات العقدية ما يلي:

الأولى: إثبات نعيم البرزخ، وأن ذلك يكون بعد فضل الله بالأعمال الصالحة.

دل قول هذا المؤمن لعمله« من أنت فوجهك الوجه يجئ بالخير...» على إثبات النعيم في البرزخ، وأنّ القيام بالأعمال الصالحة من أهم أسباب الحصول على ذلك النعيم، فهذا المؤمن لما قام بالطاعات، وعَمِل الحسنات في حياته، جاءته هذه الأعمال حين لم يكن صاحب ولا أنيس، على أحسن صورة وأطيب ريح، تبشره بالسرور، بل جاء في حديث آخر أن ما قام به العبد من الأعمال من صلاة وصيام وزكاة وغيرها تأتيه قبل ما يصل إليه الملكان تدافع عنه. فقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال :

(إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه؛ فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قِبَلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام : ما قِبَلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قِبَلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس : ما قبلي مدخل...).(٢)

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم (١٨٥٣٤)، وإسناده صحيح، ينظر تحيق المسند (٥٠٣/٣٠).

(٢) صحيح ابن حبان (٣٨٠/٧).برقم (٣١١٣)، والحاكم في المستدرك(٥٣٥/١) برقم (١٤٠٣) وقال، هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٩/٣)،برقم (٣٥٦١).

بل ثبت أن الأعمال تكون مع صاحبها قبل كل ذلك حيث إنها تتبع جنازته مع المشيّعين فقد ثبت في الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال (يتبع الميت ثلاثة؛ فيرجع اثنان ويبقى واحد؛ يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله).[١] وفي هذا كله دلالة على أهمية الأعمال، وعلى ملازمتها لصاحبها خيرا كانت أو شرا، وعلى تعلق السعادة بها بعد فضل الله في الدنيا والآخرة؛ ممّا يحض على الاهتمام بها، والحرص على القيام بالصالح منها؛ والبعد عن السيء منها.

الثانية: إثبات قدرته تعالى على ما يشاء.

اشتمل خطاب المؤمن لعمله الصالح الذي مثّله الله له على هذه الصورة على بيان عظمة قدرة الله تعالى، وكمال حكمته، حيث شاءه تعالى أن يقلب أعمال هذا العبد المؤمن- وهي أعراض- جسما يخاطب صاحبها، ويبشّره ويطمئنه، ويسمع منه ويجاوبه.

وقد ثبت في النصوص أنّ الله تعالى يمثّل كثيرا من هذه الأعمال أجساما يوم القيامة، منها: ما ورد في إثبات الثقل والخفة لأعمال المكلّفين وأقوالهم. قال تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .[٢] قال الأكثرون: المراد به وزن الأعمال بالميزان يوم القيامة.[٣] ومنها: ما ثبت في السنة من مجيء القرآن لصاحبه على صورة الرجل الشاحب يبشره.[٤] ومنها: ما ثبت من ذبح الموت بعد جعله على هيئة كبش أملح.[٥]

وغير ذلك من الأعراض التي ثبت في النصوص تحويلها إلى أجسام تُشاهَد يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب سكرات الموت،برقم (٦٥١٤). ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٠).

(٢) سورة الأعراف الآية (٨).

(٣) ينظر معالم التنزيل للبغوي (١٢٤/٢).

(٤) سبق تخريج هذا الحديث المشار إليه ص (١٠١).

(٥) ثبت هذا عند البخاري. ينظر صحيح البخاري،كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ برقم (٤٧٣٠).

المطلب الثاني عشر: الرد على العقائد الفاسدة في الملائكة.

إنّ فيما سبق من المطالب من ذكر فتنة الملائكة لأهل البرزخ، وما ثبت من مخاطباتهم لهم من أسئلة وتبشير؛ وما ثبت من مخاطبات أهل الإيمان لهم في البرزخ مخاطبة من يرى مخاطِبَه ويسمع منه، في كل ذلك رد على من أنكروا وجود الملائكة من الباطنية، ومن ضاهاهم من ملاحدة المتكلمة والمتصوفة الذين يتأولون ما ورد في إثبات الملائكة على دعاتهم إلى بدعتهم، أو على غير ذلك من التأويلات الباطلة.[١]

كما يتضمن ردا على الجهمية الذين أنكروا السؤال في القبر والملكين الموكّلين به.[٢]

والنصوص الواردة من الكتاب والسنة في إثبات وجود الملائكة، وذكر أعمالهم وكلامهم وبيان وظائفهم، وأوصافهم أكثر من أن تحصر وتحصى، وليس عند منكريها إلاّ مجرّد تخرّصات.

---

(١) ينظر الفرق بين الفرق (٢٧٩) ومجموع الفتاوى (٢٤٣/١).

(٢) ينظر التنبيه والرد للملطي (١٠٧)، والملائكة المقربون(٢٤٣).

المطلب الثالث عشر: الرد على منكري الحياة البرزخية.

قد تضمن ما مرّ من ذكر أقوال أهل الإيمان في البرزخ ومخاطباتهم للملائكة « دعوني أصلي»، «رب أقم الساعة»، «دعوني أبشر أهلي»، وما ورد من مخاطبات أهل الإيمان بعضهم بعضا، ومخاطباتهم لأعمالهم؛ وقول الملائكة «نم كنومة العروس» ردا على من أنكر الحياة البرزخية وإعادة الروح إلى بدن الميت كأبي الهذيل العلاّف(١)والباقلاني(٢)ومن اتبعه من الأشعرية(٣)الذين ذهبوا إلى أنّ الأرواح أعراض تفنى ولا تبقى وقتين فإذا مات الميّت فلا روح هنالك أصلا.(٤)

فهؤلاء عندهم أنّ الجسم إذا مات عُدمت روحه كما تعدم سائر أعراضه المشروطة بالحياة؛ فلا روح تصعد إلى السماء وتعود إلى القبر، وتقبضها الملائكة ويستفتحون لها أبواب السماوات، ولا تنعّم ولا تعذب؛ وإنما ينعّم ويعذّب الجسد إذا شاء الله تنعيمه أو تعذيبه رد إليه الحياة في وقت يريد نعيمه أو عذابه وإلاّ فلا أرواح هناك قائمة بنفسها البتة.(٥)

---

(١) أبو الهذيل هو محمد بن هذيل العبدي، يلقّب بالعلاّف، من معتزلة البصرة، تنسب إليه فرقة الهذيلية،من المعتزلة، توفي سنة ٢٣٥هـ ينظر فرق وطبقات المعتزلة للنشار ص (١٩١،٥٨،٥٤).

(٢) الباقلاني هو محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر القاضي المعروف بابن الباقلاني المتكلّم على مذهب الأشعري من أهل البصرة، سكن بغداد وسمع بها الحديث،كان من أعرف الناس بالكلام ، وأحسنهم خاطرا، وأجودهم لسانا، وله تصانيف كثيرة؛ مات سنة ٤٠٣هـ. ينظر تاريخ بغداد (٥/٣٧٩-٣٨٢).

(٣) الأشعرية طائفة من أهل الكلام ينسبون إلى أبي الحسن الأشعري، الذي كان معتزليا ثم انتقل إلى مذهب ابن كلاب، ثم منّ الله عليه بالرجوع إلى مذهب السلف، فلقب الأشعرية عند الإطلاق ينصرف إلى الذين اتّبعوا أبا الحسن في طوره الثاني؛ ولهم أصول خالفوا فيها السلف في مختلف أبواب الاعتقاد، منها تأويلهم في الصفات، ونفيهم التعليل في أفعال الله ، وقول متأخريهم إن الأحاديث لا تثبت بها العقيدة، وتقديمهم العقل على النقل عند التعارض، وغير ذلك من الأصول العقدية. ينظر:الملل والنحل ص(٤٠) وما بعدها. ومعجم ألفاظ العقيدة ص(٤٢)؛ ودرء التعارض لشيخ الإسلام (١٢/٢)، والصفات الإلهية للشيخ محمد أمان الجامي ص (٣٥).

(٤) ينظر الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني ص (١٦-١٧)، والمعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى ص (٩٦)،والفصل لابن حزم (٤/٥٧-٥٨).

(٥) ينظر الروح ص (١١١).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: « وهذا قول يرده الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقول والفطرة؛ وهو قول من لم يعرف روحه فضلا عن روح غيره؛ وقد خاطب الله سبحانه النفس بالرجوع والدخول والخروج، ودلت النصوص الصحيحة الصريحة على أنها تصعد وتنزل وتقبض وتمسك وترسل وتستفتح لها أبواب السماء وتسجد وتتكلم، وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة، وتكفن وتحنّط في أكفان الجنة والنار، وأنّ ملك الموت يأخذها بيده ثم تتناولها الملائكة من يده ويشمّ لها كأطيب نفحة مسك أو أنتن جيفة، وتشيّع من سماء إلى سماء، ثم تعاد إلى الأرض مع الملائكة، وأنها إذا خرجت تبعها البصر بحيث يراها وهي خارجة، ودل القرآن على أنها تنتقل من مكان إلى مكان حتى تبلغ الحلقوم في حركتها؛ وجميع ما ذكرنا من جمع الأدلة الدالة على تلاقي الأرواح وتعارفها وأنها أجناد مجنّدة إلى غير ذلك تبطل هذا القول، وقد شاهد النبي الأرواح ليلة الإسراء عن يمين آدم وشماله وأخبر النبي أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة وأنّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر وأخبر تعالى عن أرواح آل فرعون أنها تعرض على النار غدوا وعشيا...وهذا قول في غاية الفساد من وجوه كثيرة»

ومما يؤكّد على بطلان أنه يلزم منه زوال اسم النبي والرسول عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بعد موتهم.(١)

ومعنى هذا أنّ الروح لمـّا كانت عندهم عرضا من الأعراض كالحياة، فإنها بعد الموت بحكم العدم، فلا توصف بحياة مطلقا، ولازم هذا أن تنتفي جميع المعاني المتعلقة بالحياة والمشروطة بها، ومن ذلك النبوة والرسالة.(٢)

قال ابن حزم رحمه الله بعد ذكر هذا القول:« وهذه مقالة خبيثة، مخالفة لله تعالى ولرسوله ﷺ ولما أجمع عليه جميع أهل الإسلام إلى يوم القيامة، وإنما حملهم على هذا قولهم الفاسد: أنّ الروح عرض، والعرض يفنى أبدا ويحدث، ولا يبقى وقتين، فروح النبي ﷺ عندهم قد فنيت وبطلت، ولا روح الآن عند الله تعالى، وأما جسده ففي قبره موات، فبطلت نبوته بذلك ورسالته... ونعوذ بالله من هذا القول؛ فإنه كفر صراح لا ترداد فيه؛ ويكفي

---

(١) ينظر اجتماع الجيوش الإسلامية ص (١١١).

(٢) ينظر تحقيق الكافية الشافية لجماعة من العلماء، بإشراف بكر بن عبد الله أبي زيد (٦٤٣/٢).

من بطلان هذا القول الفاحش الفظيع أنه مخالف لما أمر الله عزّ وجل به ورسوله ﷺ واتفق عليه جميع أهل الإسلام من كل فرقة ومن كل نحلة من الآذان في الصوامع كل يوم خمس مرّات في كل قرية، من شرق الأرض إلى غربها بأعلى أصواتهم قد قرنه الله تعالى بـذكره: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمد رسول الله.

فعلى قول هؤلاء الموكَلين إلى أنفسهم؛ يكون الآذان كذبا، ويكون من أمر به كاذبا، وإنما كان يجب أن يكون الآذان على قولهم: أشهد أنّ محمدا كان رسول الله؛ وإلاّ فمن أخبر عن شيء كان وبطل أنه كائن الآن فهو كاذب؛ فالأذان كذب على قولهم؛ وهذا كفر مجرد».[١]

(١) الفصل (١/٧٥-٧٦).

الفصل الثاني: أقوال الكفار في البرزخ ودلالاتها العقدية.

قد ورد في النصوص الثابتة أنّ للكفّار أقوالا ومخاطبات في البرزخ، من جنس ما لأهل الإيمان فيه؛ حيث ثبت أنهم يخاطبون حاملي جنازتهم، ويخاطبون الملائكة عند الفتنة، ويخاطبون كذلك أعمالهم بعد الفتنة، وقد اشتمل تلك الأقوال والمخاطبات على بعض الدلالات العقدية هي محل الدراسة في المباحث التالية.

المبحث الأول: مخاطبات الكافر للملائكة في البرزخ.

المقصود من مخاطبات الكفّار للملائكة هنا هي تلك الأقوال التي صدرت من الكفّار جوابا عن الأسئلة التي يفتنهم بها الملكين ؛ وقد قصدت ترك ذكر أسئلتهما في هذا الفصل تفاديا من التكرار؛ حيث أنها لم تختلف عن الأسئلة التي وُجّهت لأهل الإيمان في الجملة، وإنما الاختلاف فيما يجيب المؤمن، وفيما يجيب الكافر، وفيما يقوله الملائكة لكل من الصنفين بعد الانتهاء من الفتنة ، وفيما يقوله كل من المؤمن والكافر بعد الفتنة، وفيما يخاطب به كل من الفريقين عمله.

ولذاك اقتصرت على ذكر هذه الأنواع الأربعة من مخاطبات الكفّار للملائكة في هذا المبحث دون ذكر أسئلة الملائكة؛ إذ هي -كما أسلفت- لم تختلف في جملتها عن الأسئلة التي فتنت به أهل الإيمان؛ وقد سبق ذكرها مع بيان ما فيها من الدلالات العقدية.

وفيما يلي من المطالب ذكر هذه الأنواع الأربعة من مخاطبات الكفّار للملائكة مع دراستها بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: قول الكافر لحاملي جنازته «يا ويلها أين تذهبون بها».

قد سبق ذكر حديث قول المؤمن على نعشه «قدموني ، قدموني» وعما تضمنه ذلك من الدلالات العقدية، وقد ورد في ذلك الحديث نفسه أن غير الصالح أيضا يخاطب حاملي جنازته، ففيه:(...وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين يذهبون بها، يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان؛ ولو سمعها الإنسان لصعق).(١)

وقد شُرح معنى الحديث بكامله هناك.(٢)

الدلالات العقدية.

إثبات عذاب البرزخ.

قد دل قول الميت غير الصالح لذويه «يا ويلها أين تذهبون بها» على ثبوت العذاب في البرزخ، وأنّ الكافر يعرض عليه ما سيؤول إليه من عذاب وهو على عواتق حامليه؛ فهو إنما يقول :«يا ويلها...» لأنه يعلم أنه لم يقدّم خيرا، وأنه يَقدُم على ما يسوؤه، فكره القدوم عليها.(٣) وقد سبق ذكر بعض الأدلة من القرآن على ثبوت عذاب البرزخ،(٤) وقد ورد من السنة كثير من الأحاديث في إثبات ذلك، منها:

ما رواه مسلم عن زيد بن ثابت ﵁ قال: (بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل أنا؛ قال فمتى مات هؤلاء ؟ قال ماتوا في الإشراك، فقال إن هذه الأمة تبتلى في قبورها؛ فلولا أن لا تدافنوا لدعوت لله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه؛ ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوّذوا بالله من عذاب النار، قالوا نعوذ بالله من عذاب النار.فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر، قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر...).(٥)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول الميت على الجنازة قدّموني، برقم (١٣١٦).

(٢) ينظر ص (٧٩).

(٣) ينظر عمدة القاري (١١٢/٨).

(٤) ينظر ص (١٢٢).

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٦٧).

ومنها: حديث ابن عباس رضي الله عنه قال : (مرّ النبي ﷺ بقبرين فقال: إنهما ليعـــذبان؛ ومـــا يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة. ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين فغرز في كل قبر واحدة؛ قالوا يا رســـول الله لم فعلـــت هذا؟ قال : لعله يُخفّف عنهما ما لم ييبسا).(١)

وقد كثرت الأحاديث في عذاب القبر حتى قال غير واحد إنها متواترة لا يصح التواطـــؤ عليها.(٢)

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي(٣) رحمه الله تعالى: « ...ونؤمن بالكرام الكاتبين، فـــإن الله قد جعلهم علينا حافظين؛ ونؤمن بملك الموت الموكّل بقبض أرواح العالمين، وبعذاب القبر لمن كان له أهلا، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه؛ على ما جـــاءت بـــه الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم».(٤)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، برقم (٢١٨)، ومسلم في صحيحه؛كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه،برقم (٢٩٢).

(٢) ينظر نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص (١٣٤).

(٣) أبو جعفر الطحاوي هو الإمام العلاّمة الحافظ أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي الحنفي محدّث الديار المصرية وفقيهها، صاحب التصانيف، مات سنة ٣٢١هـــ. ينظر سير الأعلام النبلاء (١٥/٢٧-٣٢)، ووفيات الأعيان(١/٧١).

(٤) العقيدة الطحاوية (٥٠).

المطلب الثاني: قول الكافر« هاه هاه لا أدري».

هذا القول مما ثبت في الأخبار عن النبي ﷺ أنّ الكافر يخاطب به الملائكة عند الفتنـــة في القبر؛ فقد جاء في حديث البراء في قصّة الكافر:

(...وإنّ العبد الكافر ... فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان لـــه: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري؛ فيقولان له: ما دينك؟ فيقول هـــاه هـــاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منـــاد مـــن السماء أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار...).[(١)]

الشرح.

قوله :« هَاهْ هَاهْ » : كلمة تقال في الإبعاد في حكاية الضَّحِك؛ وقد تقال للتوجّع وهـــو المراد في هذا الحديث.[(٢)]

وقيل: إنها كلمة يقولها المتحيّر الذي لا يقدر من حيرته -للخوف أو لعدم الفصاحة- أن يستعمل لسانه في فيه.[(٣)]

وقوله:« لا أدري »أي: لا أدري شيئا ما؛ أو لا أدري ما أجيب به.[(٤)]

الدلالات العقدية.

قد تضمن قول الكافر« هاه هاه لا أدري» من الدلالات العقدية ما يلي:

الأولى:إثبات سؤال الكفار في البرزخ.

إنّ في قول الكافر « هاه هاه لا أدري» دلالة على أن الكفّار يفتنون في البرزخ، كما يفتن أهل الإيمان، والأدلة التي تنصّ على فتنة الكفار كثيرة منها حديث البراء هذا ففيه:

(وإن العبد الكافر ...ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك...ما دينك؟ ما هذا

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤). وصححه الألباني في مشكاة المصـــابيح (٣٦٨/١) برقم (١٦٣٠)، وينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله التركي (٤٩٩/٣٠-٥٠٣).

(٢) النهاية في غريب الأثر (٦٦٤/٥).

(٣) ينظر عون المعبود (٦٥/١٣).

(٤) المصدر نفسه.

الرجل الذي بعث فيكم؟..)، وسيأتي زيادة بيان على هذا في المطالب التالية؛ إن شاء الله.

الثانية: إثبات عذاب القبر.

قد تضمن قول الكافر«هاه هاه لا أدري» كذلك إثبات عذاب البرزخ،إذ سبق أنّ هذه الكلمة إنما تقال عند التوجّع أو عند التحير الناتج عن الخوف الشديد، ولا شك أنّ هذا كله من آثار ما يعاني الكافر ويراه ويسمعه من أنواع العذاب؛ إذ التوجّع إنما يحصل بوجود أسبابه، وقد سبق إيراد الأدلة على عذاب البرزخ بما يغني عن إعادها هنا.

المطلب الثالث: قول الكافر:« سمعت الناس يقولون شيئا فقلته».

هذا القول من جملة ما ثبت في النصوص من أقوال الكفار في البرزخ.

فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها قالت: (أتيت عائشة زوج النبي ﷺ حين خسفت الشمس، فإذا الناس قيام يصلون، ... فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: (ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، ولقد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور مثلَ أو قريبا من فتنة الدجال- لا أدري أي ذلك قالت أسماء- يؤتى أحدكم فيقال ما علمك بهذا الرجل؟ فأمّا المؤمن أو الموقن- لا أدري أي ذلك قالت أسماء- فيقول: هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنا واتبعنا فيقال نم صالحا فقد علمنا إن كنت لمؤمنا، وأما المنافق أو المرتاب – لا أدري أي ذلك قالت أسماء – فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته).(١)

وفي رواية له أيضا (...وأما الكافر أو المنافق فيقول لا أدري؛ كنت أقول ما يقول الناس فيقال: لا دريت ولا تليت؛ ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين).(٢)وفي رواية للترمذي من حديث أبي هريرة (...وإن كان منافقا قال سمعت الناس يقولون فقلت مثله لا أدري؛ فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف فيها أضلاعه،فلا يزال فيها معذّبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك).(٣)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الخطبة قائما، برقم (٩٢٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، برقم (١٣٣٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٧٠).

(٣) سنن الترمذي (٣٨٣/٣)برقم (١٠٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٩/٣) برقم (١٣٩١).

الدلالات العقدية.

قد اشتمل قول الكافر أو المنافق « سمعت الناس يقولون شيئا فقلته». على ما يلي من الدلالات العقدية:

الأولى : أن المنافقين من أصناف الكفار.

دل اتحاد جواب الكافر والمنافق للملكين في البرزخ كما في هذه الأحاديث على اتحاد حكمها في الآخرة ، وأنّ المنافق وإن كان يُجرى عليه في الظاهر حكم أهل الإسلام فهو في الباطن كافر، فلولا اشتراكهما في الحكم لما اتحد جوابهم عن سؤال الملكين.

وقد كُثر في النصوص الجمع بين المنافقين والكفار في الوعيد والعذاب منها قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ [(١)] أي هي كافيهم جزاء على كفرهم.[(٢)]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ .[(٣)] أي كما اجتمعوا على الكفر والموالات في الدنيا يجمعهم في جهنم يوم القيامة، ولا ينفع المنافقين مجرد كونهم في الظاهر من المؤمنين.[(٤)]

قال شيخ الإسلام رحمه في بيان أصناف الناس من حيث الإيمان والكفر؛ وأنّ المنافق في الباطن كافر؛ قال:

«... فنقول ما عُلم بالكتاب والسنة والإجماع؛ وهو من المنقول نقلا متواترا عن النبي ﷺ ،بل هو من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام؛ دين النبي ﷺ أنّ الناس كانوا على عهده بالمدينة ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر مظهر للكفر، ومنافق ظاهره الإسلام وهو في الباطن كافر».[(٥)]

---

(١) سورة التوبة الآية (٦٨).

(٢) ينظر معالم التنزيل (٢/٢٦١).

(٣) سورة النساء الآية (١٤٠).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (١٨٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/٤٦١-٤٦٢).

وقال أيضا:« ... والمقصود أنّ الناس ينقسمون في الحقيقة إلى مؤمن، و منافق كـــافر في الباطن مع كونه مسلما في الظاهر، وإلى كافر باطنا وظاهرا».[١]

الثانية: الحث على طلب العلم، والتحذير من الطاعة العمياء.

إنّ في قول الكافر أو المنافق «سمعت الناس يقولون شيئا فقلت»حثّا على طلـــب العلـــم والتفقه في الدين، وأن يحرص المسلم على أن يكون على بصيرة في دينه علما وعملا، بعيدا عن الطاعة العمياء، والتبعية المقيتة، وتقليد الأعمى الذي يتبع فيه المرء أحدا من النـــاس دون الرسول الله ﷺ في قول أو عمل لأنّه قاله أو عمله فقط؛ معتقدا أنه لو لم يقل ذلك القول أو العمل لم يقل به هو أيضا[٢] فهذا كما هو واضح في هذا الحديث مـــن سمـــات المنافقين، وأقوال المرتابين والشكاّكين، وأخلاق المتعصبين للرجال والآراء والمذاهب؛ ومن كان هكذا حاله في الدنيا فهو من مسلمة الدار لا مسلمة الاختيار، وقد يكون ممـــن إذا قيل له في قبره: من ربك ؟ قال هاه هاه لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئا فقلته.[٣]

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أنّ الأشاعرة استدلوا بقول المنافق أو الكافر«سمعـــت النـــاس يقولون شيئا فقلت» على وجوب النظر والاستدلال فقالوا: من لم يعرف الله عزّ وجـــل بجميع أسمائه وصفاته من طريق الاستدلال فهو كافر منافق حلال الدم والمال.[٤]

ولا حجة لهم فيه لأن الرسول الله ﷺ إنما قال:« فأما المؤمن أو الموقن فيقول هو رســـول الله» و لم يقل عليه الصلاة والسلام: فأمّا «المستدل». فحسبنا فوز المؤمن والموقن كيـــف كان إيمانه ويقينه؛ وقال عليه الصلاة والسلام في بقية الحديث «وأما المنافق أو المرتـــاب» و لم يقل «غير المستدل» فيقول سمعت الناس يقولون شيئا فقلته. وهذا قولنا لأن المنـــافق والمرتاب ليسا موقنين ولا مؤمنين.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٧١/٧).

(٢) ينظر الفصل (٣٠/٤)، وأصول الإيمان للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص (١٣٩).

(٣) ينظر شرح العقيدة الطحاوية (٣١٦).

(٤) ينظر الشامل في أصول الدين للجويني ص (٣٠-٣١)، وشرح أم البراهين ص (٧-٨)، وتحفـــة المريد على جوهرة التوحيد للبيجوري ص(٢٣-٢٤)، والفصل (٢٨/٤).

فسائر أهل الإسلام يقولون إنّ كلّ من اعتقد بقلبه اعتقادا لا يشك فيه، وقـال بلسـانه أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا رسول الله، وآمن بأنّ كل ما جاء به ﷺ حق، وبرئ من كل دين سوى دين محمد ﷺ فإنه مسلم مؤمن ليس عليه غير ذلك.[١]

قال الإمام القرطبي[٢]: « ذهب بعض المتأخّرين والمتقدّمين من المتكلّمين إلى أنّ مـن لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها والأبحاث التي حرّروها لم يصح إيمانه؛ وهو كـافر، فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأوّل من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه، وقد أُورد على بعضهم هذا، فقال: لا تشنّع عليّ بكثرة أهل النار...

قلت:[٣]وهذا القول لا يصدر إلاّ من جاهل بكتاب الله وسنة نبيه، لأنّه ضيّق رحمـة الله الواسعة على شرذمة يسيرة من المتكلّمين، واقتحموا في تكفير عامّة المسلمين».[٤]

ومما يدل على بطلان هذا القول كذلك إجماع المسلمين في جميع الأعصار علـى تسـمية العامّة والمقلد مؤمنين؛ فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحا لما صحّ أن يسمى مؤمنـا إلاّ مـن عنده علم بالنظر والاستدلال.

وأيضا فلو كان الإيمان لا يصح إلاّ بعد النظر والاستدلال؛ لجاز للكفار إذا غلب علـيهم المسلمون أن يقولوا لهم: لا يحل لكم قتلنا لأنّ من دينكم أنّ الإيمان لا يصحّ إلا بعد النظر والاستدلال؛ فأخّرونا حتى ننظر ونستدل.

وهذا يؤدّي إلى تركهم على كفرهم، وألا يقتلوا حتى ينظروا ويستدلوا.[٥]

---

(١) الفصل (٤/٢٨-٣٢).

(٢) سبقت ترجمته.ص (٢٤).

(٣) القائل الإمام القرطبي.

(٤) تفسير القرطبي (٧/٢٩٠).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٧/٢٩٠).

المطلب الرابع: الرد على من زعم أنّ الإيمان قول باللسان فقط.

يتضمن قول الكافر أو المنافق« سمعت الناس يقولون شيئا فقلته»ردا علـــى الكراميـــة[(١)] الذين قالوا: إنّ الإيمان هو القول باللسان فقط، فمن أتى به فهو مؤمن عند الله، وليّ لـــه، وإن اعتقد الكفر بقلبه.[(٢)]مع قولهم أنّ مثل هذا يعذّب في الآخرة ويخلد في النّار.[(٣)]

ووجه الرد عليهم بهذا القول من الكافر أو المنافق في البرزخ: أنّ الإيمان لو كـــان كلّـــه مجرّد النطق باللسان لكان هذا الكافر أو المنافق ناجيا من عذاب القبر، ولما ضربته الملائكة، حيث إنه جاء بالإيمان كلّه على حدّ قولهم؛ ولـــمّا ضُرِب وعُذِّب مع أنه قال مـــا سمـــع الناس يقولونه، تبين بذلك أنّ الإيمان ليس مجرد النطق باللسان فقط.

والنصوص الدالة على بطلان هذا القول وعلى أن الإيمان اعتقاد وقـــول وعمـــل كـــثيرة معلومة.[(٤)]

ويكفي هذا القول بطلانا ما يلزمهم منه من لوازم فاسدة منها:

- أنّ المنافقين مؤمنون لإقرارهم بالإيمان بألسنتهم؛ وهذا قول مخرج عن الإسلام.[(٥)]

---

(١) الكرامية: هم أتباع محمد بن كرام المتوفى سنة ٢٥٥هـــ، وهم طوائف عدة اشتهروا بالتشبيه في صفات الله، والقول بالإرجاء، وطوائف الكرامية اثنا عشر فرقة وأصولها ســتة وهـــي العابديـــة والنونية و الزرنية والواحدية والاسحاقية والهيصمية ولكل واحد منهم رأي في التشـــبيه. ينظـــر: والفرق بين الفرق، للإسفراييني، ص: ٢١٦، ومعجم ألفاظ العقيدة لعامر فـــالح ، ص: ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) ينظر الفصل (٨٩/٢)و(٤/ ١٥٤-١٥٥).

(٣) ينظر مجموع الفتاوى (٥٠٩/٧).

(٤) ينظر كتاب الإيمـــان لأبي عبيـــد ص(١٧- ٢٢)،وشـــرح العقيـــدة الطحاويـــة ص(٤٧٤-٤٧٦)ومجموع الفتاوى (٤٠٠/٧).

(٥) ينظر الفصل (١١٦/٣).

- أن العبد قد يكون مؤمنا تام الإيمان؛ إيمانه مثل إيمان الأنبياء والصدّيقين ولو لم يعمل خيرا، لا صلاةً ولا صلةً ولا صدقَ حديثٍ، ولم يدع كبيرة إلا ركبها؛ فيكون الرجل عندهم إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وهو مصرّ على دوام الكذب والخيانة، ونقض العهود، لا يسجد لله سجدة، ولا يحسن إلى أحد حسنة، ولا يؤدّي أمانة، ولا يدع ما يقدر عليه من كذبٍ وظلمٍ وفاحشةٍ إلا فَعَلها، وهو مع ذلك مؤمن تامُ الإيمان إيمانه مثل إيمان الأنبياء؛ وهذا يلزم كل من لم يقل أن الأعمال الظاهرة من لوازم الإيمان.[1]

- أن يكون المؤمن الكامل الإيمان معذَّبا في النار؛ بل يكون مخلدا فيها، وقد تواتر عن النبي ﷺ أنه يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وإن قالوا لا يخلد وهو منافق، لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار؛ وقد قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾[2]،[3].

(١) ينظر مجموع الفتاوى (٧/٥٨٣-٥٨٤).

(٢) سورة النساء الآية (١٥٤).

(٣)ينظر مجموع الفتاوى (١٣/٥٦).

المطلب الخامس: قول الكافر « رب لا تقم الساعة».

جاء في قصة الكافر وفتنته في القبر من حديث البراء السابق (...وإن العبد الكافر ... فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول هــاه هــاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول هاه هاه لا أدري. فيقولان له ما هذا الرجل الــذي بعث فيكم؟ فيقول هاه هاه لا أدري؟ فينادى مناد من السماء أن كذب فافرشوا له مــن النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول من أنت فوجهك الوجه يجئ بالشر؛ فيقول أنا عملــك الخبيث فيقول: رب لا تُقِم الساعة).[1]

الدلالات العقدية.

قد اشتمل قول الكافر «رب لا تقم الساعة» من الدلالات العقدية ما يلي:

- شدة عذاب يوم القيامة؛ وأنه أشدّ من عذاب البرزخ.

دل قول الكافر «ربّ لا تقم الساعة» على إثبات ربوبية الله تعالى، وإثبات البعث، وعلى شدة ما ينتظر الكافر من الأهوال والعقوبات يوم القيامة، وأنها أشدّ وأنكى مما هو فيه من العذاب في البرزخ، وذلك أنّ الكافر على الرغم من افتراشه في قبره من النار، وإتيان حرّها وسمومها إليه، وتضييق قبره عليه حتى تختلف أضلاعه فيه، على الرغم من هــذه الشــدة كلها؛ فإنه فضّل البقاء عليها من مجيء ما ينتظره يوم القيامة من أنواع العقوبات، وصنوف العذاب، مما جعله يدعو الرب سبحانه وتعالى ويطلب منه ألا يقيم الساعة، وما ذلــك إلا لعلمه أنّ عذاب الآخرة أشدّ وأبقى؛ وقد دل على كون عذاب الآخرة أشدّ من عــذاب البرزخ نصوص من الكتاب والسنة.

منها قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .[2]

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤). وصححه الألباني في مشكاة المصــابيح (٣٦٨/١) برقم (١٦٣٠)، وينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله التركي (٤٩٩/٣٠-٥٠٣).

(٢) سورة السجدة الآية (٢١).

قيل: إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر، والأكبر عذاب يوم القيامة.(١)
فأخبر الله تعالى أن له في الكفّار عذابين أدنى وأكبر، وذكر تعالى أنه يذيقهم بعض الأدنى في الدنيا ليرجعوا، لذا قال ﴿ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى ﴾ . أي: بعضه.
فإن تمادوا في غيهم، وماتوا على كفرهم نالهم ما تبقّى لهم من العذاب الأدنى وهو عذاب البرزخ؛ ثم يأتيهم بعد ذلك العذاب الأكبر وهو عذاب يوم القيامة.(٢) أعاذنا الله من عذابه وأليم عقابه.
ومنها قوله تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .(٣)
أي:ويوم تقوم الساعة يقال للملائكة : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب؛ أي عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه.(٤)
ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ .(٥)
ومما يدل من السنة على كون عذاب يوم القيامة أشدّ على الكفّار من عذاب البرزخ قوله ﷺ في آخر حديث البراء السابق (...فينادى مناد من السماء أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها...).(٦)
ووجه دلالة الحديث على ذلك أنه ﷺ لم يقل: فيأتيه حرّها وسمومها. وإنما قال من :حرّها وسمومها؛ فدل على أن الذي يأتي الكافر في قبره بعض ذلك وبقي له الأكثر.(٧)

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (٩٨/١٤).
(٢)ينظر الروح لابن القيم ص (١٣٢).
(٣) سورة غافر الآية (٤٥-٤٦).
(٤) ينظر روح المعاني(٧٤/٢٤).
(٥) سورة طه الآية (١٢٤-١٢٧).
(٦) سبق تخريجه ص (١٤٣).
(٧) ينظر الروح ص (١٣٢).

المطلب السادس:قول الكافر لعمله«من أنت فوجهك الذي يجيء بالشر».

جاء في آخر حديث البراء في قصة الكافر قوله ﷺ (... ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول أنا عملك...).[(١)]

الدلالات العقدية.

قد سبق ذكر مخاطبة المؤمن لعمله في البرزخ وبيان ما تضمنه ذلك الخطاب من الدلالات العقدية من إثبات كمال قدرة الله في جعل ما شاء من الأعراض جسما، وعلى ملازمة الأعمال لصاحبها وارتباط سعادته أو شقائه بها؛ ومخاطبة الكافر لعمله يدل على ذلك، ويدل أيضا على عذاب البرزخ لقوله « فوجهك الذي يجيء بالشر» حيث أقرّ هذا الكافر وهو في البرزخ بمجيء الشر إليه. وقد سبق ذكر ما يغني ويكفي من الأدلة في إثبات عذاب البرزخ.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤). وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٦٨/١) برقم (١٦٣٠)، وينظر تحقيق المسند بإشراف د/عبد الله التركي (٤٩٩/٣٠-٥٠٣).

المطلب السابع: الرد على منكري فتنة القبر.

قد دل مجموع ما سبقت دراسته من المطالب في هذا المبحث من قول الكافر « هاه هاه لا أدري»، وقوله « كنت سمعت الناس يقولون شيئا فقلته»، على إثبات فتنة القبر، كما يتضمن ردا على من أنكروها رأسا كالجهمية؛ وعلى من أنكروا أن يكون الكافر ممن يفتن في قبره ويسأل، وقد ذهب إلى ذلك أبو عمر بن عبد البر؛ فقد قال رحمه الله في التمهيد: «الآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق، ممن كان في الدنيا منسوبا إلى أهل القبلة ودين الإسلام، ممّن حقن دمه بظاهر الشهادة، وأمّا الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه وإنما يسأل هذا أهل الإسلام».[١]

وهذا المذهب يردّه ما ورد في الأحاديث الثابتة في فتنة الكفار وسؤالهم في القبر.

قال الإمام القرطبي رحمه الله بعد ما ساق جملة من الأحاديث في إثبات فتنة القبر؛ قال بعد ذلك:

« وجاء فيما تقدم من الآثار أن الكافر يُفتن في قبره ويُسأل،ويهان ويعذّب»[٢]

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:« وقول أبي عمر رحمه الله وأمّا الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه؛ فيقال له ليس كذلك؛ بل هو من جملة المسئولين؛ وأولى بالسؤال من غيره.وقد أخبر الله في كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾.[٣] وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.[٤] وقال تعالى ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾.[٥] فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون في قبورهم؟ فليس لما ذكره أبو عمر رحمه الله وجه».[٦]

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٢٢/٢٥٢).

(٢) التذكرة للقرطبي (٤١٣/١).

(٣) سورة القصص الآية (٦٥).

(٤) سورة النحل الآية (٩٢-٩٣).

(٥) سورة الأعراف الآية (٦).

(٦)كتاب الروح ص (٨٦).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد ذكره الروايات التي فيها التصريح بسؤال الكافر وفتنته في البرزخ:

«...فاختلفت هذه الروايات لفظا، وهي مجتمعة على أنّ كلا من الكافر والمنافق يسأل، ففيه تعقّب على من زعم أن السؤال إنما يقع على من يدّعي الإيمان إن محقا وإن مبطلا، ومستندهم في ذلك ما رواه عبد الرزاق من طريق عبيد بن عمير أحد كبار التابعين قال: (إنما يفتن رجلان مؤمن ومنافق؛ وأما الكافر فلا يسأل عن محمد، ولا يعرفه).[١] وهذا موقوف؛ والأحاديث الناصّة على أنّ الكافر يسأل مرفوعة مع كثرة طرقها الصحيحة فهي أولى بالقبول».[٢]

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٣/٥٩٠)؛ برقم (٦٧٥٧).

(٢) فتح الباري (٣/٢٣٨-٢٣٩).

المبحث الثاني: مخاطبات الملائكة للكفار في البرزخ.

ثبت في السنة المطهرة أن الملائكة تخاطب الكفار في البرزخ أنواعا من الخطابات، منها فتنتهم بالأسئلة، وتقريعهم بعد الأسئلة، وإخبارهم إياهم بما لهم من العذاب، وقد تضمنت هذه الخطابات بعض الدلالات العقدية هي محل الدراسة في المطالب التالية.

المطلب الأول: قول الملائكة للكافر« من ربك...».

إن مما خاطبت به الملائكة الكفار في البرزخ فتنتهم بالسؤال عن الرب، وعن الدين وعن النبي ﷺ ففي حديث البراء أن النبي ﷺ قال في قصة الكافر: (...وإنّ العبد الكافر ...ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك...ما دينك؟ ...ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟..).(١)

وقد ورد أيضا أنّ الكافر يسأل عما كان يعبد؛ فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال:(...وإنّ الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك فينتهره؛ فيقول له ما كنت تعبد ؟ فيقول لا أدري...).(٢)

وفي هذه الروايات زيادة تأكيد لما سبق تقريره في المطلب السابق؛ مِن أن الكفار يشملهم السؤال في القبر، وأنّ ذلك ليس مختصا بأهل الإيمان وغيرهم من المنافقين.

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤٣).

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر،برقم (٤٧٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٦٩٣).

المطلب الثاني: قول الملائكة للكافر « لا دريت ولا تليت».

هذا الخطاب من الملائكة جزء من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان، فأقعداه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ ؟فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال انظر إلى مقعدك في النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة. قال النبي ﷺ فيراهما جميعا وأمّا الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت؛ ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين).(١)

الشرح.

قوله (لا دريت ولا تليت).قيل معناه: لا فهمت ولا قرأت القرآن. والمعنى لا دريت ولا اتّبعت من يدري.

وقيل :معناه الدعاء عليه أي: لا كنت داريا ولا تاليا، فلا توفق في هذا الموقف، ولا تنتفع بما كنت تسمع أو تقرأ.(٢)

الدلالات العقدية.

لقد تضمن قول الملائكة للكافر«لا دريت ولا تليت»-على المعنيين المذكورين في شرحه- ببعض الدلالات العقدية وهي كالتالي:

الأولى: تقريع الملكين للكافر والمنافق في البرزخ.

لقد دل هذا القول من الملكين على المعنى الأول الذي يفيد التقريع إثبات عذاب البرزخ، وأن منه ما يكون من طرف الملائكة، إما بالضرب، وإمّا بالتقريع وهو المبالغة في الملامة، والتَّعْنيفُ والتَّثْريبُ والإقلاق.(٣)

وقد ثبت في النصوص تقريع الملائكة للكفار في عدة مواقف، منها تقريعهم لهم عند الموت

---

(١) سبق تخريجه ص (٨٧).

(٢) ينظر فتح الباري (٢٣٩/٣)، وعمدة القاري (١٤٥/٨).

(٣) ينظر لسان العرب (٦٣/١٥). والقاموس المحيط ص (٩٦٩).

وبعد القبض؛ فقد ورد في حديث البراء أن الملائكة تقول للكافر عند قبضه: (أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب) [(١)] وفي حديث آخر أنّ الملائكة تقول:(...اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث؛ اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغسّاق؛ وآخر من شكله أزواج؛ فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج؛ ثم يعرج بها إلى السماء؛ فلا يفتح لها. فيقال من هذا؟ فيقال فلان؛ فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث؛ ارجعي ذميمة، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء ،فيرسل بها من السماء ثم تصير إلى القبر).[(٢)]

ومنها تقريعهم لهم في الموقف، قال تعالى:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ .[(٣)]

قيل إن معنى قوله تعالى: ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ أي: تقول لهم الملائكة : ارجعوا وراءكم من حيث جئتم فاطلبوا هناك لأنفسكم نورا.[(٤)]

ومنها أيضا تقريعهم لهم في النار، قال تعالى:﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .[(٥)] قيل في معنى الآية: أنّ الملائكة تقول لأهل النار تقريعا لهم: إذا لم يمكنكم إنكار النار، وتحقّقتم أنّ ذلك ليس بسحر، ولم يكن في أبصاركم خلل، فالآن ادخلوها وقاسوا شدتها، فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، وافعلوا ما شئتم فالأمران سواء في عدم النفع.[(٦)]

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٨٥٣٤)، وإسناده صحيح، ينظر تحقيق المسند (٥٠٣/٣٠).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، برقم (٤٢٦٢). وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٤٢٠/٢) برقم (٣٤٣٧).

(٣) سورة الحديد الآية (١٣).

(٤) ينظر تفسير البغوي (٢٧٠/٤).

(٥) سورة الطور الآية (١٣-١٦).

(٦) فتح القدير(١٣٦/٥)

الثانية: دعاء الملائكة على الكفّار.

دل قول الملائكة للكافر:«لا دريت ولا تليت» على المعنى الثاني أنّ الملائكة يدعون على الكفار مقتا لهم وبغضا ، وتشميتا بهم،كما يدعون لأهل الإيمان محبّة لهم وتثبيتا.

بل ثبت أنّ الملائكة تدعو على أهل المعاصي فضلا عن الكفار، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها؛ لعنتها الملائكة حتى ترجع).(١)

ففي هذا أنّ الملائكة تدعو على العصاة، وأنّ دعاءهم من خير أو شر مقبول، لأنّ المصطفى ﷺ خوّف بذلك. وهل الملائكة التي تلعن العصاة هم الحفظة أو غيرهم؟ يحتمل الأمرين.(٢)

قال العيني: « وأنا أقول إنّ الله عز وجل خلق الملائكة على أنواع شتى، منهم مرصدون لأمور كالموكّلين بالقطر والرياح والسحب، والموكّلين بمساءلة من في القبور، والسيّاحين في الأرض يبتغون مجالس الذكر، والموكّلين بقذف الشياطين بالشهب، ... ويحتمل أن تكون الملائكة الذين يلعنون ناسا من بني آدم على أمور محظورة تقع منهم من هذا النوع وهو الظاهر».(٣)

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال:(ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان؛ فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا).(٤)

وفيه دعاء الملائكة على الممسك تلف ماله، ومعلوم أنه مجاب؛ ولكن يراد بالإمساك هنا ما ماكان عن الواجبات دون المندوبات، فإنه قد لا يستحق صاحبه هذا الدعاء؛ اللهم إلا أن يغلب عليه البخل بها وإن قلت في نفسها كالحبة واللقمة ونحوهما.(٥)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها، برقم (٤٨٩٨). ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، برقم (١٤٣٦).

(٢) ينظر فتح الباري (٢٩٥/٩)، وفيض القدير (٣٠٩/١).

(٣) عمد القاري (١٨٥/٢٠).

(٤) صحيح البخاري (٥٢٢/٢)برقم (١٣٧٤)، ومسلم في صحيحه (٧٠٠/٢) برقم (١٠١٠).

(٥) ينظر عمدة القاري (٣٠٧/٨).

المطلب الثالث: قول الملائكة للكافر« نم كما ينام المنهوش».

مر معنا أن من ضمن الأقوال التي يقوله الملكان للمؤمن بعد فتنته «نم كنومة العروس»، وقد ثبت أيضا أنهما يقولان للكافر عكس ذلك؛ فقد روى البزار من حديث أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال في موت الكافر وفتنته:

(...وإذا كان عدوا لله نزل به الموت، وعاين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبدا، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس في قبره أو أُجلس فيقال له من ربك؟ فيقول لا أدري. فيقال :لا دريت، فيفتح له باب إلى جهنم، ثم يضرب ضربه تسمعها كل دابّه إلا الثقلين، ثم يقال له نم كما ينام المنهوش؛ قلت لأبي هريرة ما المنهوش قال الذي تنهشه الدواب والحيّات ثم يضيق عليه قبره).(١)

الشرح.

قوله ﷺ: «ثم يقال له نم كما ينام المنهوش » قد قيل في معنى المنهوش: المجهود. فهو من نهشه إذا جهده.

وقيل: هو من النّهش؛ وهو أخذ اللحم بالأظفار، ومنه قيل: نهشته الكلاب.(٢) وقيل معنى المنهوش: المسلوع أي:ينام مرّة كالمغمى عليه، مرة لشدة الألم.(٣)

الدلالات العقدية.

قد اشتمل قول الملائكة للكافر« نم كما ينام المنهوش» على ما يلي من الدلالات العقدية:

الأولى: إثبات عذاب البرزخ.

إنّ قول الملائكة للكافر« نم كما ينام المنهوش» دليل على عذابه في البرزخ على أيّ معنى

---

(١) رواه البزار(٤١٤/١) برقم (٨٧٤). وصححه الألباني في السلسلة (١٣٠/٦) برقم (٢٦٢٨). ينظر تحقيق معارج القبول لعمر محمود أبي عمر (٧٣٤/٢) هامش (١).

(٢) ينظر لسان العرب (٣٦٠/٦).والفائق في غريب الحديث(١١٨/٤).وتاج العروس ص (٤٣٧٨).

(٣) ينظر التذكرة (٣٩١/١).

فسّربه كلمة «المنهوش» من المعاني السابقة، فالذي تنهشه الدواب معــذّب، وكــذلك المجهود أيضا، وقد سبق ذكر كثير من الأدلة الواردة في إثبات عذاب البرزخ.

الثانية: إثبات الحياة البرزخية.

ومما اشتمل عليه قول الملكين للكافر« نم كما ينام المنهوش» أيضا إثبات الحياة البرزخيــة، وبقاء الاتصال بين الروح والجسد فيها على حقيقة يعلمها الله تعالى، وذلك مستفاد مــن قول الملكان للكافر « نم...»، حيث أثبتا له النوم، وليس في النوم مفارقة الروح للبــدن مفارقة كلية كما سبق بيان ذلك في المطالب السابقة.

المطلب الرابع: قول الملائكة للكافر «هذا منزلك لو آمنت بربك...».

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال : شهدت مع رسول الله ﷺ جنازة فقال رسول الله ﷺ : (يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلي في قبورها فإذا الإنسان دفن فتفرق عنه أصحابه جاءه ملك....وإن كان كافرا أو منافقا، يقول له ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فيقول لا دريت ولا تليت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول: هذا منزلك لو آمنت بربك؛ فأمّا إذ كفرت به فإن الله عز وجل أبدلك به هذا ويفتح له باب إلى النار).(١)

الدلالات العقدية.

سبق إيراد الجزء الأول من هذا الحديث في خطاب الملائكة لأهل الإيمان، وذِكر ما فيها من الدلالات العقدية، وهذا الخطاب من الملائكة للكافر يشتمل على تلك الدلالات نفسها، من كون كل من الجنة والنار مخلوقة وموجودة الآن، وذلك بإشارة الملك إلى كل منهما، وكذلك إثبات تأثير الأسباب من الأعمال والأقوال والأوصاف وغيرها في سعادة الإنسان أو شقائه.

ويبقى أن يُقال هنا إنّ في ترتيب النصوص الثواب والعقاب على الأسباب حضّا وحثّا على العمل والاجتهاد في الطاعات وفعل الخيرات، وترك المنكرات والبعد عنها، وعدم الاتّكال على الكتاب السابق الذي أُخفي عن الإنسان ما فيه؛ بدعوى التوكّل والتسليم. فكون مصير الإنسان مكتوبا، ومقدرا عند الله في الأزل لا يعني التواكل، وترك الأعمال، أو عدم الاهتمام بها؛ إذ ذلك كان معلوما لدى الأنبياء وأصحابهم، و لم يُقعدهم عن الأخذ بالأسباب من فعل الصالحات، والبعد عن المنهيات، بل كان أفضل الأنبياء و أعمقهم علما بالله، وأفضلهم عنده أعلمَ الخلق بكون الأمور مفروغا منها عند الله تعالى في الأزل، وكان مع ذلك أكثر الناس اجتهادا في العبادة؛ لعلمه ﷺ أنّ الله لا يقدّر شيئا إلاّ وجعل له أسبابا توصل إليه، فعلى هذا السلوك كان ﷺ وإليه كان يدعو ويوجّه أصحابه، فقد روى البخاري من حديث علي ﷺ قال: كنّا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: (ما منكم من أحد إلاّ وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أمّا من كان من أهل السعادة فييسّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة).(٢)

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم (١١٠٠٠)،وابن أبي عاصم في السنة برقم :(٨٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠/٩) برقم (٣٣٩٤)، وينظر تحقيق المسند (٣٤/١٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرا مقدورا، برقم (٦٦٠٥).

المطلب الخامس: الرد على من أنكروا وجود النار الآن.

ذُكر فيما سبق أنّ إشارة الملك إلى النار، وأَمْره الميتَ بالنظر إليها فيه إثبات وجود النـــار الآن وأنها مخلوقة.

وقد تضمن ذلك ردّا على من خالفوا في ذلك من الباطنية والخوارج والمعتزلة.

أمّا الباطنية فهم أشدّ مخالفة حيث أنكروا وجود النار رأسا؛ فضلا عن كونهـــا موجـــودة الآن، فقالوا: ما النار إلا ما عليه أصحاب الشرائع من التعب والنصب، والصلاة والصيام والحج، وإنّ كل ما أخبر به الرسل من الوعد والوعيد إنما هو لتحقيق مصـــالح النـــاس في الدنيا؛ إذ لا يمكن تقويمهم إلا بهذه الطريقة.(١)

ومخالفة هذا المعتقد لأصول الدين ومناقضته لما اتفقت عليه الرسالات معلومة، فهو لـــيس إنكـــارا للجنة و النار فحسب، وإنما يتضمن إبطال الشرائع كلها، كما ذكره العلماء في كتب الفرق.(٢)

ولو كان ما أتى به الرسل من الوعد والوعيد مجرد تخويف للعامة، لكان خواص الصحابة الأذكياء كأبي بكر وعمر يعلمون ذلك، ولو علموه لزالت محافظتهم على الأمر والنـــهي، ومن المعلوم بداهة؛ أن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى كانوا أعلم الناس بأمور الرسول ﷺ وأحواله، وأخبرَ الناسِ بمقاصده ومراداته، ومع ذلك؛ كانوا أعظم الأمة استقامة على الطاعة سرا وعلانية، وأكثرها محافظة على ذلك إلى الموت.(٣)

أما المعتزلة والخوارج فقد أنكروا وجود النار وكونها مخلوقة الآن.(٤) وهذه الإشارة من الملك إليها مع أمر الميت بالنظر إليها يثبت وجودها ويرد على من أنكر ذلك كما سبق بيانه.

وهذا آخر ما تيسر جمعه من أقوال المكلفين في البرزخ، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلّم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) ينظر: الفرق بين الفرق ص:(٢٧٩-٢٨٢)،ومجموع الفتاوى،لشيخ الإسلام ابن تيمية(٥٠٢/٧).

(٢) ينظر الفرق بين الفرق (٢٨٠-٢٨١).

(٣) ينظر مجموع الفتاوى(٥٠٣/٧).

(٤) ينظر تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ص (٣٤٨)؛ والفصل في الملل(١٤١/٤). الملل والنحل، (٧٣/١).

الباب الثاني: أقوال أهل الإيمان في الموقف، ودلالاتها العقدية.

إنّ الله سبحانه وتعالى يبعث الخلائق من الثقلين وغيرهم يوم القيامة، فيحشرون جميعا إلى أرض الموقف للحساب ولمجازاة كل عامل بعمله.

ويكون مع هذه المحاسبة مخاطبات تحصل بين من حضر هذا الموقف العظيم من الخلائـــق؛ ومن هذه المخاطبات ما تجري بين الملائكة والإنس؛ ومنها ما تكون بين الإنس بعضـــهم لبعض، ومنها ما تحصل بين المكلّفين من الثقلين والرب سبحانه وتعالى.

ولما كان هؤلاء المكلّفون من الثقلين الذين سيصدر منهم هذه المخاطبات فريقين: أهـــلَ إيمان وأهلّ كفر، وأصحاب يمين، وأصحاب شمال؛ جاء هذا القسم من البحث وفق هذا التقسيم.

فقدّمتُ ذكر أقوال أهل الإيمان بأصنافهم في هذا الباب، ثم يليه الباب الثالث الذي فيـــه ذكر أقوال الكفّار بأصنافهم؛ وذلك كله بعد توطئةٍ فيها التعريف بالموقف؛ ومقدّمة فيها التعرّض للأقوال التي تصدر من عامّة أهل الموقف.

كما سيتخلل ذلك أيضا ذكر الأقوال التي تصدر عن الملائكة، سواء ما خاطبوا بها أهـــل الإيمان، أو ما خاطبوا بها الكفّار.

ولعلّ هذا التصنيف والتقسيم يُسهم في تفادي التداخل بين الأقوال، ويبعد عن التكـــرار وتداخل الأفكار، ويعين على الفهم؛ بإذن الله تعالى.

-توطئة:التعريف بالموقف؛ وبيان عدم التعارض بين قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ﴾.[1]وبين ما ذُكر عن أهل الموقف من أقوال.

- التعريف بالموقف في اللغة والشرع:

الموقف في اللغة: اسم مكان من الوقوف؛ الذي هو خلاف الجلوس. يقال وَقَف يَقِف وَقْفا وَوُقوفا؛ أي: دام قائما.

والموقف: الموضع الذي تقِف فيه حيث كان.[2]

أمّا الموقف في اصطلاح الشرع: فهو المكان الخاصّ الذي أعدّه الله تبارك وتعالى لحشر الناس وحسابهم، وفصل القضاء بينهم.[3]

وقد وردت هذه التسمية في بعض الأحاديث؛ منها:

قوله ﷺ :(من قام بخطبة لا يلتمس بها إلا رياء وسمعة؛ أوقفه الله عزّ وجل يوم القيامة موقف رياء وسمعة).[4]

وقيل : إنما سمّي الموقف كذلك لأنّ الناس يكونون واقفين في ذلك اليوم على أقدامهم؛ و لا يكون لهم حال يومئذ سوى الوقوف.[5]

---

(١) سورة المرسلات الآية (٣٥).

(٢) ينظر اللسان (٣٥٩/٩)، ومختار الصحاح ص (٧٤٠)، ينظر مفردات القرآن (٥٣٠)

(٣) ينظر الحياة الآخرة لغالب عواجي(٢٤١/١).

(٤) رواه أحمد في المسند برقم (١٦٠٧٣)؛ وهو صحيح. ينظر تحقيق (٤٧٥/٢٥).

(٥) ينظر شعب الإيمان (٢٤٣/١).

-صفة أرض الموقف

قد ورد في صفة أرض الموقف بعض النصوص؛ منها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما أنّ النبي ﷺقال:(يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقيّ؛ ليس فيها معلم لأحد).(١)

فقوله ﷺ :«على أرض بيضاء، عفراء، كقرصة النقيّ ليس فيها علم لأحد» معنى العفراء: البيضاء المائلة إلى الحمرة.

والنقيّ: بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء- هو الدقيق النقي من الغش والنخال.

وقوله ﷺ :« ليس فيها معلم لأحد » أي: ليس بها علامة سكنى أو بناء ولا أثر.(٢)

ففي هذا الحديث الإعلام بجزئيات يوم القيامة؛ ليكون السامع على بصيرة، فيخلّص نفسه من ذلك الهول، لأنّ في معرفة جزئيات الشيء قبل وقوعه رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها، بخلاف مجيء الأمر بغتة.

وفيه إشارة إلى أنّ أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة، والحكمة في الصّفة المذكورة أنّ ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق؛ فاقتضت الحكمة أن يكون المحلّ الذي يقع فيه ذلك طاهرا عن عمل المعصية والظلم؛ وليكون تجلّيه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته؛ ولأنّ الحكم فيه إنما يكون لله وحده، فناسب أن يكون المحلّ خالصا له وحده.(٣)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض،برقم (٦٥٢١)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور، وصفة الأرض يوم القيامة، برقم (٢٧٩٠).

(٢) ينظر شرح النووي على مسلم (١٣٤/١٧)، وعمدة القاري (١٠٦/٢٣).

(٣) ينظر فتح الباري (٣٧٥/١١).

- **مدة الموقف:**

قيل إنّ قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.(١)

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.(٢)

وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.(٣) قيل إنّ المراد بجميع هذه الآيات بيان مدة الموقف يوم القيامة؛ وأنّ الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر.

وقيل: إنّ يوم الألف في سورة الحج صفة لأحد الأيّام التي خلق الله فيها السماوات والأرض؛ ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى؛ ويوم الخمسين ألفا مدة موقف الناس يوم القيامة.(٤)

ولكن هذه المدة على طولها فإنها تكون قصيرة بالنسبة للمؤمن؛ لأنّ الله تعالى يخفّفها عليه؛ ومما يدل على ذلك في القرآن الكريم:

قول تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.(٥)

قال الألوسي(٦) رحمه الله:

« وفائدة قوله سبحانه ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: سهل بعد قوله تعالى: ﴿عَسِيرٌ﴾ تأكيد عسره على الكافرين؛ فهو يمنع أن يكون عسيرا عليهم من وجه دون وجه، ويشعر بتيسره على

(١) سورة الحج الآية (٤٧).

(٢) سورة السجدة الآية (٥).

(٣) سورة المعارج الآية (٤).

(٤) ينظر دفع إيهام الاضطراب مع أضواء البيان (٩/٢٠٧).

(٥) سورة المدثر الآية (٨-١٠).

(٦) الألوسي هو شهاب الدين السيد محمود أفندي أبو الثناء الألوسي البغدادي، كان رحمه الله شيخ العلماء في القراءات، ونادرة من نوادر الأيام، جمع كثيرا من العلوم حتى أصبح لا يبارى، كان عالما باختلاف المذاهب، مطّلعا بالملل والنحل، له كتاب شرح السلم في المنطق، والأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية، والفوائد السنية في علم آداب البحث، توفي سنة ١٢٧٠هـ. ينظر التفسير والمفسرون (١/٣٥٢-٣٥٤).

المؤمنين؛ كأنه قيل: عسير على الكافرين غير يسير عليهم، كما هو يسير علي أضدادهم المؤمنين؛ ففيه جمع بين وعيد الكافرين وزياد غيظهم، وبشارة المؤمنين وتسليتهم».[(١)]

وقال الشيخ الشنقيطي[(٢)]رحمه الله:

« إنّ يوم القيامة يطول على الكفّار، ويقصر على المؤمنين، ويشهد لهذا قوله تعالى:﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً ﴾ .[(٣)] فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين يدلّ على أنّ المؤمنين ليسوا كذلك.

وقوله تعالى: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ .[(٤)] يدل بمفهومه أيضا أنه يسير على على المؤمنين غير عسير ...ومن المعلوم أنّ السرور يقصر به الزمن؛ والكروب والهموم سبب لطوله».[(٥)]

أما ما يدل على خفة ذلك اليوم على المؤمن من السنة ما رواه أبو هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال:

(يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة؛ يهون ذلك على المؤمنين كتدلّي الشمس للغروب إلى أن تغرب).[(٦)]

---

(١) روح المعاني (١٢١/٢٩).

(٢) الشنقيطي هو محمد الأمين بن محمد المختار الجكني ولد عام ١٣٢٥هـ بشنقيط ، واجتهد في طلب العلم ، وكان آية في التفسير والأصول؛ له مؤلفات كثيرة كما كان له جهود في الدعوة ونشر العلم، وكان زاهدا ورعا تقيا، توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٩٣هـ. ينظر ترجمته في المجلد الأول من كتاب أضواء البيان ص(٩-٢٦)

(٣) سورة الفرقان الآية (٢٦).

(٤) سورة المدثر الآية (٩-١٠).

(٥) أضواء البيان (٢٤٣/٩).

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٢٨/١٦) برقم (٧٣٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٦/٣) برقم (٣٥٨٩).

- بيان عدم التعارض بين قوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ .[١] وبين ما ذُكر عن أهل الموقف من أقوال.

قد وردت في القرآن الكريم والسنة المطهّرة نصوص كثيرة تحكي وتذكر ما يصدر من أهل هذا الموقف من أقوال: من تخاصم، وتساؤل، وتلاوم، واعتذار، كما يأتي ذكرها إن شاء الله؛ ووردت نصوص أخرى تفيد أنّ أهل الموقف لا ينطقون، ولا يتساءلون، مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .[٢]

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ .[٣]

وقوله: ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ .[٤]

وليس بين هذه النصوص تعارضٌ كما يتوهّمه البعض، حيث ذكر العلماء في الجمع بينها جوابين:

أحدهما: أنّ ما جاء في نفي النطق عن أهل الموقف يُحمل على ساعة من ساعات هذا اليوم، لا أنهم لا ينطقون كل اليوم.

وقد أُثر هذا عن ابن عباس ﷺ،فقد سئل عن قول الله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ .[٥] فقال: إنه يوم طويل، وفيه مواقف؛ تأتي عليهم ساعة لا لا ينطقون، ثم يؤذن لهم فيختصمون، ثم يمكثون ما شاء الله يحلفون ويجهدون، فإذا فعلوا

---

(١) سورة المرسلات الآية (٣٥).

(٢) سورة القصص الآية (٦٥-٦٦).

(٣) سورة النمل الآية (٨٣-٨٥).

(٤) سورة المرسلات الآية (٣٥).

(٥) سورة الزمر الآية (٣١).

ذلك ختم الله على أفواههم، ويأمر جوارحهم فتشهد على أعمالهم بما صنعوا، ثم تنطــق ألسنتهم؛ فيشهدون على أنفسهم بما صنعوا.[١]

وقال الإمام الطبري[٢]رحمه الله :« وقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ يُخبر عنهم أنّهم لا ينطقون في بعض أحوال ذلك اليوم، لا أهم لا ينطقون ذلك اليوم كله.

فإن قيل: فهل مِن برهانٍ يُعلم به حقيقة ذلك؟

قيل: نعم؛ وذلك إضافة «يوم» إلى قوله «لا ينطقون»، والعرب لا تضيف اليومَ إلى فعــلٍ يُفعل إلاّ إذا أرادت الساعة من اليوم والوقت منه؛ وذلك كقولهم : آتيك يوم يَقْدُم فلان، وأتَيْتك يوم زارك أخوك، فمعلوم أنّ معنى ذلك: أتيتك ساعة زارك، أو آتيك ساعة يَقدُم، وأنه لم يكن إتيانه إيّاه اليوم كلّه، لأنّ ذلك لو كان أخذ اليوم كلّه لم يضف اليوم إلى فعل يُفعل».[٣]

والجواب الثاني: أنّ النّطق المنفي في النصوص هو النطق المسموع المقبول، الذي ينتفعــون به، ويكون لهم في مثله إقامة حجّة وخلاص، لا نفي النطق مطلقا، وأنّ هذا النفي يجــري مجرى قولهم:«خرس فلان عن حجته »؛«وحضرنا فلانا يناظر فلانا، فلم نَرَه قال شــيئا» وإن كان الذي وُصف بالخرس؛ والذي نُفي عنه القول قد تكلّم بكلام كثير، إلا أنّه –من حيث لم يكن فيه حجة؛ و لم يتضمن منفعة– جاز إطلاق ذلك عليه.[٤]

---

(١) ينظر الدر المنثور (٣٨٧/٨)، وتفسير مجاهد (٧١٨/٢)، وفتح القدير (٥٠٦/٥).

(٢) الطبري هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الإمام العلم المجتهدصاحب التصانيف البديعة، ولد سنة ٢٢٤هــ وكان كثير الترحال في طلب العلم. كان ثقة صادقا حافظا رأسا في التفسير، إماما في اللغة والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفا بالقراءات وغير ذلك، لــه كتاب «التفسير»و«اختلاف علماء الأمصار»و«تهذيب الآثار»،توفي سنة ٣١٠هــ. ينظر السير (٢٧٦/١٤-٢٨٢).

(٣) تفسير الطبري (٣٩١/١٢).

(٤) ينظر روح المعاني (١٤٠/١٢)، وتفسير البيضاوي (٢٦١/١).

الفصل الأول: أقوال الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في الموقف ودلالاتها العقدية.

إنّ أهل الموقف تدنو عليهم الشمس يوم القيامة، ويغشاهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، فيأتون إلى عدد من الأنبياء ليشفعوا لهم إلى الله تعالى؛ ليريحهم من طول الموقف؛ ويفصل القضاء بينهم.

وقد ثبت أنهم سيقدّموا أمام طلبهم هذا مقدمةً خاصّة مع كل نبي من الأنبياء ؛ يذكرون فيها بعض ما خصّ الله به ذلك النبيّ من خصائص.

ولما كانت هذه الأقوال تعتبر أوّل ما يجري للخلق من مخاطبات في ذلك اليوم، ناسب ذكرها ودراستها قبل ذكر أقوال الأنبياء والرسل؛ وذلك مراعاة للترتيب.

تمهيد: أقوال عامة الناس في الموقف، ودلالاتها العقدية.

المطلب الأول: قول بعضهم لبعض« ألا ترون ما أنتم فيه، ألا ترون ما قد بلغكم؟»

هذه المخاطبة بين أهل الموقف جزء من حديث رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال:

(...يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ومالا يحتملون؛ فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟..).(١)

الشرح:

قو له ﷺ:« يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس » أي: يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في أرض واسعة مستوية، بحيث يُسمعهم الداعي؛ ويبلغهم ويحيط بهم كلهم أبصار الناظرين، لاستواء الصعيد، وعدم وجود ما يستتربه أحد عن الناظرين.

وقوله ﷺ:« فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ومالا يحتملون؛فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ »أي: فيلحق الناس من الغم والهمّ الشديد مالا يقدرون على الصبر عليه، فيجزعون ويفزعون ويقول بعضهم لبعض: ألا ترون ما لحقكم من الغم أو الكرب.(٢)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ برقم (٣٣٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤)، واللفظ له.

(٢) ينظر شرح النووي على مسلم (٦٦/٣)، وتحفة الأحوذي (١٠٣/٤-١٠٤).

الدلالات العقدية.

قد اشتمل هذا الجزء من مخاطبات أهل الموقف على ما يلي من الدلالات العقدية.

الأولى: إثبات مخاطبة أهل الموقف بعضهم لبعض.

إنّ في قول بعض أهل الموقف لبعض:« ألا ترون ما أنتم فيه؟» إثباتَ مخاطبة أهل الموقف بعضهم لبعض عندما يؤذن لهم بذلك، وفي هذا تأكيد على ما سبق من أنّ ما ورد في نفي الكلام عن أهل الموقف إنما يُحمل على فترة من فتراته وساعة من ساعاته كما سبق بيانه.

قال الإمام القرطبي(١) في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (٢)

«وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدين؛ فيقول: لِمَ قال: ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ و ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (٣) وقال في موضع من ذكر القيامة: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٤) وقال: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ (٥) وقال: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ (٦) وقال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ .(٧) والجواب ما ذكرناه؛ وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضا، وطرح بعضهم الذنوب على بعض، فأمّا التكلم والنطق بحجة لهم فلا. وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيرا وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء؛ فسُمِّي من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم.وقال قوم : ذلك اليوم طويل، وله مواطن ومواقف؛ في بعضها يمنعون من الكلام، وفي بعضها يطلق لهم الكلام».(٨)

---

(١) سبقت ترجمته.ص (٢٤).

(٢) سورة هود الآية (١٠٥).

(٣) سورة المرسلات (٣٥-٣٦).

(٤) سورة الصافات الآية (٢٧).

(٥) سورة النحل الآية (١١١).

(٦) سورة الصافات الآية (٢٤).

(٧) سورة الرحمن الآية (٣٩).

(٨) تفسير القرطبي (٩/٨٣).

وقال الحافظ ابن كثير[١] رحمه الله في بيان معنى قوله تعالى﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾[٢] قال:« ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي: لا يتكلّمون﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا؛ بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون.

وعرصات القيامة حالات؛ والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحالة تارة ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ».[٣]

الثانية: أنّ في الموقف غمّا وهمّا يدرك عامة الناس.

إن في قول بعض أهل الموقف لبعض:« ألا ترون ما قد بلغكم» أي: ألا ترون ما لحقكم من الغم أو الكرب دليلا على أنه يكون في الموقف غم وكرب يلحق الناس من طول قيامهم في الموقف، وشدّة حرّ الشمس عليهم، أو لغير ذلك من الأمور الجسام التي تحدث في ذلك اليوم.

فقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال:(تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، قال الراوي: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض؟ أم الميل الذي تكتحل به العين؟ قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه).[٤]

وفي رواية عند الحاكم أن النبي ﷺ قال:(تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس؛ فمن الناس من يبلغ عرقه إلى كعبيه، و منهم من يبلغ إلى نصف الساق، و منهم من يبلغ إلى ركبتيه، و منهم من يبلغ العجز، و منهم من يبلغ الخاصرة، و منهم من يبلغ منكبيه، و منهم من يبلغ عنقه، و منهم من يبلغ وسط فيه – و أشار بيده فألجمها فاه؛ ... و منهم

---

(١) سبقت ترجمته.ص (٧٠).

(٢) سورة المرسلات الآية (٣٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٣٠١٩).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، برقم (٢٨٦٤).

من يغطيه عرقه – و ضرب بيده إشارة؛ فأمرّ يده فوق رأسه من غير أن يصيب الرأس دور راحته يمينا و شمالا).[١]

وروى ابن المبارك[٢]عن سلمان [٣] رضي الله عنه قال:

(تدنى الشمس من الناس يوم القيامة حتى تكون من رؤوسهم قاب قوسين، فتُعطَى حرّ عشر سنين، و ليس على أحد يومئذ طحربة [٤]و لا يرى فيها عورة مؤمن و لا مؤمنة. ولا يضر حرّها يومئذ مؤمنا مؤمنا و لا مؤمنة، و أمّا الآخرون أو قال الكفار فتطبخهم طبخا، فإنما تقول أجوافهم: غق غق[٥]).[٦]

فهذه الأحاديث ظاهر في أنّ الناس يستوون في وصول العرق إليهم، ويتفاوتون في حصوله فيهم.[٧]

والشّمس لا يضرّ حرّها في ذلك اليوم مؤمنا كامل الإيمان، أو من استظل بظل عرش الرحمن؛ وأمّا غير هؤلاء فمتفاوتون في العرق على قدر أعمالهم.[٨]

قال الشيخ محمد بن أبي جمرة:[٩]

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٦١٥) برقم (٨٧٠٤) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) سبقت ترجمته.ص (٦٦).

(٣) سبقت ترجمته.ص (٨٤).

(٤) الطُحْرُبة بضم الطاءِ والراءِ وكسرهما وبالحاءِ والخاءِ اللباس وقيل الخرقة وأكثر ما يُستعمل في النفي؛ فيقال:ما في السماءِ طِحْرِبةٌ، أي قطعة من السحاب.ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٢٥٤)، وللسان(١/٥٥٦).

(٥) غَقَّ غَقَّ: حكايةُ لصوتِ الغَلَيَانِ؛ يُقَالُ : غَقّ القدر يغق؛ إِذَا غَلاَ. ينظر غريب الحديث لابن الجوزي (٢/١٦٠)، وغريب الحديث للحربي (٣/١١٨٤).

(٦) أخرجه بن المبارك في كتابه الزهد والرقائق ص (١٠٠) برقم (٣٤٧)، وقال ابن حجر سنده جيد. ينظر فتح الباري (١١/٣٩٤).

(٧) ينظر فتح الباري (١١/٣٩٤).

(٨) ينظر التذكرة (٢/٥٩١).

(٩) محمد بن أبي جمرة هو الشيخ الإمام المعمّر مسند المغرب أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك الأموي مولاهم، كان بصيرا بمذهب مالك عاكفا على نشره، صنف كتاب نتائج الأفكار في معاني الآثار، مات بمرسية ٥٩٩هـ عن نيف وثمانين سنة. ينظر السير (٢١/٣٩٨).

« ظاهر الحديث تعميم الناس بذلك؛ ولكن دلت الأحاديث الأخرى على أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر، ويستثنى الأنبياء والشهداء ومن شاء الله، فأشدّهم في العرق الكفّار، ثم أصحاب الكبائر، ثم مَن بعدهم والمسلمون منهم قليل بالنسبة إلى الكفار».(١)

و لا تستبعد أن يكون الناس كلهم في صعيد واحد و موقف سواء؛ يشرب أحدهم من الحوض و لا يشرب الغير، و يكون النور يسعى بين يدي البعض والبعض في الظلمات مع قرب المكان و ازدحام الناس؛ و يكون أحدهم يغرق في عرقه حتى يلجمه و البعض يبلغ منه عرقه ما شاء الله؛ فكل واحد يقوم وعرقه معه، وهذا خلاف المعتاد في الدنيا، فإنّ الجماعة إذا وقفوا في الأرض المعتدلة أخذهم الماء أخذا واحدا، ولا يتفاوتون لاستواء الأرض ومجاورة المحل، وهذا من القدرة التي تخرق العادات في زمن الآيات.(٢)

ومن تأمّل الحالة المذكورة عرف عظم الهول فيها، وذلك أنّ النار تحفّ بأرض الموقف؛ وتُدنى الشمس من الرءوس قدر ميل، فكيف تكون حرارة تلك الأرض؟ وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعا، مع أنّ كل واحد لا يجد إلاّ قدر موضع قدمه، فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم، مع تنوعهم فيه، إنّ هذا لـمِمَّا يبهر العقول، ويدل على عظيم القدرة، ويقتضى الإيمان بأنّ أمور الآخرة ليس للعقل فيها مجال، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس، ولا عادة؛ وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب؛ ومن توقّف في ذلك دلّ على خسرانه وحرمانه.

وفائدة الإخبار بذلك أن يتنبه السامع، فيأخذ في الأسباب التي تخلّصه من تلك الأهوال، ويبادر إلى التوبة من التبعات، ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة، ويتضرّع إليه في سلامته من دار الهوان، وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه(٣)

---

(١) فتح الباري (١١/٣٩٤).

(٢) ينظر التذكرة (٢/٥٩١-٥٩٢).

(٣) ينظر فتح الباري (١١/٣٩٤).

المطلب الثاني: قول بعضهم لبعض« ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم».

ورد في حديث أبي هريرة السابق أنّ أهل الموقف يتخاطبون فيقول بعضهم لبعض:

(ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم...).[١]

الشرح:

معنى قولهم « ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم».أي: ألا تتأمّلون وتتفكّرون فـيمن يشفع لكم إلى الله عزّ وجلّ؛ أو ألا تبصرون من يشفع لكم إلى الرب سبحانه ليريحكم من هذا الهم والغم.[٢]

الدلالات العقدية.

قد اشتمل قول أهل الموقف:« ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكـم» مـن الـدلالات العقدية ما يلي:

الأولى: أنّ الناس ينسون بعض ما علموه في الدنيا.

إنّ في قول أهل الموقف:« ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم» دليلا علـى أنّ النّـاس يغطّى عنهم بعض ما علموه في الدنيا فينسونه، لأنّ في السائلين من سمع في الدنيا حديث اختصاص النبي ﷺ بالشفاعة العظمى، ومع ذلك فلا يستحضر أحد منهم أنّ ذلك المقـام خاص له ﷺ ،إذ لو استحضروا ذلك لسألوه من أول وهلة، ولما احتاجوا إلى التردد من نبي إلى نبي، ولعلّ الله تعالى أنساهم ذلك للحكمة التي تترتب عليه من إظهار فضـل نبينـا محمدﷺ.[٣]

الثانية: بيان الجائز من طلب الشفاعة الأخروية.

دلّ هذا القول من أهل الموقف على جواز طلب الشفاعة الأخروية يوم القيامة ممن ثبت أنه يشفع في ذلك اليوم، إذ سؤال الشفاعة الأخروية على أربع صور:

الصورة الأولى: طلبها من الله؛ كأن نقول:« اللهم شفّع فينا خاتم النبيين».

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٤).

(٢) ينظر تحفة الأحوذي (١/٢٤٠).

(٣) ينظر فتح الباري (١١/٤٤١).

والصورة الثانية: طلبها في هذه الحياة ممن عُلم أنه من أهلها، وهو حيّ حاضر؛ كأن يقول الصحابي: يا رسول الله أسألك شفاعتك غدا يوم القيامة، كما فعل أنس ﷺ.

فقد روى الترمذي في سننه عنه أنه قال:

(سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة؛ فقال: أنا فاعل، قال: قلت يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال اطلبني أوّل ما تطلبني على الصّراط، قال: قلت فإن لم ألقك على الصّــراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان، قلت فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبني عند الحوض؛ فــإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن).(١)

الصورة الثالثة: طلبها من الشفيع يوم القيامة، وهي التي استُدِل لها بقول أهل الموقــف في هذا الحديث.« ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم».

وهذه الصور الثلاثة طلبها جائز.

والصورة الرابعة: أن يطلبها الحيّ من الميت؛ وهو بدعة- إن طلبها ممن عُلم أنه سيشــفع يوم القيامة، كالنبي ﷺ؛- إذ لم يُنقل فعل ذلك عن أحد من الصحابة، و لم يفعله أحد من أئمة المسلمين.

وأمّا إن طلبها الحي من غير النبي ﷺ ففيه من المفاسد: اعتقاد علم المدعوّ بالغيب، والجزم له بالجنة، وإدخال الطالب في المأذون بالشفاعة فيهم، ومن التزم هذه اللوازم فقد أشرك؛ أو كان منه قاب قوسين.(٢)

فإن قال قائل: أطلب شفاعة النبي ﷺ لأنهﷺ أُعطي الشفاعة، وطَلَبُها منه طلبٌ مما أعطاه الله؟

فالجواب أن يقال: إنّ طلب شفاعته منه بعد موته ﷺ دعاء له، والله أعطاه الشفاعة، ونهاك عن دعاء أحد غيره؛ فقال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ (٣) فإذا كنت ترجو الله أن يشفّع نبيــه فيك فأطعه في قوله هذا.

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في شــأن الصــراط، برقم (٢٤٣٣)،وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/٢٣٥) برقم (٣٢٢٥).

(٢) ينظر رسالة الشرك ومظاهره للميلي ص(٣٢٩-٣٣١).

(٣) سورة الجن الآية (١٨).

وأيضا : فإن الشفاعة أُعطِيَها غير النبي ﷺ فصحّ أن الملائكة يشــفعون؛ والأفــراط.(١) يشفعون؛ أتقول: أنّ الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم؟.

فإن قلت هذا؛ رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكره الله في كتابه عــن المشــركين، وإن قلت :لا؛ بطل قولك: أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله.(٢)

فالنبي ﷺ والرسل عليهم الصلاة والسلام من قبله لم يأمروا أحدا أن يســأل أو يطلــب الشفاعة إلى الله من ميت ولا غائب؛ لا نبي ولا ملك، ولم يأمروا أحدا بأن يدعو الملائكة والأنبياء والصالحين الموتى والغائبين ويقول اشفعوا لنا إلى الله.(٣)

فإن قال قائل: أنا أعلم أنّ الأنبياء والصالحون لا يشفعون إلاّ بإذنه؛ لكن أدعوهم ليأذن الله لهم في الشفاعة لي؟.

قيل: فإنّ الله لم يجعل الشرك به ودعاء غيره سببا لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لغضبه ولهذا نهى عن دعاء غيره في غير آية فقال: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .(٤) فتبين أنّ دعاء الصالحين من الملائكة والأنبياء وغيرهم شرك كما كان المشركون الأوّلون يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله، فأنكر الله عليهم ذلك، وأخبر أنّه لا يرضاه، ولا يأمر به.(٥)

الثالثة: إثبات قسم من أقسام التوسل المشروع.

إنّ ممّا تضمنه أيضا قول أهل الموقف:« ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم» إثبات نوع من أنواع التوسّل المشروع، وهو التوسّل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح، الذي ترجى له الإجابة من الله تعالى.

فالتوسل المشروع الذي دلّت عليه نصوص الكتاب والسنة وجرى عليه عمــل الســلف الصالح وأجمع عليه المسلمون ثلاثة أنواع وهي:

---

(١) الأفراط جمع فَرَط وهو من يتقدم القوم إلى الماء ليهيء لهم الدلاء والأرشية، ومنه قوله ﷺ « أنا فَرَطُكم على الحَوْض »أي: مُتَقَدِّكُم إليه، ويُطلق على الطفل المسلم الميت باعتباره أجرا متقدما لوالديه.ينظر النهاية في غريب الحديث (٨٣١/٣).

(٢) ينظر كشف الشبهات ص (٢٢).

(٣) ينظر الجواب الصحيح (١١٣/٣).

(٤) سورة يونس الآية (١٠٦).

(٥) ينظر تيسير العزيز الحميد ص (٢٤٢).

– التوسل باسم من أسماء الله تبارك وتعالى أو صفة من صفاته.

– التوسل بعمل صالح قام به الداعي.

– التوسل بدعاء رجل صالح حي حاضر؛ كأن يقع المسلم في ضيق شديد، أو تحلّ به مصيبة كبيرة، فيحب أن يأخذ بسبب قويّ إلى الله، فيذهب إلى رجل يظنّ فيه الصلاح والتقوى، أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة؛ فيطلب منه أن يدعو له ربه؛ ليفرج عنه كربه؛ ويزيل عنه همه.(١)

وهذا الأخير هو الذي يُستدل له بقول أهل الموقف:« ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم».(٢)

وقد دل عليه من السنة أدلة أخرى؛ منها:

–ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ:(أنّ رجلا دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان نحو دار القضاء، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائما، ثم قال: يا رسول الله؛ هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يُغِثْنا. فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا؛ قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار؛ قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسّطت السماء انتشرت ثم أمطرت. قال: والله ما رأينا الشمس ستًّا؛ ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة – يعني الثانية – ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائما؛ فقال:

يا رسول الله؛ هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا. قال: فرفع رسول الله يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب، وبطون الأودية ومنابت الشجر. قال: فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس).(٣)

---

(١) ينظر التوسل للألباني ص (٣٨-٤٣)، وفتاوى أركان الإسلام للعثيمين ص (١٨٠).

(٢) ينظر التوسل والوسيلة ص(١٩٣،٨٥)،

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، برقم (١٠١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء، برقم (٨٩٧).

وهذا النوع من التوسل -وإن كان مشروعا جائزا لطالب الدعاء والمطلوب منه جميعا- إلاّ أنّ العلماء رحمهم الله قد نبّهوا على أنه لا ينبغي للإنسان أن ينصب نفسه للدعاء لمـــا في ذلك من المفاسد؛ منها:

١- أن ذلك قد يجرّه إلى أن يعتقد أنه أفضل ممن جاء يطلب منه الدعاء.

٢- أن الطالب قد يعتقد فيه أنه مثل النبي ﷺفي تحقق إجابة الدعاء.

٣- أن الناس قد يعتقدون أنّ ذلك سنة تلزم الناس، فيتركون الـــدعاء بأنفســـهم، متّكلين على دعاء غيرهم.

ولهذه المحاذير كان بعض السلف يكره أن يُطلب منه الدعاء.[(١)]

(١) ينظر الاعتصام للشاطبي (٣٠٤/١)، ورسالة الشرك ومظاهره للميلي ص(٢٨٠-٢٨١).

المطلب الثالث: قولهم لآدم عليه السلام« أنت أبو البشر، خلقك الله بيده،...».

هذه أيضا من المخاطبات التي ثبتت لعامّة أهل الموقف؛ فقد ورد في حديث أبي هريرة السابق أنّ النبي ﷺ قال:

(...فيقول بعض الناس لبعض ائتوا آدم، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر؛ خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا في ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟...).(١)

وقد ورد في لفظ البخاري زيادة (...وأسكنك الجنة...).(٢)

الدلالات العقدية.

قد اشتمل هذا الخطاب من أهل الموقف على ما يأتي من الدلالات العقدية:

الأولى: إثبات بعضٍ من خصائص آدم عليه السلام.

دلّ قول أهل الموقف« يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك،»وفي رواية «وأسكنك الجنة»على إثبات خمس خصائص لآدم عليه السلاموقد جاءت ذكر هذه الخصائص في حديث محاجّة آدم وموسى عليهما السلام؛ فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (احتجّ آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما فحجّ آدم موسى؛ قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ؟...).(٣)

وثبت كونه عليه السلام أبا البشر أيضا بقوله تعالى:﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ﴾ .(٤) فأثبت بنوة البشر له بقوله:﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ وأُبوّته للبشر بقوله: ﴿أَبَوَيْكُمْ﴾ .

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء، باب﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ برقم (٣٣٤٠)

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام،برقم (٢٦٥٢).

(٤) سورة الأعراف الآية (٢٧).

الثانية: إثبات صفة اليد لله تعالى.

إنّ ممّا دل عليه مخاطبات عامّة أهل الموقف لآدم ﷺ إثباتَ صفة اليدين لله تعالى على الحقيقة التي تليق به سبحانه وتعالى؛ ، وذلك في قولهم له «...خلقك الله بيده...» وقد ورد في ثبوت هذه الصفة لله تعالى نصوص عدة من الكتاب والسنة.

أمّا من الكتاب فمنها قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (١) فهذا التركيب المذكور في هذه الآية يأبى حمل معنى اليد فيها إلاّ على اليد الحقيقية؛ لأنّه تعالى نسب فيه الخلق إلى نفسه، ثم عدّى الفعل إلى اليد، ثم أدخل عليه الباء التي تدخل على قولك:«كتبت بالقلم»، ثم ثنىّ لفظ اليد، ولا يستعمل لفظ اليد بصيغة التثنية إلاّ في اليد الحقيقية.(٢)

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (٣)

أمّا من السنة فمنها: قول النبي ﷺ: (إنّ الله عزّ وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها).(٤)

وقوله ﷺ:(من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب- ولا يصعد إلى الله إلاّ الطيب-فإنّ الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فُلُوّه.(٥)حتى تكون مثل الجبل).(٦)

وقوله ﷺ: (إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا

(١) سورة ص الآية (٧٥).

(٢) ينظر مختصر الصواعق ص (٣٩٣-٣٩٤).

(٣) سورة المائدة الآية (٦٤).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، وإن تكررت الذنوب والتوبة، برقم (٢٧٥٩).

(٥) الفَلُوُّ : المُهْرُ الصَّغير .وقيل : هو الفَطِيم من أوْلاد ذَواتِ الحافِر. ينظر: النهاية في غريب الحديث (٣/٩٢٦).

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ برقم (١٤١٠).

يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[١]،[٢].

فهذه الأحاديث وما ضاهاها وما جاء في معناها من كمال الدين وتمام السنة الإيمان بها والقبول لها، وتلقيها بترك الاعتراض عليها، واتباع آثار السلف في روايتها بلا كيف ولا لِمَ؛ فإنّ التنقيب والبحث عن ذلك يوقع الشك، ويزيل القلب عن مستقر الإيقان، ويزحزحه عن طمأنينة الإيمان.

فإنّ كثيرا من الناس فتنوا بكثرة السؤال والتنقيب والفحص عن معاني أحاديث فلم يزالوا بذلك وعلى ذلك حتى أشربوا في قلوبهم الفتن والمحن، فلجّوا في بحار الشك، فصار بهم إلى رد السنن والتكذيب لما جاء في نص التنزيل، وما صحت به الرواية عن الرسول ﷺ.

وقالوا لا نقبل ولا يجوز أن نصف الله إلا بما قبله المعقول.

وقالوا لا نقول إنّ لله يدين؛ لأن اليدين لا تكون إلا بالأصابع وكف وساعدين وراحة ومفاصل، ففروا بزعمهم من التشبيه وفيه وقعوا وإليه صاروا.[٣]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل... برقم (١٨٢٧).

(٢) وينظر الحجة في بيان المحجة (١/٢٠١-٢٠٦).

(٣) ينظر الإبانة لابن بطة (٣/٣١٣-٣١٤).

الثالثة: الرد على من أول لفظ اليد.

إنّ مما يتضمنه قول أهل الموقف لآدم عليه السلام«...خلقك الله بيده...» أيضا الردّ على الجهمية وعلى الأشاعرة[(١)] الذين أنكروا أن يكون لله تعالى يدا حقيقيّة، وقالوا المراد باليد في النصوص إمّا النعمة، أو القدرة، أو الرزق.[(٢)]

ووجه الرد عليهم بذلك: أنّ أهل الموقف إنما ذكروا خلق الله آدمَ بيده لَمّا سألوه أن يشفع لهم إلى الله تعالى لكون ذلك من النعم التي خصّه الله بها من بين سائر المخلوقين؛ فلو كان المراد منها القدرة لَمّا كان في ذكرها فائدة، ولــمّا كان ذلك فضيلةً اختص بها آدم، لأنّ الله خلق سائر الخلق بقدرته.[(٣)]

فمن اعتقد أنّ معنى اليد في النصوص إنما المراد بها القدرة أو النعمة؛ فقد نفى عن أبيه آدم أفضل فضائله، وأشرف مناقبه؛ لأنّه ليس له -عليه السلام- فضيلة أفضل من أنّ الله خلقه بيده من بين خلائقه، وفضّله بها على جميع الأنبياء والرسل والملائكة؛ ولذلك قيل: إنه لم يكن لآدم ابن أعقّ ممّن ينفي عنه ما فضّله الله به على الأنبياء والرسل والملائكة المقرّبين.[(٤)]

قال الإمام ابن خزيمة [(٥)]رحمه الله: «نقول: إنّ لله عز وجل يدين يمينين لا شمال فيهما؛ قد أعلمنا الله تبارك وتعالى أنّ له يدين وخبرنا نبينا أنهما يمينان لا شمال فيهما؛ ونقول: إنّ من كان من بني آدم سليم الجوارح والأعضاء فله يدان؛ يمين وشمال ولا نقول إنّ يد المخلوقين كيد الخالق عزّ ربنا عن أن تكون يده كيد خلقه».[(٦)]

---

(١) سبق التعريف بهاتين الفرقتين.ص (١٢٩).

(٢) ينظر النقض للدارمي (١/٢٨٤،٢٤٢)، والعلو للذهبي ص (١٩٨)، والتحرير والتنـــوير لابـــن عاشور ص (٢٣/٣٠٢)؛(٢٦/١٥٨)، وتفسير القرطبي (٦/٢٢٤).

(٣) ينظر مجموع الفتاوى (٤/٣٦٦) ومختصر الصواعق ص (١٩٣-١٩٤).

(٤) ينظر النقض للدارمي (١/٢٥٥-٢٥٦)، والإبانة للأشعري ص (١٢٩).

(٥) ابن خزيمة هو الحافظ الحجة الفقيه شيخ الإسلام وإمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري، يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان، توفي سنة ٣١١هــ.ينظر السير (١٤/٣٦٥)

(٦) التوحيد لابن خزيمة (١/٦١- ٦٢).

الرابعة: بيان أنواع المضافات إلى الله.

إنّ في قول أهل الموقف لآدم ﷺ «ونفخ فيك من روحه »، إضافة الروح إلى الله؛ وهو من باب إضافة المِلك إلى مالكه.[١] وهذا مثل قولك: عبد الله، وناقة الله، وبيت الله. فإضافة الروح إلى الله إضافة ملك لا إضافة وصف، إذ كل ما يضاف إلى الله إن كان عينا قائمة بنفسها فهو ملك له، وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محلّ تقوم به فهو صفة لله تعالى .[٢]

قال شيخ الإسلام[٣]رحمه الله:

« المضافات إلى الله نوعان: أعيان وصفات.

فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك دلت الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به، ليست مخلوقة، لأنّ الصفة لا تقوم بنفسها، فلا بدّ لها من موصوف تقوم به، فإذا أضيفت إليه عُلم أنها صفة له....

وأمّا الأعيان إذا أضيفت إلى الله تعالى فإمّا أن تضاف بالجهة العامّة التي يشترك فيها المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة له ومقدورة ونحو ذلك؛ فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله هذا خلق الله.

وقد يضاف لمعنى يختصّ بها يميّز به المضاف عن غيره مثل بيت الله، وناقة الله وعبد الله وروح الله، فمن المعلوم اختصاص ناقة صالح بما تميزت به عن سائر النياق، وكذلك اختصاص الكعبة واختصاص العبد الصالح الذي عَبدَ الله وأطاع أمره، وكذلك الروح المقدسة التي امتازت بما فارقت به غيرها من الأرواح، فإن المخلوقات اشتركت في كونها مخلوقة مملوكة مربوبة لله، يجري عليها حكمه وقضاؤه وقدره وهذه الإضافة لا اختصاص فيها ولا فضيلة للمضاف على غيره، وامتاز بعضها بأنّ الله يحبه ويرضاه، ويصطفيه ويقرّبه إليه ويأمر به أو يعظّمه ويحبّه فهذه الإضافة يختص بها بعض المخلوقات كإضافة البيت والناقة والروح وعباد الله من هذا الباب ».[٤]

---

(١) ينظر الفصل (١٠٤/٢).

(٢) ينظر مجموع الفتاوى (٢٩٠/٩-٢٩١).

(٣) سبقت ترجمته. ص (٣٩).

(٤) الجواب الصحيح (١٥٨/٢-١٥٩).

الخامسة: بين نوع من أنواع السجود.

إنّ في قول أهل الموقف لنبي الله آدم الطَّيْلاِ « وأمر الملائكة فسجدوا لك » إثباتا لنوع من أنواع السجود وهو سجود التحية، حيث اتفق المفسرون على أنّ المراد بالسجود في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .[١] وقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ .[٢] سجود تحية وسلام وإكرام ، وليس سجود عبادة.[٣]

قال البغوي[٤] رحمه الله:«وكان ذلك سجود تعظيم وتحيّة لا سجود عبادة ».[٥]

ومن سجود التحية ما أخبر الله به عن اخوة يوسف الطَّيْلاِ بقوله: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ .[٦]،[٧].

قال الحافظ بن كثير[٨] رحمه الله:« وقد كان هذا مشروعا في الأمم الماضية ولكنّه نُسخ في ملتنا؛ قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال: لا؛ لو كنت آمرا بشرا أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقّه عليها[٩]».[١٠]

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٤).

(٢) سورة الأعراف الآية (١١).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٣٣٢/١).

(٤) تأتي ترجمته. ص (٣٦٣).

(٥) تفسير البغوي (٨١/١).

(٦) سورة يوسف الآية (٩٩).

(٧) ينظر تفسير القرآن العظيم (١١٢/١).

(٨) سبقت ترجمته.ص (٧٠).

(٩) رواه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة، برقم (١١٥٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٠/٣)، برقم (١٢٠٣).

(١٠) تفسير القرآن العظيم (١١٢/١).

المطلب الرابع: قولهم لنوح عليه السلام« أنت أول الرسل إلى الأرض...».

قد ورد أيضا في حديث أبي هريرة السابق أنّ آدم عليه السلام حوّل أهل الموقف إلى نوح عليه السلام بعد اعتذاره عن الشفاعة لهم، وأنهم يأتون نوحا عليه السلام فيقولون:

(...يا نوح؛ أنت أوّل الرسل إلى الأرض، وسمّاك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك،...).[1]

الشرح.

قوله ﷺ :«وسمّاك الله عبدا شكورا» هذا إشارة إلى قوله تعالى في الثناء على نبيه نوح عليه السلام ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ .[2]،[3]أي: أن نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا شكورا لله على نعمه.[4]

الدلالات العقدية.

إن في قول أهل الموقف لنوح عليه السلام «يا نوح؛ أنت أوّل الرسل إلى الأرض، وسمّاك الله عبدا شكورا » إثبات خاصيتين من خصائص نوح عليه السلام.

الخاصية الأولى: كونه عليه السلام أول الرسل إلى أهل الأرض.

دل قول أهل الموقف لنوح عليه السلام« يا نوح؛ أنت أوّل الرسل إلى الأرض» على إثبات اختصاص نوح عليه السلام؛ بكونه أوّل الرسل إلى أهل الأرض.

وقد استُشكِل هذه الأوّلية بأنّ آدم عليه السلام كان نبيا قبله، وبالضرورة تُعلم أنّه كان على شريعة من العبادة، وأنّ أولاده أخذوا ذلك عنه، فعلى هذا فهو رسول إليهم، فيكون هو أول رسول.

وقد أجاب العلماء رحمهم الله عن هذا الاستشكال بعدة أجوبة:

الأول: أنه يحتمل أن تكون الأوّلية في قول أهل الموقف لنوح مقيّدة بقولهم: «إلى أهل الأرض»؛

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٤).

(٢) سورة الإسراء الآية (٣).

(٣) ينظر فتح الباري (٣٧٣/٦).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٨/٨).

لأنّه في زمن آدم عليه السلام لم يكن للأرض أهل؛ أو لأنّ رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد؛ وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة.

وأمّا نوح عليه السلام فكانت رسالته إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم، وكانوا متفرّقين في عدة بلاد.(١)

الثاني: أن يكون المراد أنّ نوحا أوّل الرسل والنبيين بعد الاختلاف؛ لأنّ أمته أوّل من اختلف، وغيّر، وبدّل، وكذّب، وإلاّ فآدم قبله كان نبيا رسولا، وكان الناس أمة واحدة على دينه ودين وصيّه شيث عليه السلام، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وابن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.(٢) قالوا: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.(٣)

الثالث: أنّ المراد من قول أهل الموقف لنوح عليه السلام «أنت أول الرسل إلى الأرض» أنه عليه السلام كان أوّل رسول أرسل إلى قوم كفّار؛ أي: أنّ رسالته عليه السلام كانت إلى كفّار أهل الأرض؛ بخلاف رسالة آدم وشيث عليهما السلام؛ فإنها كانت إلى بنيهما؛ وقد كانوا قوما مؤمنين.(٤)

الرابع: أن يكون المراد بقولهم: «يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض» أنه عليه السلام أول رسول هلك قومُه بعذاب من الله تعالى.(٥)

والله تعالى أعلم.

الخاصية الثانية: تسمية الله تعالى له عليه السلام بالعبد الشكور.

إنّ في قول أهل الموقف لنوح عليه السلام «وسمّاك الله عبدا شكورا» دليلا على أنّ الله سبحانه وتعالى سمّى نبيه نوحا عليه السلام عبدا شكورا؛ كما قال تعالى في القرآن الكريم:

---

(١) ينظر فتح الباري (٣٧٢/٦-٣٧٣) وعمدة القاري (٢٢١/١٥).

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٣.

(٣) ينظر معارج القبول (٦٧٨/٢).

(٤) ينظر شرح النووي على مسلم (٥٥/٣)، والديباج للسيوطي (٢٦٠/١).

(٥) ينظر عمدة القاري (٢٢١/١٥).

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾.[(١)]

وقد ذكر في سبب تسمية نوح عليه السلام بالعبد الشكور أخبار، منها:

- ما روي عن سلمان رضي الله عنه[(٢)] أنه قال: (كان نوح إذا طعم طعاما، أو لبس ثوبا، حمد الله فسمّي عبدا شكورا).[(٣)]

ومنها: ما روى البيهقي أنّ النبي ﷺ قال :(إنّ نوحا عليه السلام لم يقم عن خلاء قط إلاّ قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته، و أبقى منفعته في جسدي، و أخرج عني أذاه).[(٤)]

وقيل:إنما سمّي نوح عبدا شكورا لأنّه كان إذا أكل الطعام قال: الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني؛ وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء أظمأني؛ وإذا لبس ثوبا قال: الحمد لله الذي كساني، ولو شاء أعراني؛ وإذا لبس نعلا قال: الحمد لله الذي حذّاني، ولو شاء أحفاني؛ وإذا قضى حاجة قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه، ولو شاء حبسه.[(٥)]

---

(١) سورة الإسراء الآية (٣).

(٢) سبقت ترجمته.ص (٨٤).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك(٣٩٢/٢) برقم (٣٣٧١)، وقال:« هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١١٣/٤)، برقم (٤٤٦٩).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٨/٨).

المطلب الخامس: قولهم لإبراهيم عليه السلام: « أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض».

ورد في حديث أبي هريرة السابق أيضا أنّ نبي الله نوحا عليه السلام بعد ما اعتذر عن الشفاعة لأهل الموقف حوّلهم إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام وأنهم أتوه فقالوا له:

« أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟..».[(١)]

الدلالات العقدية.

يشتمل قول أهل الموقف لإبراهيم عليه السلام « أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض » على ما يلي من الدلالات العقدية.

الأولى: إثبات خاصية من خصائص إبراهيم عليه السلام.

قد دل قول أهل الموقف لإبراهيم عليه السلام « أنت خليل الله » على إثبات ما خصّ الله به نبيه إبراهيم عليه السلام من الخلة؛ وقد دل على هذه الخاصية قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ .[(٢)]

والخليل من الْخلَّة بالضَّم: وهو الصَّداقة والمحَبَّة التي تَخَلَّلَت القَلْب فصارت في باطنه. وهو فعيل بمعنى مُفاعِل؛ وقد يكُون بمعنى مَفْعول.[(٣)]

والخلّة تتضمن كمال المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقى في قلب المحبّ سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه.[(٤)]

وهي آخر مراتب الحبّ وأعلاها؛ فالحبّ عشر مراتب، أولها: العلاقة؛ وسمّيت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

والثانية: الإرادة وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة: الصبابة؛ وهي انصباب القلب إلى المحبوب، بحيث لا يملكه صاحبه.

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٤).

(٢) سورة النساء الآية (١٢٥).

(٣) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر (١٤٥/٢).

(٤) ينظر الجواب الكافي ص (١٣٤).

الرابعة: الغرام؛ وهو الحبّ اللازم للقلب، الذي لا يفارقه بل يلازمه كملازمـــة الغـــريم لغريمه؛ ومنه سمي عذاب النار غراما؛ للزومه لأهله وعدم مفارقته لهم.
الخامسة: الوداد وهو صفو المحبّة وخالصها ولبّها.
السادسة: الشغف يقال: شغف بكذا فهو مشغوف به، وقد شغفه المحبوب؛ أي: وصـــل حبّه إلى شغاف قلبه؛ والشغاف: غشاء القلب؛ إذا وصل الحبّ إليه باشر القلب.
السابعة: العشق ؛ وهو الحبّ المفرط الذي يُخاف على صاحبه منه.
والثامنة: التّتيم؛ وهو التّعبد والتذلل، يقال: تيّمه الحبّ؛ أي: ذلّـــله وعبّده؛ وتَيْم الله عبد الله.
التاسعة: التّعبّد؛ وهو فوق التّتـــيّم؛ فإنّ العبد هو الذي قد ملك المحبوب رقّه، فلم يبق له شيء من نفسه البتة، بل كله عبد لمحبوبه ظاهرا وباطنا.
العاشرة: مرتبة الخلة؛ وهي المحبة التي تخلّلت روح المحبّ وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب.(١)

وهذا المنصب خصّ به الخليلان إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما فانفردا به.(٢) فقد روى مسلم في صحيحه أنّ النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإنّ الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ...).(٣)
وإنَّما خصّا بذلك لأنّ قلب كل واحد منهما كان مَقصورا على حُب الله تعالى، ولـــيس فيه لغيرِه مُتَّسَع ولا شركَة، وهذه حَال شريفَة لا ينالها أحدٌ بِكسْب واجْتِهاد، فإنَّ الطِّبَاع غالبَة، وإنما يَخُصّ الله بها من يشاء من عِبَادِه.(٤)

---

(١) ينظر مدارج السالكين (٣/٢٧-٣٠)، وشرح العقيدة الطحاوية ص (١٦٥).
(٢) ينظر الجواب الكافي ص (١٣٤) ومدارج السالكين (٣/٣٠).
(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المســاجد علــى القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، برقم (٥٣٢).
(٤) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/١٤٥).

وممّا سبق تقريره من ذكر مراتب المحبة ودرجاتها يتبين أنّ مرتبة الخلّة أعلى وأكمل من مرتبة المحبة؛ وأنّ ما يظنّه بعض الغالطين من أنّ المحبة أكمل من الخلة، وأنّ إبراهيم عليه السلام خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله، فمن جهلهم، فإنّ المحبة عامّة، والخلّة خاصّة، وهي نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أنّ الله قد اتخذه خليلا، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة، ولأبيها، ولعمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل[(١)] وغيرهم رضي الله عنهم.

وأيضا فإنّ الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الصابرين، ويحب المحسنين، وخلّته تعالى خاصّة بالخليلين عليهما السلام.[(٢)]

الثانية: إثبات صفة المحبة لله تعالى والرد على منكريها.

إنّ في قول أهل الموقف لإبراهيم عليه السلام « أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض...» دليلا على ثبوت صفة المحبة لله تعالى، وأنّه تعالى يُحِبّ، ويُحَبّ.

وقد دلت على ثبوت هذه الصفة لله تعالى عدة نصوص،منها: قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[(٣)] وقوله: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .[(٤)] وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[(٥)] وقوله: ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [(٦)].[(٧)] .

---

(١) معاذ بن جبل هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي الأنصاري الخزرجي؛ الإمام المقدّم في علم الحلال والحرام؛ شهد المشاهد كلها، وأمّره النبي ﷺ على اليمن؛ وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة ١٨هـ عن ٣٤ سنة. ينظر الإصابة(٦/١٣٦-١٣٧).

(٢) ينظر الجواب الكافي ص (١٣٥)، وشرح العقيدة الطحاوية ص (١٦٤).

(٣) سورة البقرة الآية (١٩٥).

(٤) سورة آل عمران الآية (٣١).

(٥) سورة المائدة الآية (٥٤).

(٦) سورة التوبة الآية (٧).

(٧) ينظر شرح العقيدة الواسطية للشيخ العثيمين (٢/٢٢٤-٢٤٠).

وقولهﷺ:(...إن الله يحبّ العبد التقيّ الغني الخفي).[١] وقولهﷺ:(من أحبّ الأنصار أحبه الله...).[٢]

قال شيخ الإسلام[٣]رحمه الله تعالى:«والذي دلّ عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ومشائخ الطريق إنّ الله يُحِبُّ ويُحَبّ».[٤]
واتّصافه تعالى بالمحبة والخلّة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، كسائر صفاته، فالله تعالى يوصف بهذه الأنواع من المحبة والإرادة والودّ والخلة حسبما ورد النص.[٥]
وقد تضمن قول أهل الموقف لإبراهيم عليه السلام« أنت نبي الله وخليله»كذلك ردا على الجهمية[٦]وغيرهم من المعتزلة[٧]والأشاعرة[٨] الذين أنكروا حقيقة المحبة بين الخالق والمخلوق؛ فالله عندهم لا يُحِبّ، ولا يُحَبّ ؛ قالوا: لأنّ المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحبّ والمحبوب ولا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة؛ ولأنّ في المحبة رقّة وميل نفس؛ والله منزّه عن ذلك.[٩]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٥).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، في المقدمة، باب فضل الأنصار، برقم (١٦٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٦٨٧/٢) برقم (٩٩١).

(٣) سبقت ترجمته. ص (٣٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٦٩٧/١٠).

(٥) ينظر شرح العقيدة الطحاوية ص (١٦٧).

(٦)سبق التعريف بهم.ص (٤٦).

(٧)سبق التعريف بهم.

(٨) سبق التعريف بهم. ص (١٢٩).

(٩) ينظر الكشاف للزمخشري (٢٨٤/١)، والمقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص (١٢٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٨/٣)،(٢٣٦/٦)، ، وشرح قصيدة ابن القيم ص (٢٩٣)، ومدارج السالكين (١٨/٣)، وشرح العقيدة الطحاوية ص (٣٩٤).

ولم يمكنهم تكذيب النصوص الواردة في إثبات محبة الله؛ ومحبة خلقه له؛ فأوّلوا ما تُثبت منها محبةَ العباد لله تعالى بمحبة طاعته وعبادته، والازدياد من الأعمال، لنيل الثواب.

وأما ما تثبت منها محبته تعالى للعباد؛ فيؤولونها بإحسانه إليهم، وإعطائهم الثواب، وربما أولوها بثنائه عليهم، ومدحه لهم، ونحو ذلك؛ وربما أوّلوها بإراداته لذلك.(١)

وأمّا الخُلة فيثبتونها بمعنى شدة رضى الله عن العبد؛ وشدّة فقر العبد وحاجته إلى الله؛ فكل فقير لله فهو خليله عندهم.(٢)

فيقال لهم أوّلا: إنّ هذه المحبة التي وصفتموها بأنها ميل في النفس، ورقة في القلب؛ إنما هي محبة المخلوق وخلّته؛ وللخالق سبحانه وتعالى محبة وخلّة خاصة به، فيُثبَتُ له تعالى محبةً خاصّة به لا تُشبِه محبةَ المخلوق؛ كما ثبت له قدرة وعلم وذات لا تشبه شيء منها صفات المخلوقين.

فمن أقرّ له تعالى حياة، وقدرة وسمعا وبصرا ويجعل كل ذلك حقيقة، ونازع في محبته تعالى ورضاه؛ ويجعل ذلك مجازا –كالأشاعرة– قيل له لا فرق بين ما أثبته، وبين ما نفيته؛ إذ القول في بعض الصفات كالقول في بعض.

ومن أقرّ له تعالى ذاتا على الحقيقة، ونازع في صفاته تعالى من المحبة وغيرها ويجعلها كلها مجازا –كالجهمية والمعتزلة– قيل له: لا فرق بين ما أثبته وبين ما نفيته؛ إذ القول في الصفات كالقول في الذات، فإذا كان لله تعالى ذاتا لا تماثل سائر الذوات؛ فالذات متّصفة بصفات لا تماثل سائر الصفات.(٣)

ثانيا: أنهم قد وقعوا في مثل ما فرّوا منه؛ ولزمهم في المعنى المصروف إليه نظير ما لزمهم في المعنى المصروف منه، وذلك أنهم لما فرّوا من وصفه تعالى بالمحبة بدعوى أنها رقة قلب وميل

---

(١) ينظر المقصد الأسنى للغزالي ص (١٢٢)، ومدارج السالكين (١٨/٣).

(٢) ينظر تفسير التحرير والتنوير (٢١١/٥)،وشرح قصيدة ابن القيم ص (٥١).

(٣) ينظر التدمرية ص (٣١-٤٢).

نفس، وصفوه بالإرادة؛ وهي أيضا ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة؛ فوقعوا فيما فرّوا منه؛ مع ما لزمهم من التحريف والتعطيل.[١]

أمّا قولهم بأنّ خلّة العبد لله معناها شدة حاجة العبد وفقره إليه تعالى، فقد لزمهم منه أنّ يكون جميع الخلق أخلاّء لله تعالى، حتى عابدي الأصنام؛ لأنهم كلّهم فقراء إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.[٢]،[٣].

قال ابن القيم[٤]رحمه الله:«فلو بطلت مسألة المحبة؛ لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطّلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذّل والحبّ والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإنّ الإله هو الذي يألهه العباد؛حبّا وذلاّ؛ وخوفا ورجاء؛ وتعظيما وطاعة له؛ بمعنى مألوه؛ وهو الذي تألهه القلوب أي: تحبّه وتذل له».[٥]

---

(١) ينظر التدمرية ص (٣١-٣٢)، والصواعق المرسلة (١/٢٣٤-٢٣٥).

(٢) سورة فاطر الآية (١٥).

(٣) ينظر قصيدة ابن القيم مع شرح أحمد بن إبراهيم بن عيسى (١/٥٠).

(٤) سبقت ترجمته. ص (٤٨).

(٥) ينظر مدارج السالكين (٣/٢٦).

المطلب السادس : قولهم لموسى عليه السلام:« ...فضّلك الله برسالاته وبتكليمه ».

ثبت في حديث أبي هريرة السابق أنّ أهل الموقف يذهبون إلى موسى عليه السلام بعد اعتذار إبراهيم عليه السلام عن الشفاعة لهم، ويخاطبونه بقولهم:

(...يا موسى أنت رسول الله؛ فضّلك الله برسالاته وبتكليمه على النّاس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟).(١)

الدلالات العقدية.

قد اشتمل قول أهل الموقف لموسى عليه السلام «فضّلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس» على ما يلي من الدلالات العقدية:

الأولى: إثبات خاصّية من خصائص موسى عليه السلام.

إنّ في قول هل الموقف لموسى عليه السلام «فضّلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس» إثباتَ ما خصّ الله به نبيه موسى عليه السلام من التكليم؛ وقد وردت أدلة أخرى من القرآن الكريم والسنة المطهّرة في إثبات هذه الخاصية له عليه السلام

أمّا في القرآن ففي قوله تعالى:

﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ .(٢)

فإنّه تعالى يعني: وخاطب الله بكلامه موسى خطابا.(٣) وهذا تشريف له عليه السلام بهذه الصفة ولهذا يقال له : الكليم.(٤)

وقال تعالى: ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .(٥)

أي: يا موسى؛ إني اخترتك على جميع الناس من الموجودين في زمانك برسالاتي التي أرسلتك بها إلى خلقي؛ وكلّمتك وناجيتك، دون غيرك من خلقي؛ فخذ ما أعطيتك من

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٤).

(٢) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٣) ينظر تفسير الطبري (٤/٣٦٧).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (١/٨٦٥).

(٥) سورة الأعراف الآية (١٤٤).

أمري ونهيي، وتمسّك به، واعمل به؛ وكن من الشاكرين لله على ما آتاك من رسالته، وخصّك به من النجوى بطاعته في أمره ونهيه، والمسارعة إلى رضاه.(١)

أمّا في السنة؛ ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ

(احتج آدم وموسى؛ فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟؛ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قُدّر عليّ قبل أن أُخلَق؛ فقال رسول الله ﷺ: فحجّ آدم موسى مرتين).(٢)

إلا أنه عليه السلام مع هذا الاصطفاء يأتي بعد الخليلين محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام في المرتبة؛ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:« ولا يلزم اصطفاؤه على محمّد ﷺ خاتم الأنبياء، والخليل عليه السلام لأدلة أخرى».(٣)

الثانية: إثبات صفة الكلام لله تعالى.

إنّ في قول أهل الموقف لموسى عليه السلام:«فضّلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس» دليلا على ثبوت صفة الكلام لله تعالى؛ وقد دلت على ثبوت هذه الصفة لله تعالى نصوص كثيرة منها: قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(٤) فقوله تعالى «تكليما»: مصدر معناه التّأكيد، ويدلّ على أنّ موسى عليه السلام سمع كلامه تعالى الحقيقي الذي يكون به المتكلّم متكلّما، حيث أجمع النحويّون على أنّك إذا أكّدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا، وأنه يجب حمله على الحقيقة الذي يُعقل.(٥)

ومنها أيضا: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾.(٦)

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٥٧/٦)، وتفسير القرآن العظيم (١٨٥٤/٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه،كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد،برقم(٣٤٠٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، برقم (٢٦٥٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١١٣٥/٢).

(٤) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (١٨/٦).

(٦) سورة الأعراف الآية (١٤٣).

ومن السنة: ما رواه أبو هريرة ﷺ أنّ النبي الله ﷺ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله؛ كأنه سلسلة على صفوان؛ فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير ...).(١)

وما في الصحيحين؛ أنّ رسول الله ﷺ قال:(إنّ الله تبارك وتعالى إذا أحبّ عبدا؛ نادى جبريل إنّ الله قد أحبّ فلانا فأحبّه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء إن الله قد أحبّ فلانا فأحبّوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض...).(٢)

قال ابن قدامة(٣) رحمه الله « ومن صفات الله تعالى أنّه متكلّم بكلام قديم(٤)يسمعه منه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام منه من غير واسطة ومن أذن له من ملائكته ورسله؛ وأنه سبحانه يكلّم المؤمنون في الاخرة ويكلمونه».(٥)

قال شيخ الإسلام (٦) رحمه الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾، برقم (٤٧٠١).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، برقم (٧٠٤٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧).

(٣) ابن قدامة هو أبو محمّد موفّق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ثم الدمشقي الفقيه الزاهد كان إماما في الفنون، و لم يكن في زمانه أزهد منه ولا أورع منه، وكان دائم السكوت حسن السمت شديد التثبّت؛ له تصانيف كثيرة في الحديث والفقه واللغة والزهد، منها: البرهان في مسألة القرآن، ومنهاج القاصدين في فضل الخلفاء الراشدين، والمغني في الفقه، توفي سنة ٦٢٠هـ. ينظر الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٢٨١/٣-٢٩٨).

(٤) معنى هذا: أنه تعالى متّصف بالكلام في الأزل، ولكنه لا يزال يتجدّد ويحدث له كلام متى شاء، فكلام الله لا يوصف بالقدم مطلقا، وإنما يوصف بأنه قديم النوع، وحادث الآحاد. ينظر شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين (٥٠).

(٥) لمعة الاعتقاد ص (٨٨).

(٦) سبقت ترجمته. ص (٣٩).

«قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم أنّ الله تعالى لم يزل متكلّما إذا شاء، وأنه يتكلّم بصوت كما جاءت به الآثار.

والقرآن وغيره من الكتب الإلهية كلام الله تكلّم الله به بمشيئته وقدرته، ليس ببائن عنه مخلوقا؛ ولا يقولون إنه صار متكلّما بعد أن لم يكن متكلّما؛ ولا أنّ كلام الله تعالى من حيث هو حادث؛ بل مازال متكلّما إذا شاء ...ويقولون بما جاءت به النصوص النبوية الصحيحة ودلت عليه العقول الزكية الصريحة؛ فلا ينفون عن الله تعالى صفات الكمال سبحانه وتعالى فيجعلونه كالجمادات التي لا تتكلّم ولا تسمع ولا تبصر ».(١)

والأدلة الدّالة على ثبوت هذه الصفة لله تعالى أكثر من أن تحصر وتحصى، فقد ثبت كلامه تعالى لموسى عليه السلام، وكلّم الأبوين وناداهما، والملائكة تسمع كلامه، وثبت بالكتاب والسنة كلامه مع الرسل والملائكة وغيرهم يوم القيامة، وأنه تعالى يكلّم أهل الجنة، ويكلّم أهل النار، وكلّ هذا شاهد على أنه تعالى يتكلّم بما شاء، كيف شاء ومتى شاء؛ بكلام حقيقيّ، يسمعه من يشاء من خلقه.(٢)

قال ابن القيم رحمه الله:«قد نوّع الله هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعا يستحيل معه نفي حقائقها، بل ليس في الصفات الإلهية أظهر من صفة الكلام والعلوّ والفعل والقدرة، بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الرب تبارك وتعالى، وإذا انتفت عنه حقيقة الكلام انتفت حقيقة الرسالة والنبوّة».(٣) وسيأتي -إن شاء الله- ذكر أقوال المخالفين في هذه الصفة مع الرد عليهم في مكانه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧٣/١٢).

(٢) ينظر معارج القبول(٢٤٧/١-٢٥٥).

(٣) مختصر الصواعق ص (٤٩٤).

المطلب السابع: قولهم لعيسى عليه السلام: « أنت رسول الله، وكلمت الناس في المهد».

ورد في حديث أبي هريرة السابق أيضا: أنّ أهل الموقف يذهبون إلى عيسى عليه السلام بعد ما يعتذر موسى عليه السلام عن الشفاعة لهم إلى الربّ سبحانه وتعالى؛ فيقولون له:

(... يا عيسى أنت رسول الله، وكلّمت الناس في المهد... فاشفع لنا إلى ربّك...).[١]

الدلالات العقدية.

اشتمل قول أهل الموقف لعيسى عليه السلام « وكلّمت الناس في المهد» على إثبات خاصّية من خصائص عيسى عليه السلام وهو كلامه عليه السلام في المهد؛ وقد ورد في القرآن الكريم وصفه عليه السلام بهذه الخاصية قبل ولادته؛ قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .[٢]

«وخُصّ تكليمُه بحالين: حالَ كونه في المهد؛ وحالَ كونه كهلا، مع أنّه يتكلم فيما بين ذلك، لأنّ لِذينك الحالين مزيدَ اختصاصٍ بتشريف الله إيّاه، فأمّا تكليمه النّاس في المهد فلأنّه خارق عادةٍ؛ إرهاصًا لنبوءته؛ وأمّا تكليمهم كهلا فمرادٌ به دعوته الناس إلى الشريعة» [٣]

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لم يتكلّم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وصاحب جريج، ....).[٤]

وقد ورد تفصيل ما كلّم به عيسى عليه السلام الناسَ في القرآن الكريم؛ وذلك عند قوله تعالى في قصّة أمه مريم عليها السلام:

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٤).

(٢) سورة آل عمران الآية (٤٥-٤٦).

(٣) ينظر التحرير والتنوير(٣/٢٤٧)

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ برقم (٣٤٣٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، برقم (٢٥٥٠)؛ واللفظ له.

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ .(١)

أمّا هل بقي عيسى الطَّيْلا على هذه الصفة منذ ذلك الحين؛ أم لا؟

فقد قيل: إنّه تعالى آتاه في تلك الحالة الكتاب، ففهمه، وعلّمه، وآتاه النبوة كما علّم آدم الأسماء كلّها، وكان يصوم ويصلّي، ويتكلّم منذ ذلك اليوم.

وقيل: إنه الطَّيْلا إنما تكلّم في طفولته بهذه الآية ثم عاد إلى حالة الأطفال؛ ومشى على عادة البشر؛ إلى أن بلغ مبلغ الصبيان؛ وإنما كان نطقه إظهارا لبراءة أمّه؛ لا أنّه كان ممن يعقل في تلك الحالة، و لم يُنقَل أنه دام نطقه، ولا أنّه كان يصلّي وهو ابن يوم أو شهر، ولو أنّ نطقه وتسبيحه ووعظه قد دام لكان مما لا ينكتم، وهذا كله مما يدل على فساد القول الأول.(٢)

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه الخاصية العظيمة لم تتعرّض لها الأناجيل بالذكر؛ قال العلاّمة ابن عاشور(٣) رحمه الله: «كلام عيسى هذا مما أهملته أناجيل النصارى؛ لأنهم طووا خبر وصولها إلى أهلها عند وضعها؛ وهو طيّ يُتعجب منه؛ ويدلّ على أنها كتبت في أحوال غير مضبوطة؛ فأطلع الله تعالى عليه نبيه ﷺ».(٤)

---

(١) سورة مريم الآية (٢٧-٣٣).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١١/٩٥-٩٦).

(٣) ابن عاشور هو محمد طاهر بن عاشور العالم الضليع، شيخ الإسلام المالكي وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، له عدة مصنفات منها:أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ومقاصد الشريعة الإسلامية، والوقف وآثاره في الإسلام، توفي سنة ١٣٩٣هـ. ينظر الأعلام (٦/١٧٤)، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٣/٣٦٣)، ومعجم المؤلفين المعاصرين لمحمد خير رمضان يوسف (٢/٦٢٨).

(٤) التحرير والتنوير ص(١٦/٩٨).

المطلب الثامن: قولهم له عليه السلام:«...وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه».

هذا تتمة لكلام أهل الموقف مع نبي الله عيسى عليه السلام، فقد ورد في حديث أبي هريرة السابق أنهم بعد ذكرهم خاصية تكليمه الناس في المهد أضافوا إلى ذلك قولهم: (... وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟».[(١)]

الدلالات العقدية.

اشتمل قول أهل الموقف لعيسى عليه السلام « وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه» على إثبات خاصيتين أخريين له عليه السلام.

الأولى: كونه عليه السلام كلمة من الله ألقاها إلى مريم.

الثانية: كونه عليه السلام روحا من الله تعالى.

وقد وردت نصوص أخرى من الكتاب والسنة تثبت لعيسى عليه السلام هاتين الخاصيتين، منها: قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .[(٢)]

وقوله ﷺ:(من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنّ الجنة حقّ وأنّ النّار حقّ؛ أدخله الله من أيّ أبواب الجنة الثمانية شاء).[(٣)]

- معنى كون عيسى عليه السلام كلمة منه تعالى:

ذكر العلماء رحمهم الله تعالى في معنى كونه عليه السلام كلمة من الله تعالى عدة أقوال؛ وهي:

١- أن المراد به أنّه عليه السلام مكوّن بكلمة« كن» فكان بشرا، من غير أب بخلاف غيره

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٤).

(٢) سورة النساء الآية (١٧١).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، برقم (٢٨).

من بنى آدم؛ والعرب تسمى الشيء باسم الشيء إذا كان صادرا عنه؛كما يقال للمطـــر رحمة.

٢- أنّ المراد بكونه كلمته تعالى بشارة الله تعالى مريم به، ورسالته إليها على لسان جبريل عليه السلام، كما في قوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١)

٣- وقيل: المراد بالكلمة ههنا الآية؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ .(٢)،(٣)

٤- وقيل: إنما سمّي بالكلمة لاهتداء الناس به عليه السلام كاهتدائهم بكلام الله تعالى.(٤)

ولعلّ الأظهر والأقوى من هذه الأقوال القول الأوّل. قال الإمام أحمد رحمه الله:«فالكلمـــة الـــتي ألقاها إلى مريم حين قال له كن فكان عيسى بكن؛ وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان».(٥)

وقال شيخ الإسلام(٦) رحمه الله:«وألفاظ المصادر يعبّر بها عن المفعول؛ فيسمى المأمور بـــه أمرا؛ و المقدور قدرة؛ و المرحوم به رحمة؛ و المخلوق بالكلمة كلمة؛ فإذا قيل في المسيح: إنه كلمة الله فالمراد به أنه خُلق بكلمة قوله كن، و لم يخلق على الوجه المعتـــاد من البشر، وإلّا فعيسى بشر قائم بنفسه، ليس هو كلاما صفة للمتكلم يقوم به، و كذلك إذا قيل عن المخلوق أنه أمر الله فالمراد أنّ الله كوّنه بأمره».(٧)

ومعنى ألقاها إلى مريم: أعلمها وأخبرها بها، كما يقال: ألقيت إليك كلمة حسنة.

---

(١) سورة آل عمران الآية (٤٥).

(٢) سورة التحريم الآية (١٢).

(٣) ينظر شرح النووي على مسلم (٢٢٧/١)، وتفسير القرطبي (٢١/٦)، وفتح القدير (٨١٥/١).

(٤) ينظر مفردات القرآن ص (١٢٦٤).

(٥) الرد على الزنادقة والجهمية ص (٣٢).

(٦) سبقت ترجمته. ص (٣٩).

(٧) مجموع الفتاوى (٢٨٢/١٧).

وقيل: معناه أوصلها إليها وحصّلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام.[١]

- **معنى كونه عليه السلام روحا منه.**

قيل في معناه: أنه عليه السلام روح كسائر الأرواح، إلاّ أنّ الله تعالى أضافه إلى نفسه تشريفا.

وقيل: الروح هو النفخ الذي نفخه جبريل عليه السلام في درع مريم، فحملت بإذن الله تعالى؛ وسمّي النفخ روحا لأنّه ريح يخرج من الروح، وأضافه تعالى إلى نفسه لأنه كان بأمره.

وقيل : معنى روح منه أي: رحمة منه؛ لأنه عليه السلام كان رحمة لمن تبعه وآمن به.

وقيل: الروح: الوحي؛ أوحاه الله تعالى إلى مريم بالبشارة، وإلى جبريل عليه السلام،بالنفخ، وإلى عيسى أنْ«كن» فكان؛ كما قال الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ .[٢] يعني :بالوحي.[٣]وقيل: سمّي روحا لأنّه كان يحيي الأموات أو القلوب.[٤]

وعلى أيّ معنى فُسّر به الروح من المعاني السّابقة فليس في قوله تعالى:« وَرُوحٌ مِنْهُ » أنّ بعض الله صار في عيسى؛ بل«مِن» لابتداء الغاية، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ .[٥] فما أضيف إلى الله تعالى تعالى أو قيل: هو منه فعلى وجهين: إن كان عينا قائما بنفسها فهو مملوك له، و«من»فيه لابتداء الغايـــة؛ وإن كان ممّا لا يقوم بنفسه من الصفات – كالعلم والكلام– فهو صفة له تعالى.[٦]

فائدة: يُحكى أنّ طبيبا نصرانيّا ناظر أحد علماء المسلمين ذات يوم؛ فقال النصراني: إنّ في كتابكم ما يـــدلّ على أن عيسى عليه السلام جزء من الله تعالى؛ وتلا قوله تعالى:«وَرُوحٌ مِنْهُ »فقرأ العالم المسلم قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾فقال: إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءا من الله تعالى علوّا كبيرا ؟! فانقطع النصراني؛ فأسلم.[٧]

---

(١) ينظر تفسير البغوي (٣١٣/١)، وتفسير أبي السعود (٢٥٩/٢).

(٢) سورة النحل الآية (٢).

(٣) ينظر تفسير البغوي (٤٠٠/١).

(٤) ينظر تفسير البيضاوي (٢٨٣/١).

(٥) سورة الجاثية الآية (١٣).

(٦) ينظر مجموع الفتاوى (٢٨٢/١٧-٢٨٣).

(٧) ينظر تفسير أبي السعود (٢٥٩/٢).

المطلب التاسع: قولهم للنبي ﷺ : « أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء...».

ورد في حديث أبي هريرة السابق أيضا أنّ أهل الموقف ينتهي بهم المطاف إلى نبينا محمّد ﷺ فيأتون إليه ﷺ بأمر من عيسى عليه السلام الذي يقول لهم عند اعتذاره عن الشفاعة لهم عند الله تعالى:« اذهبوا إلى محمد ﷺ »، فيأتونه ﷺ فيقولون:«يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟».(١)

الدلالات العقدية.

لقد اشتمل قول أهل الموقف للنبي ﷺ:«يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر...» على ما يلي:

- إثبات خاصيتين من خصائص النبي ﷺ:

الأولى: كونه ﷺ خاتم الأنبياء عليهم السلام.

أمّا كونه ﷺ خاتم الأنبياء فقد جاء في إثباته نصوص من الكتاب والسنة؛ منها قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .(٢)

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

« فهذه الآية نصٌّ في أنه لا نبي بعده؛ وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى، لأنّ مقام الرسالة أخصّ من مقام النبوة؛ فإنّ كلّ رسول نبيّ ولا ينعكس».(٣)

وأمّا في السنة فقد تواترت الأحاديث في كونه ﷺ خاتم الأنبياء.(٤)

منها ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:(مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية من زواياه؛ فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلاّ وُضعت هذه اللبنة؟! قال:

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٤).

(٢) سورة الأحزاب الآية (٤٠).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٣١١/٣).

(٤) المصدر نفسه.

فـــأنـــا اللبنة، وأنا خاتم النبيين).[١]

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث «فيه فضيلته ﷺ ؛وأنه خـــاتم النبـــيين؛ وجواز ضرب الأمثال في العلم وغيره».[٢]

وقال العيني [٣]رحمه الله: «وفيه ضرب الأمثال للتقريب للأفهام، وفضل النبي على ســـائر الأنبياء، وأنّ الله ختم به المرسلين، وأكمل به شرائع الدين».[٤]

ومنها أيضا قوله ﷺ:(فُضّلت على الأنبياء بستٍ؛ أُعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأُحلّـــت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافّة، وختم بي النبيون).[٥]

قال أبو جعفر الطحاوي[٦]رحمه ال

له«... وأنّ محمّدا عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى، وأنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء وســـيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وكل دعوى النبوة بعده فغيّ وهوى، وهو المبعوث إلى عامّة الجنّ وكافّـــة الورى، بالحق والهدى وبالنور والضياء».[٧]

فمن رحمة الله تعالى بالعباد وتشريفه لهم إرسالُ محمّد ﷺ إليهم، ثم خَتْم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، فأخبر سبحانه وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أنّ كلّ من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذّاب، وأفّاك، ودجّال

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كونه ﷺ خاتم النبيين،برقم (٢٢٨٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (٥١/١٥).

(٣) العيني هو أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد العيني الحنفي، مؤرخ، علاّمة، من كبار المحدّثين؛ من مؤلفاته مغاني الأخيار في رجال معاني الآثار، وتاريخ البـــدر في أوصـــاف أهل العصر، ومباني الأخبار في شرح معاني الآثار، وغيرها ؛ تـــوفي ســـنة ٨٥٥هــــــ. ينظـــر الأعلام(١٦١/٧).

(٤) عمدة القاري (٩٨/١٦).

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٣).

(٦) سبقت ترجمته.ص (١٣٤).

(٧) العقيدة الطحاوية ص (٢٢).

ضالّ مضلّ، ولو تخرّق وشعبذ.[١]وأتى بأنواع السحر والطلاسم، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب؛ ويُجري الله سبحانه وتعالى دائما على أيدي هؤلاء الكذّابين من الأحوال الفاسدة، والأقوال الباردة ما يعلم به كل ذي لبّ وفهم وحِجَى أنهم كاذبون ضالّون.[٢]

- والثانية: كونه ﷺ قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر.

وأمّا كونه ﷺ قد غفر له ﷺما تقدّم من ذنبه وما تأخّر فقد ثبت بنص القــرآن؛ قــال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾.[٣]

وقد اختُلف في معناه؛ فقيل: ما تقدّم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخّر بعدها؛ قاله غير واحد من المفسرين.

وقيل: ما تقدّم من ذنبك : يعني ذنب أبويك آدم وحوّاء وما تأخّر من ذنوب أمتك.

وقيل غير ذلك مما لا وجه له؛ والأوّل أولى.[٤] والمراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هــو الأولى؛ وسمّي ذنبا في حقّه لجلالة قدره وإن لم يكن ذنبا في حق غيره.[٥]

وهذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره؛ ولذا قال ﷺ لما نزلت هذه السورة:(لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس).[٦] وإنما شُرِّف ﷺ بهذا التشريف العظيم لكونه ﷺ أكمل أكمل البشر على الإطلاق؛ وأطوع خلق الله لله؛ وأكثرهم تعظيما لأوامره ونواهيه؛ ولدوامه على الطاعة والبرّ والاستقامة في جميع أموره وأحواله ﷺ.[٧]

وهذا آخر ما تيسر جمعه دراسته من أقوال عامة أهل الموقف. والحمد لله أولا وآخرا.

---

(١) التخرّق: خلق الكذب. والشعبذة: بمعنى الشعوذة، ينظر القاموس المحيط ص (١١٣٥،٤٢٧).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٣١٢/٣).

(٣) سورة الفتح الآية (١-٣).

(٤) ينظر فتح القدير (٦٤/٥).

(٥) ينظر فتح القدير (٦٤/٥).

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الفتح، برقم (٥٠١٢).

(٧) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٦٥٧/٤).

المبحث الأول: الأقوال التي صدرت عن جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في الموقف ودلالاتها العقدية.

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الأنبياء والرسل سادة أهل الموقف كما كانوا عليهم الصلاة والسلام سادة أهل الدنيا، ولذلك فزع إليهم الناس لـمّا غشيهم من كرب يوم القيامة ما غشيهم؛ يطلبون منهم الشفاعة إلى الله تعالى؛ وقد ثبت في نصوص الكتاب والسنة أنّ هناك جملة من الأقوال تصدر عن عامّة الأنبياء والرسل في الموقف؛ منها:

استشهادهم على إبلاغهم بمحمد ﷺ وأمته، ومنها ما حكاه الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ .(١)

ومنها ما ثبت في السنة من أنّ جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام يقفون على جنبات الصراط عند مرور الأمم عليها ويقولون « اللهم سلّم سلّم ».

وفيما يلي من المطالب ذكر هذه الأقوال بالتفصيل مع بيان ما فيها من دلالات عقدية؛ بإذن الله تعالى.

---

(١) سورة المائدة الآية (١٠٩).

المطلب الأول: استشهادهم على إبلاغهم بمحمد ﷺ وأمته.

إنّ مما يصدر من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الأقوال في الموقف استشهادهم بمحمد ﷺ وأمته على تبليغهم ما أرسلوا به إلى أممهم.

فقد روى ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:

(يجيء النبي ومعه الرجلان؛ ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقلّ؛ فيقال له: هل بلّغت قومك؟ فيقول: نعم.

فَيُدعَى قومه فيقال: هل بلّغكم؟ فيقولون: لا.

فيقال: من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته؛ فتدعى أمة محمد؛ فيقال: هل بلّغ هذا؟ فيقولون: نعم؛ فيقول: وما عِلْمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أنّ الرسل قد بلّغوا فصدّقناه...).(١)

الدلالات العقدية.

قد اشتمل استشهاد الأنبياء عليهم السلام بهذه الأمة ونبيها على ما يلي:

إثبات خاصية من خصائص هذه الأمة يوم القيامة.

دلّ قول الأنبياء جميعا –حينما يسألون عمّن يشهد لهم على تبليغهم– :« محمد وأمته؛» على ثبوت خاصّية شريفة من خصائص الأمة المحمدية؛ وهي تشريف الله تعالى لها يوم القيامة باستشهاد الأنبياء بها وبرسولها محمد ﷺ ومن ثمّ شهادتها للأنبياء بالتبليغ، وعلى الأمم ببلوغ الرسالات إليهم.

وقد دلت على هذه الخاصية نصوص أخرى منها قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾.(٢) أي: إنما اخترنا لكم قبلة إبراهيم لنجعلكم خيار الأمم وأجودها، ولتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأنّ الجميع معترفون لكم بالفضل.(٣)

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ برقم (٤٢٨٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٤٢٥/٢) برقم (٣٤٥٧).

(٢) سورة البقرة الآية (٤٣).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٣٣٠/١).

وقد جعل الله سبحانه لهذه الأمة خصائص أخرى تكون يوم القيامة، منها:

- أن هذه الأمة أول من يقضى لهم يوم القيامة بين سائر الأمم.

فقد روى مسلم في صحيحه أنّ رسول الله ﷺ قال:(أضلّ الله عن الجمعة من كان قبلنا؛ فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأوّلون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق. وفي رواية: المقضيّ بينهم).(١)

«أي نحن الآخرون زمانا، الأولون منزلة؛ والمراد أنّ هذه الأمة وإن تأخّر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية؛ فهي سابقة لهم في الآخرة، بأنهم أوّل من يحشر ؛ وأوّل من يحاسب، وأوّل من يقضي بينهم، وأول من يدخل الجنة ».(٢)

- ومنها: أنّ هذه الأمة ونبيها أول من يجيز على الصراط.

ففي حديث الشفاعة أنّ النبي ﷺ (...ويضرب الصراط بين ظهري جهنم؛ فأكون أنا وأمتي أوّل من يجيز...).(٣)

- ومنها: أنها أول الأمم دخولا للجنة.

فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:(نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة، ونحن أوّل من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا؛ فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له؛ قال: يوم الجمعة. فاليوم لنا، وغدا لليهود، وبعد غد للنصارى).(٤)

- ومنها أن أكثر أهل الجنة يكونون من هذه الأمة.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة؛(٥٨٦/٢) برقم (٨٥٦).

(٢) فتح الباري (٣٥٤/٢).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، (١٦٣/١) برقم (١٨٢).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم (٨٥٥).

وقد سبق تقرير ذلك بأدلته.[١]

قال الحافظ ابن كثير[٢]رحمه الله:

«وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله، ولا رسول من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه».[٣]

---

(١) ينظر ص (٧١).

(٢) سبقت ترجمته. ص (٧٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/٥٩٦).

المطلب الثاني: قولهم: «لا عِلْمَ لَنَا».

هذا القول من جميع الرسل جزء من آية في سورة المائدة يقول فيها الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.[١]

الشرح:

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ أي: اتّقوا يوم جمعه تعالى للرسل؛ فيقول: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدي والإقرار بي، والعمل بطاعتي، والانتهاء عن معصيتي؟[٢]

فأمّا قول الله تعالى على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام: «لا عِلْمَ لَنَا»؛ فقد قيل في تفسيره: إنهم كانوا يعلمون، ولكن دهشت عقولهم، وعزبت أفهامهم، ونسوا من شدة الهول، وعظم الخطب، وصعوبة الأمر، فقالوا: «لا عِلْمَ لَنَا».[٣]

قال ذلك: الإمام أحمد[٤] وغيره[٥] ورجّحه الإمام القرطبي[٦]،[٧].

وقيل: إنما قالوا ذلك تسليما، وردًّا للعلم إلى الله تعالى، وقد رجّح ذلك الطبري[٨]،[٩].

وقيل غير ذلك.[١٠]

---

(١) سورة المائدة الآية (١٠٩).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٢٥/٥)، وزاد المسير (٤٥٣/٢).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٢٥/٥)،وتفسير القرطبي (٣٣٤/٦).

(٤) ينظر الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ص (١٣).

(٥) ينظر التنبيه والرد للملطي ص(٦٠).

(٦) سبقت ترجمته. ص (٢٤).

(٧) ينظر التذكرة للقرطبي (٦٨٢/٢).

(٨) سبقت ترجمته.ص (١٦٢).

(٩) ينظر تفسير الطبري (١٢٥/٥).

(١٠) ينظر زاد المسير (٤٥٣/٢-٤٥٤).

الدلالات العقدية.

قد تضمن قول جميع الرسل:«لاعِلْمَلَنَا » من الدلالات العقدية ما يلي:

-إثبات فزع الرسل في بعض فترات يوم القيامة.

إنّ في قول الرسل عليهم الصلاة والسلام: «لاعِلْمَلَنَا» دليلا على أنّ الأنبياء والرسل عليهم السلام – على علوّ مقاماتهم، وثبوت فضلهم- يستولي عليهم الخوف والفزع وينتابهم الكرب في بعض فترات يوم القيامة.

ومما يدل على هذا أيضا قول نبي الله آدم في بعض روايات حديث الشفاعة ،(... وإنه كان أمرني بأمر فعصيته، فأخاف أن يطرحني في النار، انطلقوا إلى غيري).(١)

وقال ابن عباس ﷺ في تفسير قوله تعالى على لسان الرسل:«قَالُوالاعِلْمَلَنَا »: « تدخلهم دهشة من أهوال يوم القيامة».(٢)

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن كعب الأحبار(٣)أنّه قال:« والذي نفسي بيده إنّ النّار النّار لتقرب يوم القيامة لها زفير وشهيق؛ حتى إذا أُدنِيَت وقرّبت زفرت زفرةً ما خلق الله من نبي ولا صدّيق ولا شهيد إلّا وجثا لركبتيه ساقطا، حتى يقول كلّ نبي وكلّ صدّيق وكلّ شهيد: اللهم لا أكلفك اليوم إلاّ نفسي، ولو كان لك يا بن الخطاب عملَ سبعين نبيا لظننت أن لا تنجو؛ قال: عمر والله إنّ الأمر لشديد».(٤)

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، (٣٨٠/١٤)برقم (٦٤٦٥)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين؛ ينظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق وتخريج الشيخ شعيب الأرنؤوط(٣٨٣/١٤).

(٢) ينظر تأويل مختلف الحديث (٢٦٧/١).

(٣) كعب الأحبار هو أبو إسحاق كعب بن ماتع الحميري؛ أدرك عهد النبي ﷺ ولم يره، وكان إسلامه في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ عنه؛ كان من العلماء الحكماء القصاص، مات بحمص سنة ٣٤هـ. ينظر أسد الغابة (٩٣٨/١)، والإصابة (٥/ ٦٤٧-٦٥١).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٤٩) برقم (٣٤١٢٨).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «أمّا قوله ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ فإنه يسألهم عند زفرة جهنم؛ فيقول: ماذا أجبتم في التوحيد؟ فتذهب عقولهم عند زفرة جهنم؛ فيقولون: لا علم لنا. ثم ترجع إليهم عقولهم من بعد».[١]

وقال الحافظ ابن كثير[٢] رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾[٣] قال:

« أي: على رُكَبها من الشدة والعظمة؛ ويقال: إنّ هذا إذا جيء بجهنم؛ فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه؛ حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام؛ ويقول : نفسي نفسي نفسي ! لا أسألك اليوم إلا نفسي؛ وحتى إنّ عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول: لا أسألك إلا نفسي؛ لا أسألك مريم التي ولدتني !».[٤]

وقد اعتُرِضَ على هذا بأنّ الرسل عليهم الصلاة السلام ممّن لا خوف عليهم في ذلك اليوم. وأجيب عنه: بأنّ نفي الخوف عنهم إنما هو في أكثر مواطن القيامة، ولا يمنع ذلك أن ينتابهم الخوف والدهشة في بعض فتراتها ومواقفها.[٥]

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص (١٣).

(٢) سبقت ترجمته. ص (٧٠).

(٣) سورة الجاثية الآية (٢٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢٦١٧/٤).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٣٣٤/٦).

المطلب الثالث: قولهم «إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ إِنَّكَ».

هذه تتمة لمخاطبات جميع الأنبياء مع الرب سبحانه وتعالى والتي حكى الله تعالى عنه بقوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ .

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾، أي: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا أُجِبنا وعرفنا مَن أجابنا، فإنما كنّا نطّلع على ظواهر القوم، ولا علم لنا ببواطنهم، وأنت يا ربّ العليم بكل شيء، المطّلع على كل شيء، تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.(١) ممّا غاب عن العباد وذهب عنهم علمه، وتعلم ما نعلمه مما أجابونا وأظهروا لنا، وما لا نعلم مما أضمروا في قلوبهم.(٢)

وقد جمع الرسل في كلامهم هذا بين الجواب وتفويض العلم إلى الله، أي: أنّ علمك سبحانك أعلى من كل علم، وشهادتك أعدل من كل شهادة، فكان جوابهم عليهم الصلاة والسلام متضمّنا أمورا :

أحدها: الشهادة على الكافرين من أممهم بأنّ ما عاملهم الله به هو الحق.

الثاني: تسفيه أولئك الكافرين في إنكارهم الذي لا يجديهم.

الثالث: تذكير أممهم بما عاملوا به رسلهم، لأنّ في قولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ تعميما للتذكير بكل ما صدر من أممهم من تكذيب وأذى وعناد.(٣)

الدلالات العقدية.

قد اشتمل هذا الجزء من مخاطبات الأنبياء للرب سبحانه وتعالى في الموقف على ما يلي:

-إثبات نوع من أسماء الله تعالى.

إنّ قول عامّة الرسل في الموقف ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾

إثباتا لنوع خاصّ من أسماء الله تعالى وهي الأسماء المضافة؛ وقد كثر ورود هذا النوع من

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٠٣١/٢)، وتيسير الكريم الرحمن ص(٢٢٦).

(٢) ينظر تفسير البيضاوي (٣٧٨/١)، وتفسير الجلالين ص (١٦٠).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (٩٩/٧).

الأسماء في الكتاب والسنة، مثل أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، وأحسن الخالقين، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، ومقلّب القلوب، وغير ذلك مما ثبت في الكتاب والسنة.[١]

أما اسمه تعالى علاّم الغيوب، فقد ورد في مواضع أخرى من القرآن، منها قوله تعالى على لسان عيسى بن مريم عليه السلام ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.[٢]

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.[٣]

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.[٤]

أما من السنة فقد جاء هذا الاسم في دعاء الاستخارة المشهور، فقد روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

(كان رسول الله ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب.

اللهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويسّره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أنّ هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به. قال: ويسمي حاجته).[٥]

---

(١) ينظر مجموع الفتاوى (٢٢/٤٨٥)، والفتاوى الكبرى (٢/٣٨٠).

(٢) سورة المائدة الآية (١١٦).

(٣) سورة التوبة الآية (٧٨).

(٤) سورة سبأ الآية (٤٨).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى برقم(١١٦٢).

المطلب الرابع: قولهم:« اللهم سلم سلم».

هذا أيضا من الأقوال التي تصدر من جميع الرسل عليهم صلوات الله وسلامه؛ فقد روى أبو هريرة ﷺ في حديث الشفاعة أنّ النبي ﷺ قال:

(...ويضرب الصراط بين ظهري جهنم؛ فأكون أنا وأمتي أوّل من يجيزها، ولا يتكلّم يومئذ إلّا الرسل؛ ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم...).(١)

الشرح:

قوله ﷺ:«ويضرب الصراط بين ظهري جهنم »معناه: يمدّ الصراط عليها.

وقوله ﷺ «فأكون أنا وأمتي أول من يجيز» معناه: يكون أول من يمضي على الصراط، ويقطعه أنا وأمتي؛ يقال: أجزت الوادي وجزته لغتان بمعنى واحد.

وقوله ﷺ:«ولا يتكلم يومئذ إلاّ الرسل» أي: لشدة الأهوال؛ والمراد لا يتكلّم في حال الإجازة؛ وإلاّ ففي يوم القيامة مواطن يتكلم الناس فيها، وتجادل كل نفس عن نفسها، ويسأل بعضهم بعضا، ويتلاومون، ويخاصم التابعون المتبوعين.(٢)

وقوله ﷺ:«ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم» أي: يدعون للمؤمنين بالسلامة؛ ويقول كل نبي اللهم سلّم أمتي من ضرر الصراط، اللّهم اجعلهم سالمين من آفاته؛ آمنين من مخافاته.

وتكراره مرتين المراد به الكثرة أو باعتبار كل واحد من أهل الشفاعة، أو للإلحاح في الدعاء كما هو من آدابه.(٣)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، برقم (١٨٢).

(٢) ينظر شرح النووي على مسلم (٣/٢٠-٢١).

(٣) ينظر فتح الباري (١١/٤٥٢)، وتحفة الأحوذي (٧/٣٢٣).

الدلالات العقدية.

دل قول الرسل: «اللهم سلّم سلّم» على ما يلي:

- كمال شفقتهم على أممهم.

إنّ في قيام الأنبياء عليهم السلام على جنبي الصراط ينتظرون جواز أممهم عليها؛ مع إلحاحهم بالدعاء لهم بقولهم:« اللهم سلّم سلّم » لدلالةً على ما انـطوت به قلوبهم مـن الرحمة والشفقة على أممهم؛ وحرصهم على نجاتهم وسعادتهم، كما كان ذلك وصفا لهم في الدنيا؛ مما يدلّ على أنّ لله تعالى جعل في قلوبهم من الرحمة والشفقة أكثر مما جعل في قلوب غيرهم.(١)

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى:في شرح قول الأنبياء « اللهم سلم سلم »: « هذا مـن كمال شفقتهم ورحمتهم للخلق؛ وفيه أنّ الدعوات تكون بحسب المواطن، فيدعى في كل موطن بما يليق به».(٢)

---

(١) ينظر فتح الباري (٢١٢/٧).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢١/٣)، وعمدة القاري (٨٥/٦).

المبحث الثاني: أقوال نبي الله آدم عليه السلام في الموقف ودلالاتها العقدية.

قد ثبت في السنة المطهرة أقوالا لبعض الأنبياء في الموقف تختلف عن الأقوال التي صدرت عن عامتهم فيه.

ومن الأنبياء الذين تم الوقوف على أقوال خاصة لهم صدرت منهم في الموقف:

نبي الله آدم عليه السلام ؛ ونبي الله نوح عليه السلام ؛ ونبي الله إبراهيم عليه السلام ، ونبي الله موسى عليه السلام ونبي الله عيسى عليه السلام ، ونبينا محمد ﷺ .

ولعل الحكمة في حكاية أقوال هؤلاء الأنبياء وإبرازها دون بقية الأنبياء عليهم الصلاة السلام كونهم سادة الأنبياء وأولي العزم الذين جمع الله ذكرهم في موضعين من القرآن: عند قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾.(١) وعند قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ .(٢)

أما نبي الله آدم عليه السلام فلكونه أبا البشر ؛ والله أعلم.

وفيما يلي من المباحث ذكر ما ثبت لهم من مخاطبات مع دراستها؛ بإذن الله.

أمّا نبي الله آدم عليه السلام فقد ثبت في النصوص جملة من الأقوال صدرت منه في أحوال مختلفة في الموقف؛ بعضها خاطب بها المولى سبحانه لّما أمره بإخراج بعث النار من ذريته وتمييزهم عن أهل الجنة، وبعضها خاطب بها أهل الموقف حين اعتذاره عن الشفاعة لهم إلى الله، وبعضها خاطب بها أهل الإيمان حين اعتذاره عليه السلام عن استفتاح باب الجنة.

وسيتم في المطالب التالية ذكر هذه الأقوال، مع بيان ما اشتملت عليه من الدلالات العقدية- بإذن الله تعالى.

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٧).

(٢) سورة الشورى الآية (١٣).

المطلب الأول: قوله ﷺ لرب العالمين« لبيك، وسعديك، والخير في يديك».

هذا القول من نبي الله آدم جزء من حديث رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:(يقول الله تعالى يا آدم؛ فيقول: لبيك وسعديك؛ والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار؛ قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين؛ فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد).[1]

الشرح:

قوله ﷺ: « يقول الله تعالى يا آدم » هذا النداء من الله تعالى أوّلُ نداءٍ يقع منه تعالى يوم القيامة.[2] بدليل الرواية الأخرى لأبي هريرة؛: (أوّل من يُدعى يوم القيامة آدم؛ فتراءى ذريته، فيقال هذا أبوكم آدم؛ فيقول: لبيك وسعديك فيقول: أخرج بعث جهنم...).[3]

وقوله ﷺ :« لبيك » أي: إجابة لك يا ربنا بعد إجابة؛ وإقامةً لامتثال أمرك إقامةً كثيرة؛ فهي مِن ألبّ بالمكان: إذا أقام فيه.

وقوله ﷺ :« وسعديك ».بمعنى الإسعاد، وهو الإعانة. أي نطلب منك إسعادا بعد إسعاد.[4]

وقوله ﷺ:«والخير في يديك» خص الخير بالذكر تعطيفا ورعاية للأدب، وإلاّ فالشر أيضا بتقدير الله كالخير؛ وقيل: إنما اقتصر عليه لأنّ الكل بالنسبة إلى الله حسن؛ ولا قبيح في فعله، وإنما الحسن والقبح بالنسبة إلى العباد.[5]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قوله عز وجل:﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾، برقم (٣٥٣٠)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار؛ من كل مائة تسعة وتسعين، برقم (٢٢٢).

(٢) ينظر فتح الباري (٣٨٩/١١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، برقم (٦٥٢٩).

(٤) ينظر فيض القدير (٣١١/٢).

(٥) ينظر فتح الباري (٣٨٩/١١)، وعمدة القاري (١٠٩/٢٣).

وقوله ﷺ : « أخرج بعث النار » البعث بمعنى المبعوث؛ ومعناها هنا: ميّز أهل النار من غيرهم؛ ويقال: بعث النار أي:حزبها.(١)

قوله ﷺ :«وما بعث النار» الواو عاطفة على شيء محذوف تقديره: سمعت وأطعت؛ وما بعث النار أي: وما مقدار مبعوث النار.(٢)

قوله ﷺ :« فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد».

قال الإمام النووي رحمه الله:

«وقد اختلف العلماء في وقت وضع كل ذات حمل حملها وغيره من المذكور؛ فقيل: عند زلزلة الساعة قبل خروجهم من الدنيا؛ وقيل: هو في القيامة. فعلى الأول: هو على ظاهره، وعلى الثاني: يكون مجازا، لأنّ القيامة ليس فيها حمل ولا ولادة، وتقديره: ينتهي به الأهوال والشدائد إلى أنه لو تصوّرت الحوامل هناك لوضعن أحمالهن؛ كما تقول العرب: أصابنا أمر يشيب منه الوليد يريدون شدته».(٣)

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

« وأقول يحتمل أن يحمل على حقيقته؛ فإنّ كل أحد يبعث على ما مات عليه، فتبعث الحامل حاملا، والمرضع مرضعة، والطفل طفلا، فإذا وقعت زلزلة الساعة، وقيل ذلك لآدم، ورأى الناس آدم وسمعوا ما قيل له، وقع بهم من الوجل ما يسقط معه الحمل، ويشيب له الطفل وتذهل به المرضعة».(٤)

---

(١) ينظر فتح الباري (٣٨٩/١١)، وعمدة القاري (٢٣٩/١٥).

(٢) ينظر فتح الباري (٣٨٩/١١).

(٣) شرح النووي على مسلم (٩٨/٣).

(٤) ينظر فتح الباري (٣٩٠/١١).

الدلالات العقدية.

قد اشتمل هذه الأقوال من نبي الله آدم ﷺ على ما يلي:

- إثبات صفة اليدين لله تعالى.

إنّ في قول نبي الله آدم ﷺ:«لبيك وسعديك والخير في يديك» بصيغة التثنية دليلا على إثبات صفة اليدين لله تعالى، وأنهما من صفاته الذاتية الثابتة له سبحانه وتعالى حقيقةً على الوجه اللائق به سبحانه.[١]

بل يلزم من ورودها هنا بصيغة التثنية الجزم بأنّ المراد بهما اليدان الحقيقيتان، إذ لم يُعرف استعماله إلاّ في اليد الحقيقية، ولم يرد تثنية اليد قط مرادا بها النعمة أو القدرة.[٢]،[٣]

وقد سبق إيراد الأدلة على ثبوت هذه الصفة لله تعالى مع الرد على المخالفين فيها بما يغني عن الإعادة.[٤]

يقول ابن القيم رحمه الله:

« ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع ورودا متنوّعا متصرّفا مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطيّ والقبض والبسط...».[٥]

---

(١) ينظر الإبانة للأشعري ص (٢٢).

(٢) ينظر شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص (١١٦).

(٣) تنبيه: ذكر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله في شرح الكافية الشافية عند قول ابن القيم رحمه الله: « حكم المحبة ثابت الأركان ... ما للصدود بفسخ ذاك يدان»- ذكر رحمه الله أنّ ما يذكره بعض العلماء الأفاضل مِن أنّ اليد بمعنى القوة لا تثنى ولا تجمع إنما يُحمَل على حالة الاختيار، وإلاّ فإن ذلك ورد في حالة الضرورة. ينظر شرح الكافية الشافية للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن ص (٢٠).

(٤) ينظر ص (١٧٥).

(٥) مختصر الصواعق ص (٤٠٥).

المطلب الثاني: قوله عليه السلام « وما بعث النار».

هذا القول من آدم عليه السلام جزء من كلامه السابق، وتتمة لمخاطبته مع الــرب ســبحانه في شأن من يخرج من ذريته إلى النار-أعاذنا الله منه؛-؛ وقد تضمن من الدلالات العقديــة مايلي:

إثبات خاصية لآدم عليه السلام يوم القيامة.

إنّ في قول آدم عليه السلام:« وما بعث النار » دليلا على إثبات خاصية له عليه السلام في الموقف وهو تمييزه أهل النّار عن أهل الجنة من ذريته.

وإنما خصّ آدم عليه السلام بذلك لكونه والد الجميع، ولكونه كان قد عرف أهل السعادة مــن أهل الشقاء، بدليل قوله ﷺ في حديث الإسراء

(...فلمّا علونا إلى السماء إذا رجل عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، فإذا نظر قِبَــل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبل شماله بكى؛ فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح؛ قلــت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيــه؛ فأهــل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى).(١)،(٢).

والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة باب كيف فرضت الصــلوات في الإســراء، برقــم برقم (٣٤٩).

(٢) ينظر فتح الباري (١١/٣٨٩).

المطلب الثالث: اعتذاره عن الشفاعة العظمى.

إنّ من الأقوال التي جرت لآدم عليه السلام في الموقف اعتذاره عن الشفاعة العظمى حين طلب منه الناس أن يشفع لهم إلى الله تعالى، ليريحهم من طول الموقف وشدته.

وقد ثبت اعتذاره هذا في جملة من الأحاديث؛ بروايات فيها اختلاف في بعض الألفاظ؛ ومما تم الوقوف عليها منها: قوله عليه السلام: (... لست هناكم؛ ويذكر ذنبه فيستحي؛ ائتونا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض....).(١)

ومنها قوله ﷺ : (... فيقول آدم: إنّ ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّه نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري؛ اذهبوا إلى نوح).(٢)

ومنها قوله ﷺ :(...فيقول آدم : إنّ ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كان أمرني بأمر فعصيته، فأخاف أن يطرحني في النار، انطلقوا إلى غيري).(٣)

الدلالات العقدية.

قد اشتمل أقوال نبي الله آدم عند اعتذاره عن الشفاعة لأهل الموقف على جملة من الدلالات العقدية، وهي ما يلي:

الأولى: إثبات تفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدرجة.

إنّ في قول نبي الله آدم عليه السلام «لست هناكم» أي: لست أهلا لذلك.(٤) وكذلك غيره من الأنبياء الذين طلب منهم أهل الموقف الشفاعة إشارةً من كل واحد منهم إلى أنّ هذه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ برقم (٤٤٧٦) ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم(١٩٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ برقم (٣٣٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم:(١٩٤).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، (٣٨٠/١٤)برقم (٦٤٦٥)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين؛ ينظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق وتخريج الشيخ شعيب الأرنؤوط(٣٨٣/١٤).

(٤) ينظر شرح النووي على مسلم (٥٥/٣).

الشفاعة وهذا المقام ليس له، بل هو لغيره مما يدل دلالة واضحة على تفاضلهم في الدرجة؛ إذ لو كانوا على درجة واحدة في الفضل لم يكن أحد منهم أولى بذلك من غيره.(١)

وقد ورد في إثبات التفاضل بين الأنبياء نصوص منها قوله تعالى:

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ .(٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ .(٣)

فأخبر سبحانه في هاتين الآيتين أنه فضّل بعض الرسل والنبيين المشتركِين في الوحي والرسالة على بعض، بالخصائص الراجعة إلى ما منّ به عليهم من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، ونزول الكتب على بعضهم.(٤)

ولا خلاف أنّ الرسل أفضل من بقيّة الأنبياء، وأنّ أولي العزم منهم أفضلهم؛ وهم الخمسة المذكورون نصّا في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ .(٥)

وفي قوله: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ .(٦)

ولا خلاف أنّ محمّدا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام على المشهور.(٧)

---

(١) المصدر نفسه (٥٦/٣).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٣) سورة الإسراء الآية (٥٥).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤٨٣/١)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٤٣٥).

(٥) سورة الأحزاب الآية (٧).

(٦) سورة الشورى الآية (١٣).

(٧) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٧٢٤/٣).

الثانية: إثبات صفة الغضب لله تعالى.

دلّ قول نبي الله آدم «إنّ ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله» على إثبات صفة الغضب لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وكماله.

وقد دل على ثبوت هذه الصفة لله تعالى نصوص أخرى من الكتاب والسنة، منها قولـــه تعالى:

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ .[١]

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .[٢] «يعني بقوله آسفونا : أغضبونا».[٣]

أغضبونا».[٣]

وقوله ﷺ (لـــمّا قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي).[٤]

« وأجمع السلف على ثبوت الغضب لله تعالى، فيجب إثباته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف».[٥]

قال ابن أبي العز[٦]رحمه الله « ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى والرضى والعداوة والولاية والحبّ والبغض؛ ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب

---

(١) سورة النساء الآية (٩٣).

(٢) سورة الزخرف الآية (٥٥).

(٣) تفسير الطبري (١١/١٩٨).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ برقم (٣١٩٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعـــالى، وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٧٥١)

(٥) شرح لمعة الاعتقاد لمحمد بن صالح العثيمين ص (٥٥).

(٦) سبقت ترجمته.ص (٤٥).

والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى؛ كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات».[١]

وفي هذا ردٌّ على الأشاعرة [٢]وغيرهم ممن ينكرون ثبوت حقيقة هذه الصفة لله تعالى ويؤولونها بالإرادة وغيرها.

يقول الباقلاني[٣]في تقرير ذلك:

«باب في الرضا والغضب وأنهما من الإرادة.

فإن قال قائل: فهل تقولون إنه تعالى غضبان راض وإنه موصوف بذلك؟

قيل له أجل: وغضبه على من غضب عليه، ورضاه عمن رضي عنه هما: إرادته لإثابة المرضي عنه، وعقوبة المغضوب عليه لا غير ذلك».[٤]

وهؤلاء في الحقيقة فرّوا من شيء فوقعوا في نظيره؛ إذ لا فرق بين ما نفوه وبين ما أثبتوه. وعنهم يقول شيخ الإسلام[٥]رحمه الله:« فإن كان المخاطب ممّن يقول: بأنّ الله حيّ بحياة، بحياة، عليم بعلم، قدير بقدرة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلّم بكلام، مريد بإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقة؛ وينازع في محبته ورضاه وغضبه وكراهته، فيجعل ذلك مجازا، ويفسّره إمّا بالإرادة، وإمّا ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات؛ فيقال له: لا فرق بين ما نفتيه وبين ما أثبته؛ بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

فان قلت: إنّ إرادته مثل إرادة المخلوقين، فكذلك محبته ورضاه وغضبه، وهذا هو التمثيل.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية(٤٦٣/١).

(٢) سبق التعريف بهم.ص (١٢٩).

(٣) سبقت ترجمته.ص (١٢٩).

(٤) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للباقلاني ص (٤٧).

(٥) سبقت ترجمته. ص (٣٩).

وإن قلت: إنّ له إرادة تليق به كما أنّ للمخلوق إرادة تليق به؛ قيل لك: وكذلك له محبة تليق به، وللمخلوق محبة تليق به؛ وله رضا وغضب يليق به، وللمخلوق رضا وغضب يليق به.

وإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام. قيل له: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرّة.

فإن قلت: هذه إرادة المخلوق.قيل لك: وهذا غضب المخلوق.

وكذلك يُلزم بالقول في كلامه وسمعه وبصره وعلمه وقدرتة».(١)

وقال أيضا رحمه الله:

« فهذا المفرّق بين بعض الصّفات وبعض؛ يقال له: فيما نفاه كما يقوله هو لمنازعه فيما أثبته.

فإذا قال المعتزلي: ليس له إرادة ولا كلام قائم به لأنّ هذه الصفات لا تقوم إلاّ بالمخلوقات؛ فإنه يبين للمعتزلي أنّ هذه الصفات يتصف بها القديم؛ ولا تكون كصفات المحدثات.

فهكذا يقول له المثبتون لسائر الصفات من المحبة والرضا ونحو ذلك.

فإن قال: تلك الصفات أُثبِتُها بالعقل لأنّ الفعل الحادث دلّ على القدرة، والتخصيص دلّ على الإرادة؛ والإحكام دلّ على العلم.

وهذه الصفات مستلزمة للحياة، والحيّ لا يخلو عن السمع والبصر والكلام، أو ضدّ ذلك.

قال له سائر أهل الإثبات: لك جوابان.

أحدهما: أن يقال عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول المعين؛ فهب أنّ ما سلكته من الدليل العقلي لا يثبت ذلك؛ فإنه لا ينفيه، وليس لك أن تنفيه بغير دليل؛ لأنّ النافي عليه الدليل كما على المثبت.

والسمع قد دل عليه، و لم يعارض ذلك معارض عقلي ولا سمعي؛ فيجب إثبات ما أثبته الدليل السالم عن المعارض المقاوم.

الثاني: أن يقال يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك من العقليات.

---

(١) التدمرية ص (٣١-٣٢).

فيقال: نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة كدلالة التخصيص على المشيئة.
وإكرام الطائعين يدل على محبتهم.
وعقاب الكافرين يدل على بغضهم كما قد ثبت بالشهادة والخبر: من إكـــرام أوليائـــه وعقاب أعدائه». [١]

(١) المصدر نفسه ص (٣٣-٣٤).

الثالثة: إثبات صفاته تعالى الاختيارية.

إنّ في قول نبي الله آدم عليه السلام «إنّ ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله» دلالة على أنّ الله تعالى يتصف بالصفات الاختيارية متى شاء وكيف شاء؛ كما يليق بجلاله تعالى؛ حيث أثبت عليه السلام غضبه تعالى بصفة لم تكن قبل ذلك اليوم، ولا تكون بعده.

والصفات الاختيارية- ويسميها البعض بالصفات الفعلية- هي الأمور التي يتّصف بها الرب عزّ وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته متى شاء؛ مثل كلامه تعالى وسمعه وبصره ومحبته وغضبه ورضاه، ومذهب أهل السنة إثباتها، وهي عندهم قسمان:

أ-الصفات الفعلية اللازمة، كالاستواء والنزول. ب-الصفات الفعلية المتعدية، كالخلق والإعطاء ونحو ذلك.

والطوائف الكلامية ينفونها؛ أمّا الجهمية والمعتزلة والأشاعرة فقد نفوا قيام شي منها بذاته تعالى بشبهة أنّ إثباتها يستلزم التجسيم، وحلول الحوادث على الله تعالى.(١)

وأمّا الكلابية ومن وافقهم فيجعلونها صفات لازمة، أي: إنها صفات تقوم عليه بغير مشيئته وقدرته؛ ومعنى ذلك عندهم: أنّ الله تعالى لم يزل راضيا عمن يعلم أنه يموت مؤمنا، ساخطا على من يعلم أنه يموت كافرا.(٢)

وقد دلّ على قيام هذه الصفات بالله تعالى نصوص أخرى منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣)،(٤).

وأمّا الأحاديث الصحيحة الوارد في إثبات هذه الصفات فلا يمكن حصرها.(٥)

---

(١) ينظر: الفتاوى (٢١٨/٦،٢١٧، ٢٣٣)،والصفدية (٢٧٤/١،٢٤٧)،وشرح العقيدة الطحاوية ص (١٢٤)، والصفات الإلهية ص (٢١٩)،وشرح نونية ابن القيم للهراس (١١٩/١-١٢١).

(٢) ينظر الفتاوى (٣٧٩/٥)، (٢١٧/٦)، وبيان تلبيس الجهمية (٣١/٢).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٩).

(٤) ينظر مجموع الفتاوى (١٩/٨).

(٥) ينظر مجموع الفتاوى (٦/ ٢٣٣).

منها: قوله ﷺ: (إذا تكلّم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا...).[١]

فقوله:«إذا تكلّم الله بالوحي سمع» يدلّ على أنّه يتكلّم به حين يسمعونه.

ومنها قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجل: (...قسّمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين؛ قال الله تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: الرحمن الرحيم؛ قال الله: تعالى أثنى علي عبدي...).[٢]

فأخبر أنه تعالى لا يقول: حمدني عبدي؛ أثنى علي عبدي؛ إلاّ بعد قول: العبد الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم.[٣] مما يدل على تجدّد أفعاله تعالى، وحدوثها باختياره متى شاء، وكيف شاء، كما يليق بجلاله وكماله تعالى.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:« ومسألة الصفات الاختيارية هي من تمام حمده، فمن لم يُقِر بها لم يمكنه الإقرار بأنّ الله محمود البتة، ولا أنه ربّ العالمين؛ فإنّ الحمد ضدّ الذّم؛ والحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له؛ والذمّ هو الإخبار بمساوي المذموم مع البغض له، وجماع المساوي فعل الشرّ؛ كما أنّ جماع المحاسن فعل الخير؛ فإذا كان يفعل الخير بمشيئته وقدرته استحق الحمد؛ فمن لم يكن له فعل اختياريّ يقوم به، بل ولا يقدر على ذلك لا يكون خالقا، ولا ربّا للعالمين».[٤]

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الرد على الجهمية، برقم (٤٧٣٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٣/٣) برقم (١٢٩٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، برقم (٣٩٥).

(٣) ينظر مجموع الفتاوى (٢٣٤/٦).

(٤) المصدر نفسه (٢٥٩/٦).

المطلب الرابع: اعتذاره عن استفتاح باب الجنة.

إنّ مما صدر من نبي الله آدم عليه السلام في الموقف من الأقوال أيضا اعتذاره من المؤمنين في الموقف عن أن يشفع لهم في استفتاح باب الجنة.

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:(يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة؛ فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلاّ خطيئة أبيكم آدم؟! لست بصاحب ذلك؛ اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله...).[١]

الدلالات العقدية.

قد اشتمل هذه الأقوال من نبي الله آدم عليه السلام على ما يلي:

أنّ جنة يوم القيامة هي التي كان فيها آدم عليه السلام قبل أن يهبط في الأرض.

قد قال كثير من العلماء رحمهم الله تعالى بأنّ هذه الجنة التي طلب أهل الموقف من آدم عليه السلام استفتاحها هي عين الجنة التي كان فيها هو وزوجته حوّاء قبل أن يهبطا في الأرض، بدليل قول نبي الله آدم عليه السلام:«وهل أخرجكم من الجنة إلاّ خطيئة أبيكم آدم ».

ووجه الدلالة: أنه عليه السلام أثبت بأنّ خطيئته أخرجته وذريته من تلك الجنة التي كان فيها، وخطيئته لم تخرجهم من جنات الدنيا، ولم تمنعهم من دخولها؛ فدل ذلك على أنها كانت جنة غير جنات الدنيا.[٢]

وأيضا: إنّ آدم عليه السلام ذكر الجنة هنا معرّفة بلام التعريف؛ ولا جنة يعهدها المخاطبون، ويعرفونها إلاّ جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب، فقد صار هذا الاسم عَلَما عليها بالغلبة؛ فحيث ورد لفظها معرّفا انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين.[٣]

وقد استدلوا أيضا على ذلك بأدلة أخرى؛ منها:

قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ .[٤]

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٥).

(٢) ينظر حادي الأرواح ص (٢١).

(٣) المصدر نفسه ص (٢٤).

(٤) سورة البقرة الآية (٣٦).

قالوا:هذا دليل على أنهم ما كانوا في الأرض أوّلا.

وقالوا أيضا: إنّ الله سبحانه وصف الجنة التي أسكنها آدم بصفات لا تكون في الجنة الدنيوية، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾.(١) وهذا لا يكون في الدنيا أصلا – ولو كان الرجل في أطيب منازلها فلا بدّ أن يعرض له الجوع والظمأ، والتّعري والضحى للشمس.

وقالوا أيضا: فإنه لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾.(٢) فإنّ آدم كان يعلم أنّ الدنيا منقضية فانية، وأنّ ملكها يبلى.(٣)

قال ابن القيم (٤) رحمه الله تعالى: « والأشهر عند الخاصّة والعامّة الذي لا يخطر بقلوبهم سواه أنها جنة الخلد التي أعدّت للمتقين، وقد نصّ غير واحد من السلف على ذلك».(٥)

قال الشيخ عبد المحسن العبّاد حفظه الله: «قد ذكر ابن القيم الخلاف وأدلة أصحاب القول الأول والثاني وإجابة كل منهما عما استدل به الآخر، و لم يرجح شيئا، وذلك في كتابه حادي الأرواح، وفي قصيدته الميمية ما يدل على ترجيهه القول الأول، حيث قال:

فحيّ على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيّم

ولكننا سبي العدوّ فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم ».(٦)

وقد قالت طائفة من العلماء أنّ الجنة التي كان فيها آدم ليست جنة الخلد، وإنما هي جنة في الأرض، وقد ذكروا لهذا القول جملة من الأدلة، ليس هنا موضع بسطها.(٧)

---

(١) سورة طه الآية (١١٨-١١٩).

(٢) سورة طه الآية (١٢٠).

(٣) ينظر مفتاح دار السعادة (١/١٤-١٥).

(٤) سبقت ترجمته. ص (٤٨).

(٥) المصدر نفسه (١/١٤).

(٦) قطف الجنى الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني للشيخ عبد المحسن العباد ص(١٢٩).

(٧) ينظر حادي الأرواح ص (٢٥-٢٩)، ومفتاح دار السعادة (١/١١) وما بعدها.

المبحث الثالث: أقوال نبي الله نوح عليه السلام في الموقف ودلالاتها العقدية.

قد ثبت أن نبي الله نوح عليه السلام يصدر منه بعض الأقوال في الموقف، وهي: أقواله عليه السلام حين استشهاده على تبليغه بمحمد ﷺ وأمته، وأقواله عند اعتذاره عن الشفاعة العظمى، وفيما يلي ذكر هذه الأقوال؛ مع بيان ما فيها من الدلالات العقدية؛ بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: استشهاده على إبلاغه بمحمد ﷺ وأمته.

سبق ذكر استشهاد جميع الأنبياء على تبليغهم بمحمد ﷺ وأمته في نصّ عام عند ذكر الأقوال التي صدرت عن الأنبياء جميعا في الموقف؛ ولَمّا ورد نصّ خاص في ذكر استشهاد نوح عليه السلام بهذه الأمة ونبيها؛ كان من المناسب ذكره في مبحث أقواله عليه السلام في الموقف.

فقد روى الإمام البخاري أنّ رسول الله ﷺ قال:

(يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول هل بلّغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلّغكم ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير؛ فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته؛ فيشهدون أنه قد بلغ...).(١)

وقد مرّ ذكر ما اشتمل عليه استشهاد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على تبليغهم بمحمد ﷺ وأمته من الدلالات العقدية، فيغني ذلك عن الإعادة.(٢)

---

(١) رواه البخاري صحيحه ، كتاب التفسير، باب﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ برقم (٤٤٨٧).

(٢) ينظر ص (٢٠٢).

المطلب الثاني: اعتذاره عن الشفاعة العظمى.

إنّ من الأقوال التي صدرت من نبي الله نوح عليه السلام في الموقف ما جرى له من مخاطبات مع أهل الموقف عند اعتذاره عن الشفاعة لهم عند الله تعالى.

فقد ثبت في الصحيح أنّ نبي الله آدم عليه السلام يحوّل أهل الموقف بعد اعتذاره عن الشفاعة لهم إلى نبي الله نوح عليه السلام فيأتونه فيعتذر عن ذلك بقوله عليه السلام:(...إنّ ربي عزّ وجلّ قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم).[1]

وفي رواية:(...إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا؛ ولكن اذهبوا إلى إبراهيم).[2]

وفي رواية أخرى: (...لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب؛ سؤالَه ربه بغير علم، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن).[3]

الشرح:

قوله: «لست هناكم»كناية عن أنّ منزلته دون المنزلة المطلوبة، وقاله تواضعا وإكبارا لما يسألونه؛ وقد يكون فيه إشارة إلى أنّ هذا المقام ليس له وإنما لغيره.[4]

وقيل معناه: لست أهلا لذلك.[5]

ويلاحظ أن نبي الله نوح عليه السلام اعتذر عن الشفاعة لأهل الموقف بدعوته عليه السلام على قومه فأهلكوا في رواية؛ وبسؤاله عليه السلام ربه ما ليس به علم في الرواية الأخرى؛ وقد اعتذر بهذين الأمرين لسببين:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ برقم (٤٧١٢)، ومسلم في صحيحه،كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل، برقم (٣١٤٨)، وقال:« هذا حديث حسن صحيح».

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢٧٠١/٦) برقم (٧٠٠٢).

(٤) ينظر فتح الباري (٤٣٣/١١).

(٥) ينظر شرح النووي على مسلم (٥٥/٣).

أحدهما: نهي الله تعالى له أن يسأل ما ليس له به علم، فخشي أن يكون طلبه الشفاعة لأهل الموقف من سؤال ما ليس له به علم.

ثانيهما: أنه ﷺ كانت له دعوة واحدة محقّقة الإجابة، وقد استوفاها بدعائه على أهل الأرض، فخشي أن يطلب فلا يجاب.[١]

وقد قيل: إنّ نبي الله نوح ﷺ جعل دعوته على قومه سببا لتوقّفه عن طلب الشفاعة للخلق لأنّ تلك الدعوة نشأت عن غضب وقسوة، والشفاعة تكون عن رضا ورقة، فخاف أن يعاتب ويقال: دعوت على الكفّار بالأمس، وتشفع لهم اليوم.[٢]

وقد سبق ذكر ما تضمنه قوله ﷺ « إنّ ربي عزّ وجلّ قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله» وقوله:« لست هناكم» من الدلالات العقدية عند ذكر أقوال نبي الله آدم ﷺ مما يغني عن الإعادة.

(١) ينظر فتح الباري (٤٣٤/١١)، وتحفة الأحوذي (١٠٥/٧).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (٢٦٨/١٨).

المبحث الرابع: أقوال نبي الله إبراهيم عليه السلام في الموقف ودلالاتها العقدية.

ورد في النصوص الثابتة أنّ نبي الله إبراهيم عليه السلام يصدر منه في الموقف جملة من الأقوال؛ في أحوال شتى، ومواقف مختلفة؛ منها مخاطباته لأبيه آزر؛ ومنها ما قاله عليه السلام معتذرا عن الشفاعة لأهل الموقف؛ ومنها مخاطباته لأهل الإيمان عند اعتذاره عليه السلام عن استفتاح باب الجنة لهم؛ وفي المطالب التالية ذكر هذه الأقوال؛ مع بيان ما تضمنها من الدلالات العقدية بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: مخاطبات إبراهيم عليه السلام لأبيه في الموقف.

ثبت أنّ إبراهيم عليه السلام يلقى أباه في الموقف فيخاطبه مخاطبة اللائم؛ ثم تأخذه الشفقة فيطلب له المغفرة من الله تعالى.

فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة؛ فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول: أبوه فاليوم لا أعصيك؛ فيقول إبراهيم: يا رب إنّك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون؛ فأيّ خزيٍ أخزَى من أبي الأبعد؟.

فيقول الله تعالى: إني حرّمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطّخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار).(١)

الشرح:

قوله صلى الله عليه وسلم :«وعلى وجه آزر قترة وغبرة» قيل: القترة هي الغبرة؛ وإنما حصل في الكلام تأكيد لفظي؛ كأنه قال: غبرة فوقها غبرة. وقيل: القترة ما يغشى الوجه من الكرب، والسواد الكائن عن الكآبة؛ والغبرة ما يعلوه من الغبار؛ فأحدهما حسيّ، والآخر معنوي، وهذا هو الظاهر.

قوله صلى الله عليه وسلم :«فأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد» قوله: الأبعد صفة لأبيه؛ أي: أنّه شديد البعد من رحمة الله، لأنّ الكافر بعيد منها؛والمراد منه الهالك.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾، وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ ﴾ برقم (٣٣٥٠).

قوله:« ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» الذيخ: ذكر الضباع؛ وقوله:« متلطخ» أي: في رجيع، أو دم، أو طين.

والحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم منه؛ ولئلا يبقى في النار على صورته فيكون فيه غضاضة على إبراهيم.

وأمّا الحكمة في مسخه ضبعا فقد قيل: لأنّ الضبع من أحمق الحيوان؛ وآزر كان من أحمق البشر، لأنّه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البينات أصرّ على الكفر حتى مات.

واقتصر في مسخه على هذا الحيوان لأنه وسط في التشويه بالنسبة إلى ما دونه كالكلب والخنزير؛ وإلى ما فوقه كالأسد مثلا؛ ولأنّ إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفض الجناح فأبى واستكبر، وأصرّ على الكفر، فعومل بصفة الذل يوم القيامة؛ ولأنّ للضبع عوجا فأشير إلى أنّ آزر لم يستقم فيؤمن؛ بل استمر على عوجه في الدين.

وقد استُشكِل هذا الحديث من جهة أنّ إبراهيم علم أنّ الله لا يخلف الميعاد فكيف يجعل ما صار لأبيه خزيا مع علمه بذلك؟!؛ وأنه أيضا مخالف لظاهر قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ .(١)

والجواب عن ذلك: أنّ أهل التفسير اختلفوا في الوقت الذي تبرأ فيه إبراهيم من أبيه؛ فقيل: كان ذلك في الحياة الدنيا لما مات آزر مشركا.

وقيل: إنما تبرّأ منه يوم القيامة لما يئس منه حين مُسِخ ضبعا.

ويمكن الجمع بين القولين بأنّه تبرّأ منه لما مات مشركا فترك الاستغفار له، لكن لما رآه يوم القيامة أدركته الرأفة والرقة فسأل فيه الشفاعة؛ فلمّا رآه مُسخ يئس منه حينئذ فتبرأ منه تبرؤًا أبديا.(٢)

وفي هذه المخاطبات التي صدرت من إبراهيم عليه السلام دليل على أنّ الكافر لا نصيب له من الشفاعة، حيث إن إبراهيم عليه السلام على علوّ مرتبته، وكونه خليلا للرحمن لم يأذنه الله في الشفاعة في أبيه لكونه مات كافرا. والعياذ بالله.

---

(١) سورة التوبة الآية (١١٤).

(٢) ينظر فتح الباري (٨/٤٩٩-٥٠١).

المطلب الثاني: اعتذاره عن الشفاعة العظمى.

إنّ من الأقوال التي صدرت من إبراهيم عليه السلام في الموقف اعتذاره عن الشفاعة العظمى؛ فقد ثبت أنّ أهل الموقف يأتونه عليه السلام فيقولون:

(يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إنّ ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى...).[١]

وفي رواية:

(...فيأتون إبراهيم فيقول:لست هناكم؛ ويذكر خطيئته التي أصاب ثلاث كذبات كذبهن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[٢] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[٣] وأتى على جبّار مترف؛ ومعه امرأته فقال: أخبريه إني أخوك؛ فإني مخبره أنك أختي، ولكن ائتوا موسى...)[٤]

الشرح:

قوله ﷺ : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قيل: إنّ إبراهيم عليه السلام أراد به سيسقم سقم الموت، لأنّ من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت.

وأمّا قوله عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أراد به أن يريهم عجز آلهتهم عن الفعل؛ حيث جعل قدرهم على النطق شرطا للفعل؛ وفي ضمن هذا إخبار بأنه عليه السلام فعله.

وأمّا قوله للملك-لما سأله عن سارة-: هي أختي يعني به عليه السلام أخوة الدين.[٥]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه،كتاب تفسير القرآن،باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ برقم (٤٧١٢)، ومسلم في صحيحه،كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

(٢) سورة الصافات الآية(٨٩).

(٣) سورة الأنبياء الآية (٦٣).

(٤) رواه أحمد في المسند، برقم (١٣٥٦٢)، وهو صحيح، ينظر تحقيق المسند (١٨٨/٢١)، و ظلال الجنة للألباني (٧٣/٢) برقم (٨٠٤).

(٥) ينظر تفسير البغوي(٢١٠/٣)، وفتح القدير (٥٧٠/٤)،

والحقّ أن هذه الكلمات الثلاث إنما كانت من معاريض الكلام؛ وليست من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله.[١] لكن لما كانت صورتها صورة الكذب أشفق منها استصغارا لنفسه عن الشفاعة.[٢]

الدلالات العقدية.

إن مما يتضمنه أقوال نبي الله إبراهيم عليه السلام في هذه الأحاديث من الدلالات العقدية ما يلي:

- كمال مقام الخوف والخشية من الله تعالى عند الأنبياء عليهم السلام.

إنّ في قول نبي الله إبراهيم عليه السلام «وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات» دلالةً على كمال مقام الخوف والخشية من الله تعالى لدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ حيث سمّى إبراهيم عليه السلام كذبا ما ليس من الكذب في الحقيقة، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعيّ ديني؛ وحتى لو قيل: إنه كذب؛ فالكذب المحض في مثل تلك المواقف يجوز؛ وقد يجب لتحمّل أخف الضررين دفعا لأعظمهما.[٣]وإنما سمّاه كذلك لكمال خشيته من الله تعالى؛وإلاّ فإبراهيم عليه السلام صادق؛ لكن لعلوّ مقامات الأنبياء وقرب محلهم، واصطفائهم، عدّ هذا كذبا.[٤]وما ذلك إلا لكمال معرفته بالله؛ فمن كان أعرف بالله وأقرب إليه منزلة كان أعظم خوفاله.[٥]

خوفاله.[٥]

فعلى قدر العلم والمعرفة بالله يكون الخوف والخشية.[٦]ولذا قال النبي ﷺ :(والله إني لأعلمكم بالله عزّ وجلّ وأتقاكم له قلبا...).[٧]

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٤٤٢/٤)، وفتح الباري(٣٩٢/٦).

(٢) ينظر فتح الباري (٤٣٥/١١).

(٣) ينظر فتح الباري(٣٩٢/٦).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٨٣/١٥).

(٥) ينظر فتح الباري (٤٣٥/١١).

(٦) ينظر مدارج السالكين(٥١٣/١).

(٧) رواه أحمد في المسند برقم (٢٤٣١٩)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. ينظر تحقيق المسند (٣٧٦/٤٠).

المطلب الثالث: اعتذاره عن استفتاح باب الجنة.

إنّ من الأقوال التي تصدر من إبراهيم عليه السلام في الموقف ما خاطب به المؤمنين لما زلفت لهم الجنة؛ فقد ثبت أنّ المؤمنين يأتونه عليه السلام طالبين منه أن يشفع في استفتاح باب الجنة فيقول عليه السلام معتذرا: (... لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلا من وراء وراء اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلمه الله تكليما...).[١]

الشرح:

قوله:« إنما كنت خليلا من وراء وراء » ضبط قوله:« وراء وراء » بفتح الهمزة وبضمها؛ وأشهرهما الفتح؛ وهي كلمة يقولها من يريد التواضع؛ ومعناه: لم أكن في التقريب والإدلال في تلك الدرجة.[٢]

الدلالات العقدية.

قد تضمن قول نبي الله إبراهيم عليه السلام في هذا الحديث بما يلي:

مسألة المفاضلة بين نبي الله إبراهيم ونبي الله موسى عليهما السلام.

قد استدل بعض العلماء بقول نبي الله إبراهيم عليه السلام:« إنما كنت خليلا من وراء وراء » على أنّ إبراهيم عليه السلام بعد النبي محمد وموسى عليهما السلام في الفضل والرتبة، وذلك بتكراره عليه السلام كلمة«وراء» فكأنه عليه السلام قال: أنا من وراء موسى الذي هو من وراء محمدﷺ.[٣]

واستدلوا أيضا بما ثبت في بعض روايات حديث الإسراء عند البخاري من حديث شريك بن عبد الله [٤] قال:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٥).

(٢) ينظر فتح الباري (٢٠٤/١) و(٢٣٤/١١-٢٣٥)، وشرح النووي على مسلم (٧١/٣).

(٣) ينظر شرح النووي على مسلم (٧١/٣).

(٤) شريك بن عبد الله هو أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي الكوفي القاضي، ولي القضاء بواسط ثم ولي الكوفة بعد، توفي سنة ١٨٨وقيل ١٧٧هـ.ينظر تهذيب التهذيب(١٦٤/١-١٦٥)، والسير (٢٠٠/٨؛٢١١).

(... ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك؛ كل سماء فيها أنبياء قد سمّاهم؛ فوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه؛ وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله فقال موسى رب لم أظن أن ترفع علي أحدا...) [١]

والأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله.[٢]

ولكن المشهور تقديم إبراهيم عليه السلام على موسى عليه السلام في الرتبة.[٣] لأنّ المشهور في الروايات أنّ الذي في السماء السابعة هو إبراهيم عليه السلام وهو المعتمد.[٤]

ويؤكّد ذلك ما ثبت من أنه عليه السلام رآه النبي ﷺ وهو مسند ظهره إلى البيت المعمور.

وقيل: يمكن الجمع بين حديث شريك والروايات الأخرى بأن يقال:إنّ موسى كان في حالة عروج النبي ﷺ في السماء السادسة، وإبراهيم في السماء السابعة؛ وعند الهبوط كان موسى في السابعة، لأنّه لم يذكر في القصة أنّ إبراهيم كلّمه في شيء مما يتعلّق بما فرض الله على أمته من الصلاة كما كلّمه موسى؛ والسماء السابعة هي أول شيء انتهى النبي ﷺ إليه في حالة الهبوط، فناسب أن يكون موسى عليه السلام بها، لأنه هو الذي خاطبه في ذلك كما ثبت في جميع الروايات.

ويحتمل أن يكون النبي ﷺ لقي موسى عليه السلام في السماء السادسة، فأُصعد معه إلى السابعة تفضيلا له على غيره من أجل كلام الله تعالى؛ وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع المصطفى ﷺ فيما يتعلّق بأمر أمته في الصلاة . والعلم عند الله تعالى.[٥]

---

(١)رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب كان النبي تنام عينه ولا ينام قلبه،برقم (٣٥٧٠).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤٨٣/١).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٧٢٤/٣).

(٤) ينظر فتح الباري (٤٨٢/١٣).

(٥) المصدر نفسه.

المبحث الخامس: أقوال نبي الله موسى ﷺ في الموقف ودلالاتها العقدية.

قد ثبت لنبي الله موسى ﷺ مخاطبات مع أهل الموقف عند اعتذاره عن الشفاعة العظمى؛ وجرى له أيضا مخاطبات مع المؤمنين حين سألوه ﷺ الشفاعة في استفتاح باب الجنة لهم؛ وفيما يلي ذكر هذه الأقوال مع دراستها بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: اعتذاره عن الشفاعة العظمى.

إنّ أهل الموقف يتحوّلون إلى نبي الله موسى ﷺ يطلبون منه الشفاعة إلى الله تعالى؛ وذلك بأمر من نبي الله إبراهيم ﷺ؛ وورد أنّ موسى ﷺ يعتذر عن ذلك بقوله ﷺ :(...إنّ ربي قد غضب اليوم غضبا؛ لم يغضب قبله مثله؛ ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي؛ اذهبوا إلى غيري؛ اذهبوا إلى عيسى...).[1]

الدلالات العقدية.

قد اشتمل أقوال نبي الله موسى ﷺ على ما يلي:

-جواز وقوع الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل النبوة.

دلّ قول نبي الله موسى ﷺ «وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها» على أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليسوا معصومين من الكبائر قبل النبوة، بل يجوز وقوعها منهم، وذلك لأنّ قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، ولا الاقتداء بهم؛ فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه، وكانوا مأمونين في الأداء، معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب؛ وهذا ما دلّ عليه الكتاب والسنة، وذهب إليه الجمهور.[2]

وفي هذا رد على الرافضة الذين ذهبوا إلى امتناع ذلك منهم قبل النبوة؛ بحجة أنّ ذلك يوجب هضمهم في النفوس، واحتقارهم، والنفرة عن اتّباعهم.

وهذا مما انفردوا به بين سائر الفرق؛ ومن مقصودهم بذلك القدح في إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لكونهما أسلما بعد الكفر؛ وإثبات كون عليّ رضي الله عنه أحق بهما

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ برقم(٤٧١٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

(٢) ينظر الإحكام في أصول الأحكام(١/٢٢٤)، وإرشاد الفحول(١/٥٤)، ومنهاج السنة(٢/٤٢٩). وتفسير القرطبي (١١/٢٢٨).

بالخلافة لأنه لم يزل مؤمنا، وأنه لم يذنب قط.(١)

ونكتة أمرهم أنهم ظنّوا وقوع ذلك من الأنبياء والأئمة نقصا؛ وأنّ ذلك يجب تنـــزيههم عنه؛ وهم مخطئون في ذلك إذ ليس من تاب إلى الله تعالى، وأناب إليه، بحيث صار بعـــد التوبة أعلى درجة مما كان قبلها منقوصا ولا مغضوضا منه، بل هذا مفضّل عظيم مكرّم.

ويبين صحّة هذا الأصل أنّ أولياء الله يكون الرجل منهم قد أسلم بعد كفره، وآمن بعـــد نفاقه، وأطاع بعد معصيته. كما كان أفضل أولياء الله من هذه الأمة؛ وهـــم الســـابقون الأولون.(٢)

فالإنسان ينتقل من نقص إلى كمال، فلا يُنظر إلى نقص البداية، ولكن يُنظر إلى كمـــال النهاية، فلا يُعاب الإنسان بكونه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة إذا كان الله بعد ذلك خلقه في أحسن تقويم.

فمن نظر إلى ما كان فهو من جنس إبليس الذي قال لما أُمر بالسجود لآدم عليه السلام: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٣)،(٤).

---

(١) ينظر منهاج السنة(٢/٤٢٩).

(٢) ينظر منهاج السنة (٢/٤٢٩).

(٣) سورة الأعراف الآية (١٢).

(٤) ينظر منهاج السنة (٢/٤٣٠).

المطلب الثاني: اعتذاره عن استفتاح باب الجنة.

إنّ من الأقوال التي صدرت عن نبي الله موسى عليه السلام في الموقف أيضا ما خاطب به المؤمنين حين زلفت لهم الجنة؛ فقد ثبت أنهم يأتونه عليه السلام بأمر من نبي الله إبراهيم عليه السلام طالبين منه أن يشفع لهم في استفتاح باب الجنة، فيقول لهم معتذرا:(...لست بصاحب ذلك اذهبــوا إلى عيسى كلمة الله وروحه...).[1]

وقد سبق ذكر الدلالات العقدية في قوله عليه السلام في عيسى« كلمة الله وروحه ».[2]

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٥).

(٢) ينظر ص ( ).

المبحث السادس: أقوال نبي الله عيسى ﷺ في الموقف ودلالاتها العقدية.

ثبت في الكتاب والسنة جملة من المخاطبات لنبي الله عيسى ﷺ، منها ما خاطب بها الرب سبحانه وتعالى متبرءا مما افتُرِيَ عليه من دعوى الألوهية لنفسه.

ومنها ما جرت بينه ﷺ وبين عامّة أهل الموقف؛ ومنها ما خاطب به ﷺ المؤمنين حينما زلفت لهم الجنة؛ وفيما يلي من المطالب ذكر هذه الأقوال مع دراستها بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: تبرؤ عيسى ﷺ من ادّعاء الألوهية لنفسه.

إنّ مما صدر عن عيسى ﷺ في الموقف من الأقوال ما خاطب به الرب سبحانه وتعالى متبرّئا مما افتراه النصارى عليه وعلى أمّه ويعتقدونه فيهما من الربوبية، وذلك حينما يسأله الله سبحانه وتعالى -إظهارًا لكذب النصارى، وتوبيخا لهم على رؤوس الأشهاد- عمّا ادّعِي فيه وفي أمه هل كان بأمر منه ﷺ أم لا.

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.(١)

الشرح:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ هذا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ يوم القيامة؛ بحضرة من اتخذه وأمّه إلهين من دون الله؛ تهديدا لهم وتوبيخا وتقريعا على رؤوس الأشهاد؛ هكذا قال سائر المفسرين.(٢)

بدليل قوله تعالى: من قبل هذا الخطاب: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾(٣)

---

(١) سورة المائدة الآية (١١٦-١١٨).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٠٣٧/٢).

(٣) سورة المائدة الآية (١٠٩).

وقوله من بعده: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [(١)] وقد أراد بهما يوم القيامة.[(٢)]
وقيل: إنّ هذا الخطاب حصل لعيسى عليه السلام في الدنيا حين رفع إلى السماء لأنّ الكلام فيه بلفظ المضيّ.[(٣)]
والأظهر أنّه كائن يوم القيامة؛ لأنّ كثيرا من أموره يذكر بلفظ المضيّ ليدل على الوقوع والثبوت.[(٤)]
وقوله تعالى: ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ هذا توفيق من الله تعالى له عليه السلام للتأدّب مع الرب في الجواب الكامل؛ أي: تنزيها لك يا رب وتعظيما عن أن أفعل ذلك، أو أتكلّم به.[(٥)]
وقوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي، ولا من حقوقي.[(٦)]
وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ أي: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب؛ فإنه لا يخفى عليك شيء؛ فما قلته، ولا أردته في نفسي، ولا أضمرته. فإنك تعلم سري، وما انطوى عليه ضميري الذي خلقته؛ ولا أعلم شيئا مما استأثرت به من غيبك وعلمك؛ فأنت العالم بما كان وما يكون.[(٧)]
وقوله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي: ما دعوهم إلاّ إلى الذي أرسلتني بــه، وأمــرتني بإبلاغه من عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له؛ المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمّي إلهــين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب؛ وكنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم؛

---

(١) سورة المائدة الآية (١١٩).

(٢) ينظر تفسير البغوي (٦٦/٢)، وتفسير القرآن العظيم (١٠٣٧/٢).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٣٦/٥).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٠٣٨/٢).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٣٦/٥)، وتفسير القرآن العظيم (١٠٣٩/٢).

(٦) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٢٢٧).

(٧) ينظر تفسير القرطبي (٣٤٦/٦)، وتفسير القرآن العظيم (١٠٣٩/٢).

فلمّا توفيتني كنت أنت المطّلع على أعمالهم، والعالم بأسرارهم وما في ضمائرهم، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات.

وقوله: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي: إن تعذّبهم فبتمرّدهم عذبتهم؛ لأنّك أرحم بهم من أنفسهم؛ فلولا تمردهم ما عذبتهم. وإن تغفر لهم فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة؛ فلا تكون عن عجز وعدم القدرة؛ ولا ينالها إلا من يستحقها حيث تكون من مقتضى حِكمتك.

وهذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عزّ وجلّ، وتسليم الأمر إلى مراده؛ فإنه تعالى الفعّال لما يشاء؛ الذي لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون.(١)

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٠٣٩/٢)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٢٢٧)، وتفسير البغوي (٦٧/٢).

المطلب الثاني: الرد على النصارى في دعواهم بنوة عيسى لله تعالى.(١)

إنّ في قوله تعالى على لسان عبده ورسوله عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أي: تنزيها لك يا رب وتعظيما عن أن أفعل ذلك، أو أتكلّم به.(٢)

وقوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي، ولا من حقوقي.(٣)

وقوله تعالى مخبرا عنه عليه السلام ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمّن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني مربوب، فكما أنه تعالى ربكم فهو ربي(٤) إنّ في كل هذه المقاطع الثلاثة من أقوال نبي الله عيسى عليه السلام ردا على النصارى في دعواهم بنوة المسيح لله سبحانه، حيث إنه عليه السلام نزّه الله وعظّمه في قوله: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ من ينسب إليه تعالى ذلك المقولة.

وبيّن في المقطع الثاني أنه عليه السلام لا ينبغي له ولا يليق أن يدّعي أو يقول شيئا ليس من أوصافه.

وذكر عليه السلام في المقطع الثالث أنّ مهمته عليه السلام كانت في الدعوة إلى عبادة الله، والنهي عن اتّخاذه هو وأمه إلهين من دون الله، وبيان أنه مربوب، كما أنهم مربوبون.

وسيأتي في الباب الثالث زيادة إيضاح لهذه المسألة، بذكر الأسباب التي دعت النصارى إلى القول ببنوة المسيح عليه السلام لله سبحانه مع الرد عليها، بإذن الله تعالى.

---

(١) إنّ القول بألوهية المسيح وأنّه ابن الله تعالى واضح في الديانة النصرانية المحرّفة؛ بل هو أصل من أصولها التي اتّفقت عليه طوائف النصارى المشهورة، فهي كلها تقول بالأقانيم الثلاثة الأب؛ والابن؛ وروح القدس؛ وتقول عن الله ثالث ثلاثة، وتقول عن المسيح عليه السلام إنه ابن الله. ينظر قاموس الكتاب المقدس ص (٣٢٣)، والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ص (٤٦)، ودقائق التفسير (٣٠/٢).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٣٦/٥)، وتفسير القرآن العظيم (١٠٣٩/٢).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٢٢٧).

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص (٢٢٧).

المطلب الثالث: الرد على النصارى من خلال كلامه ﷺ.

قد تضمن مخاطبة نبي الله عيسى لله تعالى في هذه الآيات ردود على النصارى في مسائل كثيرة من صلب الديانة النصرانية.

الأولى: الرّدّ على النصارى في دعواهم ألوهية المسيح ﷺ وأمه.

إنّ في قوله تعالى على لسان عيسى ﷺ ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ردًّا على طوائف النصارى في قولهم بألوهية المسيح ﷺ وأمّه مريم.(١) حيث صدّر عيسى ﷺ جوابه بتنزيه لله تعالى عن مضمون تلك المقالة؛ بقوله ﴿سُبْحَانَكَ﴾؛ إعلانا بأنه تعالى إذا كان متنزّها عن ذلك فلا جرم أنه لا يأمر به أحدا؛ ثم بدأ بتبرئة نفسه بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ليست الألوهية من أوصافي ولا من حقوقي؛ وهذا أكثر مبالغة في النفي من لو أنه قال ﷺ :«لم أقله»؛لأنه نفيٌ لوجود صفة استحقاق ذلك القول فيه.(٢)

---

(١) إنّ القول بألوهية المسيح واضح في الديانة النصرانية؛ بل هو أصل من أصولها التي اتفقت عليه طوائف النصارى المشهورة، فهي كلها تقول بالأقانيم الثلاثة الأب والابن وروح القدس؛ وتقول عن الله ثالث ثلاثة، وتقول عن المسيح إنه الله، وتقول إنه ابن الله. ينظر قاموس الكتاب المقدس ص (٨٥٦). ودقائق التفسيرلشيخ الإسلام(٣٠/٢)، والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة لعبد القادر شيبة الحمد ص (٤٦)، والموسوعة الميسرة (٥٨٤/٢).وأمّا قولهم بألوهية مريم فباعتبار قولهم فيها: إنها والدة إله، واعتقادهم بأن صورتها يجب أن توضع في الكنائس وعلى الحلل الكهنوتية، ويجب تعليقها على أيضا على المنازل وفي الطرق، وأن يقدّم لها صنوف التكريم؛ من التقديس والسجود، ويستشفع بها إلى الله في الحاجات والملمّات. ينظر مجموعة الشرع الكنسي ص(٨٠١)، والموسوعة الميسرة (١٨٥/٢) ودراسات في الأديان؛ اليهودية والنصرانية للدكتور سعود الخلف ص (٢٢١).

وقد قيل في أخبار النصارى: إنه كانت توجد فرقة من فرقهم من تقول بألوهية مريم وعيسى يقال لهم المريميون ينظر الجواب الصحيح(١٤/٢-١٥).

وقيل أيضا إنه كانت من بين الأساقفة الحاضرين في مجمع نيقية -أول مجامع النصارى العالمية الذي عقد سنة ٣٢٥م — من يقولون بألوهية مريم يسمى فرقتهم البرانية. ينظر دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ص (٢١٤)؛ فقولهم بألوهيتها إذا يرجع إلى هذه الأمورالثلاثة أو إحداها.

(٢) ينظر التحرير والتنوير ص (١١٤/٧)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٢٢٧).

مما يدل على تبرّئه من هذه المقالة، وأنّ دعوته قامت على التوحيد ونبذ الشرك كـــدعوة غيره من الأنبياء عليهم السلام، كما حكى الله ذلك عنه في مواضع من القرآن؛ منها: قوله تعالى على لسانه عليه السلام في ضمن جوابه هـــذا: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ .[1] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .[2]

مما يدل على أنّ القول بألوهية المسيح وأمّه عقيدة مبتدعة؛ اخترعها النصارى بعد المسيح بمدة من الزمان؛ تأثرا بالوثنيات التي كانت تحيط بهم.[3]

---

(١) سورة المائدة الآية (١١٧).

(٢) سورة آل عمران الآية (٥١).

(٣) ينظر دراسات في اليهودية والنصرانية وأديان الهند للأعظمي ص(٤٧٩-٤٨٥).

الثانية : الرد على النصارى في عقيدة التجسد والاتحاد.[١]

إنّ في هذه المخاطبة التي جرت بين الرب سبحانه وتعالى وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام في الموقف-بداية من قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [٢]

إنّ في هذه المخاطبة التي لا تتصور إلاّ بين ذاتين منفصلتين؛ وعينينن كل واحدة منهما قائمة بنفسها- دليلا على فساد عقيدة التجسد والاتحاد لدى النصارى؛ لأن الاتّحاد يصيّر الاثنين واحدا، أمّا إذا كانا اثنين كما كانا قبل الاتّحاد فلا اتّحاد بل هما متعددان.[٣]

---

(١) المراد بهذه العقيدة لدى النصارى هو أن الله تبارك وتعالى اتخذ جسد المسيح له صورة وحلّ بين الناس بصورة إنسان هو المسيح. ينظرحقائق أساسية في المسيحية ص(٧٦-٧٧)،ودراسات في اليهودية والنصرانية (٤٩٥)ودراسات في الأديان ص (٢٤٩).

والنصارى يقولون إن هذا الاتحاد حصل بدون أن يكون هناك تغير أواختلاط بينهما؛وهذه العقيدة لم يمكن للنصارى فهمها ولا تفهيمها لأتباعهم؛ لأن الشيئين إذا كانا ذاتين ثم اتحدّا إمّا أن يكونا اثنين كما كانا؛ وحينئذ فلا اتحاد؛ أو يصيرا بعد الاتحاد شيئا واحدا ؛وهذا عدم لأحدهما؛ أو يصيرا بعد الاتحاد شيئا آخر ليس أحدهما، ولا الآخر؛ كما لو اتحد الماء واللبن كان الحاصل من اتحادهما شيئا ثالثا ليس ماء محضا ولا لبنا محضا. ينظر الجواب الصحيح (٤/٥-٦).

(٢) سورة المائدة الآية (١١٠-١١٦).

(٣) ينظر الجواب الصحيح (٤/٦).

الثالثة: الرد على النصارى في عقيدة الصلب والفداء.[١]

إن قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دليل على فساد عقيدة الصلب والفداء لدى النصارى؛ حيث إنّ المسيح عليه السلام أثبت أنّ لهم ذنوبا يستحقون العذاب بها، ووكل مغفرتهم إلى الله تعالى وفوّضه إليه سبحانه؛ ولو كانت ذنوبهم قد انحطّت عنهم بصلبه عليه السلام كما يزعمون لـمّا بقيت لهم في ذلك الموقف أوزارا يستوجبون منها العذاب؛ ولـمّا كانوا بحاجة إلى مغفرتها؛ حيث إنها كانت منحطة عنهم في الدنيا بعد صلبه عليه السلام على زعمهم.

والأدلة الدالة على بطلان هذه العقيدة كثيرة جدا، ويكفي أنها مناقضة للشرع والعقل؛ حيث إنّ هذا الذنب الذي وقع من آدم في حقّ الله لم يكن يلزم للتكفير عنه أن ينزل الربّ سبحانه ليصلب على الصليب بعد أن يُذلَّ ويهان من أجل أن يُرضِيَ نفسه، بل الأمر يكفي فيه قبول التوبة، ومغفرة الذنب؛ وهذا الذي وقع كما نص عليه القرآن[٢]؛إلاّ أنّ النصارى أبوا إلا اعتقاد هذه الخرافات التي هي مضاحك العقلاء؛ والتي لا تصلح أن تضاف إلى أجهل الملوك وأظلمهم.[٣]

---

(١) يقصد النصارى من هذه العقيدة أنّ آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه، وعاقبه وأنّ تلك العقوبة بقيت في ذريته فكانوا في حبس إبليس؛ فكان لابد من وسيط يتحمل هذا الإثم،ويرضى بأن يموت على الصليب، وهذا الوسيط لا بد أن يكون ذا وضع متميز خال من الإثم والخطأ، ولا يكون هذا إلا ابن الله؛ وهذا ما جعل الله سبحانه في زعمهم يتجسد في صورة عيسى عليه السلام ويخرج من بطن مريم ثم يموت على الصليب فداء للبشر، فيرضى الله بذلك عن بني آدم، وترتفع عنهم تلك الخطيئة.والجدير بالذكر أنّ النصارى زعموا أن من مات من البشر قبل هذا الصلب والفداء ذهبت روحه إلى جهنم حتى الأنبياء منهم. ينظر قاموس الكتاب المقدس ص (٦٧٢)؛ والجواب الصحيح(١٠٧/٢)ودراسات في الأديان ص(٢٥٦).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في الرد على هذه العقيدة الفاسدة:« ومعلوم أنّ إبراهيم عليه السلام كان أبوه كافرا و لم يؤاخذه الله بذنب أبيه؛ فكيف يؤاخذه بذنب آدم عليه السلام وهو أبوه الأبعد هذا لو قدّر أن آدم لم يتب؛ فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة » الجواب الصحيح (١٠٧/٢-١٠٨).

(٢) أخبر الله تعالى عن قبول توبة آدم عليه السلام في سورة البقرة الآية(٣٧)وسورة طه الآية(١٢٢).

(٣) ينظر الجواب الصحيح (١٠٨/٢)، ودراسات في الأديان ص (٢٧٧).

الرابعة: الرد على النصارى في عقيدة تولي عيسى عليه السلام محاسبة الناس.[١]

إنّ قول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ دليل على بطلان عقيدة الدينونة والحساب عند النصارى؛ وذلك أنّ عيسى عليه السلام فوّض أمر أولى الناس بمحاسبته —وهم الذين يزعمون أنهم أتباعه في ملته – إلى الله تعالى وسلّمه إليه، مما يدل على أنه عليه السلام لا يتولّى حسابهم فضلا عن غيرهم من الأمم؛ بل دل أقواله عليه السلام في هذه الآيات على أنه محاسب في ذلك اليوم كغيره من البشر، والنصوص الدالة على اختصاص الله تعالى بحساب خلقه يوم القيامة أكثر من أن تورد في هذه الصفحات؛ ومنها مثلا؛ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾.[٢] أي إلينا مرجعهم ومنقلبهم؛ ونحن نحاسبهم على أعمالهم، ونجازيهم بها،إن خيرا فخيرا،وإن شرّا فشرا.[٣]

وقوله تعالى:

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[٤]

يعني بذلك نفسه الكريمة، أي، كفى به حاسبا وعالما بأعمال العباد، حافظا لها، مثبتا لها في

---

(١) هذه العقيدة تسمّى عند النصارى بالدينونة والحساب وتعني عندهم: الإيمان بأنّ عيسى عليه السلام سيجلس يوم القيامة على على يمين الرب ليتولى حساب الناس وإدانتهم، لأنّ فيه من جنس البشرية ما يعينه على محاسبة الناس على أعمالهم؛ ومما يستدلون به على هذه العقيدة ما ورد في إنجيل يوحنا (٥/٢٦) « كما أنّ الأب له حياة في ذاته أعطى الإبن أيضا أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطانا أن يدين أيضا لأنه ابن الإنسان»، ينظر دراسات في الأديان ص (٢٨٣)، والموسوعة الميسرة (٥٨٥/٢).

ويقول مؤلفوا قاموس الكتاب المقدس:« قد أعطيت الدينونة للرب يسوع المسيح، فهو الديان الذي يقف أمامه جميع البشر لكي يعطوا حسابا عن أعمالهم في الجسد؛ خيرا كان أم شرا...وحكم هذه الدينونة نهائي ولا يقبل النقض ولا الاستئناف، وبموجب هذا الحكم يدخل الأبرار إلى أمجاد ملكوت المسيح وأفراحها، ويذهب الأشرار إلى الظلمة الخارجية واليأس الأبدي».ينظر قاموس الكتاب المقدس ص (٣٨٢).

(٢) سورة الغاشية الآية (٢١-٢٦).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٣٠٨٤/٤).

(٤) سورة الأنبياء الآية (٤٧).

الكتاب، عالما بمقادير ثوابها وعقابها، موصلا للعُمّال جزاؤها.(١)

يقول ابن أبي زمنين(٢) رحمه الله:«ومن قول أهل السنة: أنّ الله عزّ وجلّ يحاسب عباده يوم القيامة، ويسألهم مشافهةً منه إليهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ .(٣) وقال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾ .(٤) وقال ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .(٥) وقال: ﴿ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ .(٦) وقال: ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ .(٧) وهل يحاسب العبادَ إلاَّ الذي خلقهم وتعبّدهم، وأحصى أعمالهم، وحفظها وحفظها عليهم، حتى يسألهم عنها، فيغفر لمن يشاء، ويعذّب من يشاء وهو العلي القدير».(٨)

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٤٩٧).

(٢) ابن أبي زمنين هو القدوة الزاهد أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن عيسى الأندلسي الإلبيري، شيخ قرطبة، تفقّه وتفنّن واستبحر في العلم، وكان صاحب جدّ وإخلاص ومجانبة للأمراء، له كتاب حياة القلوب، وأدب الإسلام، وغيرها، توفي سنة ٣٩٩هـ. ينظر السير (١٨٨/١٧).

(٣) سورة المائدة الآية (١٠٩).

(٤) سورة النساء الآية (٤١).

(٥) سورة الأعراف الآية (٦).

(٦) سورة الأنعام الآية (٦٢).

(٧) سورة الشعراء الآية (١١٣).

(٨) أصول السنة لابن أبي زمنين ص (١١٧).

الخامسة: الرد على النصارى في زعمهم أن البابوات يملكون حق غفران الذنوب.(١)

إنّ في قول عيسى ﷺ ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ردا على من زعم من النصارى أن البابوات يملكون حقّ غفران ذنوب من شاؤوا، حيث إنّ عيسى ﷺ علّق تعذيبهم ومغفرتهم بمشيئة الله تعالى؛ مما يدل على أن المغفرة حقّ خاص لله ليس لأحد من الخلق منها نصيب.

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾(٢) أي: لا يغفرها أحد سواه.(٣)

---

(١) هذه العقيدة يختص بها الفرقة الكاثوليكية من بين فرق النصارى الأخرى، ومعناها عندهم أن من خصائص البابا وأعماله مغفرة الذنوب لمن شاء الماضية منها والآتية، دون حاجة إلى توبة أو ردّ المظالم إلى أهلها، وهذه العقيدة لم تكن معروفة في أوائل النصرانية؛ وإنما ابتُدِعت في المجمع الثاني عشر سنة ١٢١٥م حيث قرر فيه أنّ الكنيسة البابوية تملك حق الغفران، وتمنحه لمن تشاء. ينظر دراسات في اليهودية والنصرانية وأديان الهند ص (٤٦٨)، والموسوعة الميسرة (٦١٨/٢).

وقد استغلت الكنيسة الكاثوليكية هذه العقيدة شر استغلال؛ حيث إن البابوات كلما أرادوا جمع أموال يطبعون أوراقا يسمونها صكوك الغفران ويوزعونها على أتباعهم لبيعها كما تباع الأسهم في الشركات، وكانوا قد جعلوا لكل إثم ثمنا معلوما؛ فثمن شهادة الزور مثلا يختلف عن ثمن السرقة؛ وثمن الزنى بالبكر ليس كثمن الزنى بالمدخولة؛ وهكذا.

وقد ذكر بعض الباحثين أن الناس كانوا يتسابقون في فتح الوكالات لبيع هذه الصكوك، ويكتبون عليها:«أيها الناس تقدموا إلى شراء صكوك الغفران، فإن باب الجنة مفتوح، إن لم تدخل الآن فمتى تدخل؟! لك أن تدخل أباك الجنة بمقابل اثني عشر بنسا؛ هل أنت بخيل إلى هذا الحد؟!! » ينظر دراسات في اليهودية والنصرانية وأديان الهند ص (٤٦٨).

وهذه العقيدة مما أنكرته الكنيسة البرتستانتية حيث إنها لا ترى عصمة البابا، وترى أن صكوك الغفران كذب ودجل؛ وأن المغفرة من اختصاص الخالق سبحانه، وأن الفوز في الدنيا والآخرة لا يكون إلا برحمة الله ثم بالالتزام بالفرائض والكرازة على الإنجيل. ينظر الموسوعة الميسرة (٦٣١/٢)، ودراسات في الأديان ص (٣١٤).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٣٥).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٦١٨/١).

ومنها قوله ﷺ في دعاء سيد الاستغفار (...أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي؛ فإنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت).[١]

وقوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه لّما طلب منه أن يعلّمه دعاء يدعو به في صلاته:(قـــل اللــــهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا؛ ولا يغفر الذنوب إلا أنت؛ فاغفر لي مغفـــرة مـــن عنـــدك، وارحمني، إنّك أنت الغفور الرحيم).[٢]

ويكفي هذه العقيدة بطلانا كونها إذنا عامّا لارتكاب جميع الجرائم، إذ ليس علـــى مـــن يعتقدها عند اقتراف أيّ ذنب، وارتكاب أيّ جريمة إلاّ أن يعترف أمام البابا، ويبوح بمـــا فعل؛ فيقبل منه البابا ويصدر له صك الغفران بمقابل مبلغ محدد من المال.[٣]

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات باب ما يقول إذا اصبح، برقم (٣٣٢٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء في الصلاة، برقم (٣٣٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة الاستغفار، باب استحباب خفض الصـــوت بالـــذكر، برقـــم (٢٧٠٥).

(٣) ينظر دراسات في اليهودية والنصرانية وأديان الهند ص (٤٦٨-٤٧٠).

المطلب الرابع: إثبات صفة النفس لله تعالى.

إنّ قول نبي الله عيسى عليه السلام :

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ دليل على أنّ لله سبحانه وتعالى نفسا كما يليق بجلاله وكماله؛ وقد ورد في ثبوت ذلك لله نصوص كثيرة؛ منها:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.[١] وقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [٢]

ومنها أيضا ما رواه أبو هريرة أنّ النبي ﷺ قال: (يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي؛ وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي).[٣]

وقال الإمام ابن خزيمة[٤] في بداية كتابه« التوحيد»:

«فأول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا جلّ وعلا في كتابنا هذا ذكر نفسه؛ جلّ ربنا عن أن تكون نفسه كنفس خلقه؛ وعزّ أن يكون عدما لا نفس له».[٥] ثم أخذ يسرد النصوص الدالة على ثبوت هذه الصفة من الكتاب والسنة.[٦]،[٧]

---

(١) سورة الأنعام الآية (٥٤).

(٢) سورة طه الآية (٤١).

(٣) رواه مسلم في صحيحه،كتاب الذكر والدعاء والتوبة الاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، برقم (٢٦٧٥).

(٤) سبقت ترجمته.ص (١٧٧).

(٥) التوحيد لابن خزيمة (١/١١).

(٦) ينظر لمزيد من الأدلة قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر ص(٦٤)،ومعارج القبول(١/٣٤٧).

(٧) الاستدلال بهذه الأدلة وغيره في إثبات النفس لله تعالى مأخذ بعض من العلماء، والجمهور يرون أن النفس ليست من الصفات، وأنّ المراد بها في هذه النصوص وغيرها ذاته تعالى المتصفة بالصفات. قال شيخ الإسلام بعد سياقه جملة من نصوص فيها ذكر نفسه تعالى:« فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء الله نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفاته، ليس المراد بها ذاتا منفكة عن الصفات ولا المراد بها صفة للذات وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات كما يظن طائفة انها الذات المجردة عن الصفات وكلا القولين خطأ» مجموع الفتاوى (٩/٢٩٢).

المطلب الخامس:اقتران الاسمين « العزيز والحكيم »، في كلام عيسى عليه السلام .

إنّ في قول عيسى عليه السلام ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إثباتا لاسميه تعالى العزيز والحكـــيم، وذلك متضمن لثبوت هاتين الصفتين لله تعالى؛ لأنّ كل اسم من أسمائه تعالى دالّ على ذاته وعلى ثبوت معناه صفةً لله تعالى.[(١)]

وكثيرا ما يقرن تعالى بين هذين الاسمين« العزيز الحكيم» في آيات التشريع، والتكـــوين، والجزاء، ليدل عباده على أنّ مصدر ذلك كلّه عن حكمة بالغة، وعزة قاهرة.[(٢)]

وفي اقترانهما نكتة أخرى لطيفة وهي:

أنّ اجتماع العزة والحكمة نادر في المخلوقين، عزيز الوجود فيهم؛ فإنّ أهل العـــزّة مـــن ملوك الدنيا يغلب عليهم العسف في الأحكام؛ فبين سبحانه بالقرن بين هـــذين الاسمـــين مخالفته لهم في ذلك؛ فإنّ عظيم عزته لم يبطل لطيف حكمته ورحمته؛ فسبحان مـــن لـــه الكمال المطلق والمجد المحقَّق.[(٣)]

وأمّا عن سرّ اقترانهما في كلام عيسى عليه السلام فيقول فيه ابن القيم رحمـــه الله « ... قـــول المسيح عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أحسن من أن يقـــول(وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم) أي: إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عـــن عـــزة وهي كمال القدرة؛ وعن حكمة وهي كمال العلم، فمن غفر عن عجز وجهـــل بجـــرم الجاني لا يكون قادرا حكيما عليما؛ بل لا يكون ذلك إلاّ عجزا، فأنت لا تغفر إلاّ عـــن قدرة تامّة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها، فهذا أحسن من ذكر الغفـــور الرحيم في هذا الموضع الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها وقد فاتت، فإنه لو قال:

(وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم) كان في هذا من الاستعطاف والتعريض بطلـــب المغفرة لمن لا يستحقها ما ينزّه عنه منصب المسيح عليه السلام،لا سيما والموقف موقف عظمـــة

---

(١) ينظر مجموع الفتاوى (١٨٥/٧).

(٢) ينظر مفتاح دار السعادة (٧٨/٢).

(٣) ينظر إيثار الحق على الخلق (٢٠٠/١).

وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدا واتخذه إلها من دونه، فذكر العزة والحكمة فيـــه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة».[(١)]

وزد على هذا أنّ كلامه الطَّيْنِ فيه شرطان؛ أحدهما؛قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُم... ﴾ .والثاني:قولـــه: ﴿...وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ فلو قال «فإنك أنت الغفور الرحيم» ضعف المعنى لأنه ينفرد« الغفور الرحيم» بالشرط الثاني، ولا يكون له بالشرط الأول تعلق؛ فكان قولـــه: ﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أليق بهذا المكان لعمومه؛ فإنه يجمع الشرطين.[(٢)]

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٦).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (٦/٣٤٨).

المطلب السادس: اعتذاره عليه السلام عن الشفاعة العظمى.

إنّ نبي الله عيسى عليه السلام يخاطب عامة أهل الموقف حينما يأتونه يطلبون منه الشفاعة إلى الله في أن يفصل القضاء بين الخلق، ويريحهم من طول الموقف؛ ومما صحّ أنه عليه السلام يخاطبهم به معتذرا عن ذلك قوله عليه السلام:

(... إنّ ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله – و لم يذكر ذنبا – نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ).[(١)]

وفي رواية:

(فيقول: لست هنـــاكم، ولكن ائتوا محمدا ﷺ عبـــدا غفر له ما تقدّم من ذنبه، ومـــا تأخّر).[(٢)]

وفي رواية أخرى أنه عليه السلام يقول:

(...إني لست هناكم، لست هنـــاكم، ولكن ائتوا محمدا ﷺ عبـــدا غفر له ما تقدّم من ذنبه، وما تأخّر ، فإنه قد حضر اليوم وقد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تـــأخر، فيقـــول عيسى: أرأيتم لو كان متاع في وعاء قد خُتِم عليه هل كان يقدر على ما في الوعاء حـــتى يُفضَّ الخاتم؟ فيقولون: لا. قال فإنّ محمدا ﷺ خاتم النبيين...).[(٣)]

وفي رواية رابعة أنه عليه السلام يقول:

(لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة؟ فيقولون: فإلى من تأمرنا؟ فيقول: ائتوا عبدا فتح الله به وختم، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، ويجيء في هذا اليوم آمنـــا محمـــد ﷺ ...).[(٤)]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه،كتاب تفسير القرآن،باب﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ برقم(٤٧١٢)، ومسلم في صحيحه،كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعـــالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ بـــرقم (٤٤٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

(٣) رواه أحمد في برقم (١٣٥٩٠)؛ وإسناده صحيح على شرط مسلم. ينظـــر تـــحقيـــق المسنـــد (٢١٣/٢١).

(٤) رواه ابن أبي عاصم في السنة، برقم (٨١٣)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٧٩/٢)

الدلالات العقدية.

قد اشتمل أقوال نبي الله عيسى عليه السلام في هذه الأحاديث على ما يلي من الدلالات العقدية:

الأولى: أنّ كمال العبد في تحقيق العبودية لله تعالى.

دلّ قول نبي الله عيسى عليه السلام معتذرا لأهل الموقف:« لست هناكم؛ولكن ائتوا محمدا ﷺ عبدا غُفر له ما تقدّم... » على أنّ كمال المخلوق في تحقيقه العبودية لله تعالى؛ وأنّ العبد كلّما ازداد تحقيقا للعبودية ازداد كماله، وعلت درجته، حيث وصف نبي الله عيسى عليه السلام النبيَ ﷺ في هذا المقام بالعبودية مبيّنا أنه ﷺ إنما استحق التقديم على سائر الخلائق في هذا الموقف، وكان صاحب الوسيلة والشفاعة التي تأخّر عنها جميع الرسل بتحقيقه ﷺ مقام العبودية لله تعالى.(١)

ولهذا يصف الله النبيﷺ بالعبودية في أعلى مقاماته، وأشرف أحواله، فقال سبحانه: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ .(٢) وقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ .(٣) وقال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ .(٤)،(٥).

وعليه؛ ففي كلام عيسى عليه السلام هذا ردّ على من زعم من الصوفية أنّ أعلى مقامات العبد هو شهود الحقيقة الكونية(٦) الذي متى حقّقه العبد سقط عنه التكاليف الشرعية.(٧)

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:« وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة؛ وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر

---

(١) ينظر مدارج السالكين(٤٣٩/٣)، شرح العقيدة الطحاوية ص (١٣٩).

(٢) سورة الإسراء الآية (١).

(٣) سورة الجن الآية (١٩).

(٤) سورة الفرقان الآية(١).

(٥) ينظر مدارج السالكين(٤٣٩/٣).

(٦) شهود الحقيقة الكونية عند الصوفية هو معرفة العبد بأنّ الله خالق الخلق، ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، ومقلب قلوبهم، وكثير منهم إذا وصل إلى شهود هذه الحقيقة زعم أنه سقط عنه الأمر والنهي الشرعيان. ينظر العبودية ص (٢٣) وما بعدها.

(٧) ينظر المقالات (٣٤٤/١).

والفاجر؛بل إبليس معترف بهذه الحقيقة...فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، و لم يقم بما أُمر به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلّقة بإلهيته، وطاعة أمره وأمر رسوله؛ كان من جنس إبليس وأهل النار.

وإنّ ظنّ مع ذلك أنه من خواصّ أولياء الله؛ وأهل المعرفة والتحقيق؛ الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان كان من أشرّ أهل الكفر والإلحاد» [1]

فالحق أنّ نهاية السالكين تكميل مرتبة العبودية لله صرفا؛ فمن توهّم أنّ المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأنّ الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلّهم.[2]

الثانية: إثبات أن محمدا ﷺ خاتم الأنبياء.

إنّ قول نبي الله عيسى عليه السلام :« ائتوا محمدا ﷺ فإنه خاتم النبيين، ... أرأيتم لو كان متاع في وعاء قد ختم عليه هل كان يقدر على ما في الوعاء حتى يفض الخاتم؟ فيقولون: لا. قال فإن محمدا ﷺ خاتم النبيين...» دليل على ختم الأنبياء بنبينا محمد ﷺ وأنه آخرهم حيث ذكر عيسى عليه السلام ذلك نصّا، ثم ضرب لذلك مثالا يوضّحه ويبينه؛ وقد سبق بيان هذه المسألة وذكر الأدلة عليها بما يغني عن الإعادة.[3]

---

(١) العبودية ص (٢٦-٢٧)، وينظر الفتاوى الكبرى (٥/١٥٤).

(٢) ينظر مدارج السالكين(٣/٤٣٩)، شرح العقيدة الطحاوية ص (١٣٩).

(٣) ينظر ص (١٨٩).

المطلب السابع: اعتذاره عن استفتاح باب الجنة.

إنّ من الأقوال التي تجري لنبي الله عيسى عليه السلام في الموقف كذلك مخاطباته مع المؤمنين حين تحوّلوا إليه عليه السلام يطلبون منه الشفاعة في استفتاح باب الجنة لهم – بعد ما اعتذر نبي الله موسى عليه السلام عن ذلك؛ وقبله آدم وإبراهيم عليهما السلام؛ وقد ثبت أنّ عيسى عليه السلام يقول لهم معتذرا عن ذلك:

(لست بصاحب ذلك...).(١)

وقد سبق شرح معنى هذا القول من الأنبياء عليهم السلام؛ وبيان ما فيه من الدلالات العقدية مما يغني عن الإعادة.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٥).

المبحث السابع: أقوال النبي محمد ﷺ في الموقف ودلالاتها العقدية.

ثبت أنّ نبينا محمدا ﷺ يصدر منه جملة من الأقوال في مواقف مختلفة في أرض الموقف؛ منها ما قاله ﷺ مُعلِنا بأنّ الشفاعة العظمى خاصة له؛ ومنها ما قاله مستأذنا من الله تعالى في الشفاعة لأمته، ومنها قوله ﷺ بعد شفاعاته: «ما بقي إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود» وغير ذلك من الأقوال التي يتم -بعون الله تعالى- ذكرها واستخراج ما فيها من دلالات عقدية في المطالب التالية.

المطلب الأول: قوله ﷺ «أنا لها».

إنّ من الأقوال التي تجري للنبي ﷺ في الموقف ما يذكره إعلانا لاختصاصه ﷺ بالشفاعة العظمى بعدما يتراجع عنها إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فقد روى أنس ﷺ في حديث الشفاعة أنّ النبي ﷺ قال:

(...فيأتون عيسى فيقول: لست لها؛ ولكن عليكم بمحمد ﷺ فيأتوني؛ فأقول: أنا لها؛ فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن؛ فأحمده بتلك المحامد، وأخرّ له ساجدا؛ فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع...).[(١)]

الشرح:

قوله: « أنا لها» أي: للشفاعة؛ يعني ﷺ أنا أتصدّى لهذا الأمر.[(٢)]

---

(١) رواه ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

(٢) ينظر عمدة القاري (١٦٦/٢٥).

المطلب الثاني: إثبات نوع من أنواع الشفاعة الخاصة بالنبي ﷺ.

إنّ في قوله ﷺ: «أنا لها» إثباتا لإحدى الشفاعات الخاصة به ﷺ يـــوم القيامـــة، وهـــي الشفاعة لأهل الموقف في أن يُريحوا من طول الموقف وأن يُفصل القضاء بينهم.(١)

قال ابن أبي العز (٢)رحمه الله تعالى: «والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحـــديث من أكثر طرقه لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى؛ في أنْ يأتي الرب سبحانه وتعالى لفصـــل القضاء، كما ورد هذا في حديث الصور؛ فإنه المقصود في هذا المقام ومقتضى سياق أوّل الحديث، فإنّ الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين النـــاس ويستريحوا من مقامهم؛ كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه».(٣)

وقد قيل في هذه الشفاعة إنها المقام المحمود.(٤)

أمّا الثانية من الشافاعات الخاصة به ﷺ فهو الشفاعة في أهل الجنة في أن يفتح لهم بـــاب الجنة، ويؤذنوا في الدخول إليها؛ ومن الأدلة على هذا النوع ما رواه أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أنا أوّل شفيع في الجنة، لم يُصَدَّق نبي من الأنبياء ما صُدِّقت؛ وإنّ من الأنبياء نبيا ما يصدِّقه من أمته إلا رجل واحد).(٥)

أما الثالثة منها: فهو شفاعته ﷺ في عمّه أبي طالب في تخيف العذاب عنه، والدليل عليها ما ثبت أنّ العباس بن عبد المطلب ﷺ قال:(يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنـــه

---

(١) ينظر شرح العقيدة الطحاوية ص (٢٨٣).

(٢) سبقت ترجمته.ص (٤٥).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص (٢٨٥).

(٤) ينظر التذكرة (٦٠٤/٢).

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها،برقم (١٩٦).

كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال: نعم هو في ضحضاح من نار، لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار).[١]

قال الإمام القرطبي بعد ذكر هذه الشفاعة: «فإن قيل: فقد قال الله تعالى ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[٢] قيل له: لا تنفع في الخروج من النار كعصاة الموحّدين الذين يخرجون منها و يدخلون الجنة».[٣] وللنبي ﷺ شفاعات أخرى في الموقف يشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون[٤]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار،برقم (٦٥٧٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، والتخفيف عنه بسببه، برقم(٢٠٩).

(٢) سورة المدثر الآية (٤٨).

(٣) ينظر التذكرة (٦٠٨/٢).

(٤) ينظر شرح العقيدة الطحاوية ص (٢٩٠).

المطلب الثالث: قوله ﷺ «رب خلقتني سيد ولد آدم...».

جاء في إحدى روايات حديث الشفاعة عند الإمام أحمد في المسند من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال : (....فيقول عيسى ليس ذاكم عندي؛ ...، انطلقوا إلى محمد ﷺ فيشفع لكم إلى ربكم عزّ وجلّ قال: فينطلق فيأتي جبريل عليه السلام ربه فيقول: الله عزّ وجلّ ائذن له وبشّره بالجنة، قال فينطلق به جبريل فيخرّ ساجدا قدر جمعة؛ ويقول الله عزّ وجلّ: ارفع رأسك يا محمد؛ وقل يسمع، واشفع تشفّع، قال: فيرفع رأسه، فإذا نظر إلى ربّه عزّ وجلّ خرّ ساجدا قدر جمعة أخرى، فيقول الله عزّ وجلّ: ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفّع، قال: فيذهب ليقع ساجدا فيأخذ جبريل عليه السلام بضبعيه، فيفتح الله عز وجل عليه من الدعاء شيئا لم يفتحه على بشر قط؛ فيقول: أي رب خلقتني سيد ولد آدم ولا فخر؛ وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر...).(١)

الشرح:

قوله:«رب خلقتني سيد ولد آدم» ذكر العلماء رحمهم الله أنّ النبي ﷺ لم يقل هذا مفتخرا، ولا متطاولا به على الخلق، وإنما قال ذلك ذاكرا للنعمة ومعترفا بالمنة، وبيانا للذي يجب عليه تبليغه إلى أمته؛ ليعرفوه ويعتقدوه؛ ويعملوا بمقتضاه، ويوقروه ﷺ بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله سبحانه وتعالى.(٢)

الدلالات العقدية.

ذكر العلماء أنّ في قوله ﷺ «رب خلقتني سيد ولد آدم ولا فخر، وأوّل من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، ولا فخر» دليلا على جواز مدح الرجل الفاضل الجليل لنفسه، ونفيه عن نفسه ما يعيبه بالحقّ الذي هو فيه؛ إذا دعت إلى ذلك ضرورة أو حصل معنى يوجبه، وأنه لا بأس بذلك، بشرط أن يكون خاليا من التطاول على الناس، والافتخار عليهم.

وجعلوا من هذا الباب قوله تعالى حاكيا عن نبيه يوسف عليه السلام : ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٣).(٤).

---

(١) رواه أحمد في المسند، برقم (١٥)، وإسناده حسن. ينظر تحقيق المسند (١/١٩٥).

(٢) ينظر عمدة القاري (١٥/٢٩٣)، وشرح النووي على مسلم (١٥/٣٧).

(٣) سورة يوسف الآية (٥٥).

(٤) ينظر التمهيد لابن عبد البر (٢٠/ ٣٩).

المطلب الرابع: قوله ﷺ « أمتي، أمتي».

إنّ مما يصدر عن النبي ﷺ من الأقوال في الموقف كذلك قوله ﷺ حين يؤذن له بالشفاعة: أمتي أمتي؛ فقد روى أنس رضي الله عنه في حديث الشفاعة أنّ النبي ﷺ قال:

(...فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخرّ له ساجدا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفّع، فأقول: يا رب أمتي أمتي؛ فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل...)(١)

الشرح.

قوله ﷺ:« يا رب أمتي أمتي» استشكل بعض العلماء قول النبي ﷺ « أمتي أمتي » مع أنّ الذين أتوه يطلبون الشفاعة هم عامّة أهل الموقف، وذلك للإراحة من هول الموقف لا للإخراج من النار.

وأجيب عنه؛ بأنّ في الحديث اختصارا، وأنّ المراد: أنه ﷺ يؤذن له في الشفاعة الموعود بها في إزالة الهول عن عامة أهل الموقف بفصل القضاء بينهم أولا؛ ثم يطلب بعد ذلك الشفاعة لمن دخل النار من أمته خاصّة.(٢)

الدلالات العقدية.

إنّ في قوله ﷺ « أمتي أمتي » من الدلالات العقدية ما يلي:

الأولى: إثبات فضله ﷺ على سائر الأنبياء.

دلّ قوله ﷺ «أمتي، أمتي » على علوّ منزلته وفضله ﷺ على الأنبياء، ووجه ذلك أنّ كل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقول في ذلك اليوم: « نفسي، نفسي »، وهو ﷺ يقول « أمتي، أمتي» ولو لم يكن في إثبات فضله ﷺ على سائر الأنبياء إلاّ ذلك لكان كافيا.(٣)

---

(١)رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ برقم (٤٤٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

(٢) ينظر عمدة القاري (١٦٦/٢٥).

(٣) ينظر فتح الباري (٤٤١/١١).

الثانية: تمام حرصه ﷺ على سعادة أمته.

إنّ في قوله ﷺ «أمتي، أمتي » دليلا على حرصه ﷺ على سعادة أمته يوم القيامة، ونجاهًا من أهوال ذلك اليوم؛ كما كان ﷺ حريصا عليها قبل ذلك في الدنيا. وقد دلّ على حرصه ﷺ على هذه الأمة وسعيه ﷺ جهده في إيصال كل خير إليهم، وإبعادهم عن كل شر أمور أخرى؛ منها:

- حرصه ﷺ على هدايتهم؛ قال تعالى:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)

قال ابن كثير رحمه الله:« ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ : أي على هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم». (٢)

- حرصه ﷺ في تعليمهم كل ما يقرّبهم إلى الجنة، ويبعدهم عن النار.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ: (ما بقي شيء يقرّب من الجنة، ويباعد من النار إلا وقد بُيِّن لكم). (٣)

- حرصه ﷺ على نجاهم من العذاب في الدنيا.

روى عامر بن سعد عن أبيه: (أنّ رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مرّ بمسجد بني معاوية دخل؛ فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا ربه طويلا، ثم انصرف إلينا فقال: ﷺ سألت ربي ثلاثا: فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة؛ سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها). (٤)

---

(١) سورة التوبة الآية (١٢٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٤١٣/٢).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٥٥/٢) برقم (١٦٤٧)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤١٦/٤) برقم (١٨٠٣).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، برقم (٢٨٩٠).

- أخذه ﷺ بحجزهم عن كل ما يفضي بهم إلى النار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا؛ فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها؛ فجعل ينزعهن ويغلبنه).[١]

« وفي الحديث ما كان فيه ﷺ من الرأفة والرحمة والحرص على نجاة الأمة»[٢]

- أنه ﷺ اختبأ دعوته شفاعة لهذه الأمة يوم القيامة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ :(لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة؛ فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا).[٣]

ففي هذا الحديث بيان فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء؛ حيث آثر أمته على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة، ولم يجعلها أيضا دعاء عليهم بالهلاك كما وقع لغيره ممن تقدّم؛ فَمِن حسن تصرّفه ﷺ جعل الدعوة فيما ينبغي، ومن كثرة كرمه آثر أمته على نفسه، ومن صحة نظره جعلها للمذنبين من أمته في أهم أوقات حاجتهم إليها،وفي هذا كله كمال شفقته ﷺ على أمته، ورأفته بهم، واعتناؤه بالنظر في مصالحهم ﷺ. [٤]

«ولهذا كان حقّه مقدّما على سائر حقوق الخلق، وواجب الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره».[٥]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الانتهاء عن المعاصي، برقم (٦٤٨٣).

(٢) فتح الباري (٣١٨/١١).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٩).

(٤) ينظر فتح الباري (٩٧/١١).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص(٣٣٤).

المطلب الخامس: قوله ﷺ « ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله ».

إنّ هذا القول مما يصدر من النبي ﷺ أيضا في الموقف؛ فقد روى أنس رضي الله عنه في حديث الشفاعة أنّ النبي ﷺ قال:

(...ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجدا؛ فيقال: يا محمد ارفع رأسك؛ وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع.

فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجنّ منها من قال لا إله إلا الله).(١)

الدلالات العقدية.

اشتمل قوله ﷺ«يا ربّ ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله» على ما يلي من الدلالات العقدية.

الأولى: إثبات شرطي الشفاعة المقبولة.

إنّ قوله ﷺ «يا ربّ ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله » دليل على أنّ الشفاعة يوم القيامة لا تتحقّق لأحد إلاّ بتوفر شرطين؛ وهما: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

ففي قوله ﷺ «يا ربّ ائذن لي»؛ إثبات للشرط الأول؛ حيث إنه ﷺ طلب الإذن من الله؛ وأما الشرط الثاني: فدل عليه قوله ﷺ «فيمن قال لا إله إلا الله» حيث إنّ رضاه سبحانه لا يتعلق إلا فيمن قال هذه الكلمة.

وقد ورد في إثبات هذين الشرطين عدة من النصوص؛ منها:قوله تعالى:﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾. (٢) وقوله تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾. (٣) والمعنى: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع

---

(١) رواه البخار في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، برقم (٧٥١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم(١٩٣).

(٢) سورة النجم الآية (٢٦).

(٣) سورة طه الآية (١٠٩).

له، وكان له قول يرضاه الله تعالى؛ وهو قول: لا إله إلا الله.(١) فالشفاعة في الآية مصدر يعمّ كلّ شافع وكلّ مشفوع له.

فقوله تعالى :﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾نفي للنوعين؛ شفاعة الشفعاء، و الشفاعة للمذنبين، وقوله :﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ يتناول النوعين؛ من أذن له الرحمن و رضي له قولا من الشفعاء، و من أذن له الرحمن و رضي له قولا من المشفوع لهم.(٢)

الثانية: إثبات فضل كلمة لا إله إلا الله.

إنّ في قوله ﷺ « يا ربّ ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله » أيضا دليلا على أنّ نيل شفاعته ﷺمشروط بقول لا إله إلا الله، وأنّ شفاعته ﷺ مختصّة بأهل لا إله إلا الله، وهذا دليل على شرف هذه الكلمة وعظمها وفضلها، وقد دلّ على فضلها وشرفها أمور أخرى كثيرة؛ منها:

- أنها عنوان الدخول في الإسلام، وعلامة أهله؛ وبها يعصم الدماء والأموال.

فعن أبي هريرة رضي الله عنهقال رسول الله ﷺ (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله).(٣)

- أنها أفضل الحسنات.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال:(قلت: يا رسول الله أوصني؛ قال إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحها. قال: قلت يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: هي أفضل الحسنات).(٤)

- أن من كان هذه الكلمة آخر كلامه دخل الجنة.

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١١/٢٢٠).

(٢) ينظر مجموع الفتاوى (١٤/٣٩٢).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل من أبى قبول الفرائض، وما نسبوا إلى الردة، برقم (٦٩٢٤).

(٤) رواه أحمد في المسند برقم (٢١٤٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٣/١٢٦) برقم (٣١٦٢).

(من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة).[١]

قال ابن القيم رحمه الله عن شرف هذه الكلمة وفضلها:

« كلمة قامت بها الأرض السماوات، وخُلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفّار، والأبرار والفجّار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي الحقّ الذي خلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جرّدت سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنها يسأل الأوّلون والآخرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأولى: بتحقيق لا إله إلا الله، معرفةً وإقرارا وعملا.

وجواب الثانية: بتحقيق أنّ محمدا رسول الله؛ معرفةً وإقرارا، وانقيادا وطاعة».[٢]

الثالثة: أنّ الكافر لا نصيب له من الشفاعة.

إنّ مما يدل عليه قوله ﷺ « يا ربّ ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله » أنّ الكافر لا نصيب له من الشفاعة، حيث أنّ الرسول ﷺ استأذن في الشفاعة لمن قال هذه الكلمة فقط.

وقد دل أنّ الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين نصوص أخرى منها:

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾.[٣] أي: من كان متصفا بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب في التلقين،برقم (٣١١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٦٠٢) برقم (٢٦٧٣).

(٢) زاد المعاد (١/٣٥).

(٣) سورة المدثر الآية (٣٩-٤٨).

القيامة شفاعة شافع فيه؛ لأن الشفاعة إنما تنفع إذا كان المحل قابلا، فأما من وافى اللهَ كافرا يوم القيامة فإنه له النار لا محالة خالدا فيها.[١]

وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾.[٢] يعني من الكافرين. [٣]

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤/٣٠٠٠).

(٢) سورة البقرة الآية (٤٨).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (١/١٩٤).

المطلب السادس: قوله ﷺ «ما بقي إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود».

إنّ هذا القول مما يذكره النبي ﷺ مخاطبا الرب سبحانه وتعالى بعد ما قام ﷺ بما أذن له فيه من الشفاعة؛ ففي بعض روايات حديث الشفاعة عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال:(...فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي، ثم أشفع فيحدّ لي حدّا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفّع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحدّ لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول يا رب ما بقي في النار إلاّ من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود)[١]

وفي رواية:

(...فأقول يا رب ما بقي في النار إلاّ من حبسه القرآن؛ أي وجب عليه الخلود...).[٢]

الشرح.

قوله ﷺ «إلاّ من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود » أي: إلاّ من حكم عليه القرآن بالحبس؛ وهم من أخبر الله في القرآن بخلود هم في النار من الكفار.[٣]

الدلالات العقدية.

إنّ في قوله ﷺ «يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن» من الدلالات العقدية ما يلي:

الأولى: أنه يخرج من النار كلّ من مات على التوحيد.

إنّ في قوله ﷺ «يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن» دلالة على أنّه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد وهذا هو المذهب الحق الذي أجمع عليه السلف؛ [٤] وذلك؛ لأنّ القرآن لم يحكم لأحد بالخلود في النار إلاّ الكفار.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ برقم (٤٤٧٦)

(٢) رواه مسلم في صحيحه؛ كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

(٣) ينظر فتح الباري (١١/٤٤٠)، وعمدة القاري (١٨/٨٣)، وشرح النووي على مسلم (٣/٥٨).

(٤) ينظر شرح النووي على مسلم (٣/٥٩).

ومن الأدلة الدالة على خروج الموحّدين من النار ما رواه أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برّة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير).(١)

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي(٢): «وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون؛ إذا ماتوا وهم موّحدون -وإن لم يكونوا تائبين- بعد أن لقوا الله عارفين؛ وهم في مشيئته وحكمه؛ إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عزّ وجلّ في كتابه﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(٣)وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته؛ وذلك بأنّ الله تعالى مولى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نَكرَتِه الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته».(٤)

الثانية: الرد على منكري الشفاعة.

إنّ قوله ﷺ « يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن» يتضمن كذلك ردا على المعتزلة والخوارج الذين أنكروا الشفاعة لأهل الكبائر(٥)واتفقوا على أنّ من مات على كبيرة ولم يتب منها فهو مخلّد في النار.(٦)حيث أثبت النبي ﷺ خروج هؤلاء من النار بشفاعته.

وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه... برقم (٤٤).

(٢) سبقت ترجمته.ص (١٣٤).

(٣) سورة النساء الآية (٤٨).

(٤) العقيدة الطحاوية مع شرح ابن أبي العز ص (٥٢٤).

(٥) ينظر مقالات الإسلاميين ص (٤٧٤)، والفصل (٥٣/٤).

(٦) انظر الملل والنحل(ص:٢١). وشرح العقيدة الواسطية (ص:١٩١).

المطلب السابع: قوله ﷺ «إنه من أمتي»،« إنهم مني »،« أصحابي، أصحابي».

إنّ هذه الأقوال مما يصدر عن النبي ﷺ في الموقف حين يحال بينه وبين أقوام من أمته ﷺ أرادوا الورود على حوضه ﷺ ليشربوا منه فيُختلجون، ويؤخذ بهم ذات الشمال.

فعن أنس ﷺ قال: (بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة؛ ثم رفع رأسه متبسما. فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليّ آنفا سورة؛ فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾.[(١)]

ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا الله ورسوله أعلم؛ قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل؛ عليه خير كثير؛ و حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة؛ آنيته عدد النجوم؛ فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي؛ فيقول ما تدري ما أُحدثت بعدك).[(٢)]

وروى أبو حازم[(٣)]عن سهل بن سعد[(٤)]قال: قال النبي ﷺ (إني فرطكم على الحوض؛ من من مرّ عليّ شرب؛ ومن شرب لم يظمأ أبدا، لَيَرِدنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم. قال أبو حازم فسمعني النعمان بن أبي عياش[(٥)]فقال: هكذا سمعت من سهل؟

---

(١) سورة الكوثر.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، برقم (٤٠٠).

(٣) أبو حازم هو سلمة بن دينار الأعرج الأفرز التمار المدني القاصّ مولى الأسود بن سفيان المخزومي، ثقة كثير الحديث، كان قاضي أهل المدينة ومن عبادهم وزهادهم مات سنة ١٣٥هـ. ينظر هذيب التهذيب (١٢٦/٤).

(٤) هوسهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري الساعدي، من مشاهير الصحابة، يقال كان اسمه حزنا فغيره النبي ﷺ، مات النبي ﷺوهو بن خمس عشرة سنة، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة، توفي سنة ٩١هـ وقيل عاش ١٠٠ سنة. ينظر الإصابة (٢٠٠/٣).

(٥) النعمان بن أبي عيّاش الزرقي الأنصاري أبو سلمة المدني، اسمه زيد بن الصامت الزرقي، كان شيخا كبيرا من أفاضل أبناء أصحاب رسول الله ﷺأدرك أباه وأكثر أصحاب رسول الله ﷺ. ينظر تهذيب التهذيب (٤٠٦/١٠)، والجرح والتعديل لمن خرّج له البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي (٧٧٧/٢).

سهل؟ فقلت: نعم فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها: فأقول: إنهم مني فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك...).[١]

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:(إنكم محشورون حُفَاة عُراةً غُرْلا، ثم قرأ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .[٢]وأوّل من يُكسى يوم القيامة إبراهيم؛ وإنّ أناسا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال؛ فأقول: أصحابي، أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم).[٣]

وعن أنس بن مالك ﷺ أنّ النبي ﷺ قال:(ليردنّ عليّ الحوض رجال ممن صاحبني؛ حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ اختلجوا دوني، فلأقولنّ :أي رب أُصيحابي، أُصيحابي؛ فَلَيُقالنّ لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك).[٤]

الشرح:

قوله:« أغفى إغفاءة» أي: نام نوما خفيفا.[٥]وقوله: « فيختلج العبد منهم» أي: يُقتطع، يُقتطع، ويُنتزع،ويجتذب.[٦]

وقوله:« إني فرطكم على الحوض» الفرط بفتح الفاء والراء والفارط :هو الذي يتقدم الوُرّاد ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها من أمور الاستقاء، فمعنى فرطكم على الحوض سابقكم إليه كالمهيّء له.[٧]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه،كتاب الرقائق، باب في الحوض،برقم (٦٥٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، برقم (٢٢٩١).

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، برقم (٦٥٢٦).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، برقم (٢٣٠٤).

(٥) ينظر فتح الباري (١٣٦/١).

(٦) ينظر الديباج شرح صحيح مسلم بن الحجاج(١٣٢/٢)،وشرح السيوطي لسنن النسائي (١٣٤/٢).

(٧) ينظر فتح الباري (٢٤٥/١١)، وشرح النووي على مسلم (٥٣/١٥).

وقوله:« حفاةً » جمع حاف أي: وهو الماشي بلا خف ولا نعل.[١] و« غُرْلا » جمع أغرل؛ وهو الذي لم يختن وبقيت منه غرلته وهي ما يقطعه الختّان من ذكر الصبي.وقوله:« ذات الشمال» أي:جهة النار[٢]

أما قوله:«ما تدري ما أحدث بعدك»؛ وقوله:« إنهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم»قيل: المراد به المنافقون والمرتدون من بعده ﷺ من جفاة العرب. ولم يرد به ﷺ خواص أصحابه الذين لزموه، وعُرفوا بصحبته، أولئك صانهم الله وعصمهم من التبديل؛ فالذين ارتدّوا ما كان إلاّ من هؤلاء ممن لا بصيرة له في الدين؛ وذلك لا يوجب قدحا في الصحابة المشهورين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.[٣]

وقيل كل من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض؛ كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق والمعلنون بالكبائر.[٤]

---

(١) ينظر فتح الباري (١١/٣٨٣).

(٢) ينظر عمدة القاري (١٨/٢١٧-٢١٨).

(٣) ينظر فتح الباري (٨/٢٨٦)، وعمدة القاري (١٨/٢١٧-٢١٨).

(٤) ينظر فتح الباري (٨/٢٨٦)، وعمدة القاري (١٥/٢٣٤)، وفيض القدير(٥/٣٥٣).

المطلب الثامن: الرد على الرافضة في زعمهم كفر أكثر الصحابة بعد النبي ﷺ.(١)

إنّ قول النبي ﷺ « أي رب أُصيحابي، أُصيحابي؛» يتضمن إبطال ما يعتقده الرافضة من أنّ أكثر أصحاب النبي ﷺ كفروا من بعده، حيث ذكر العلماء رحمهم الله أنّ وجه التصغير في قوله ﷺ «أُصيحابي، أُصيحابي» هو الإشارة إلى قلة من وقع لهم ذلك من أصحابه ﷺ وأنّ ذلك لم يقع إلاّ من بعض جفاة العرب، و لم يحصل من أحد من الصحابة المشهورين.(٢) ومما يؤكدّ هذا المعنى قوله ﷺ « ليردن عليّ الحوض أقوام... » حيث يدل أيضا على تقليل العدد؛ فهو كما يقول القائل: أتاني اليوم أقوام من بني تميم، وأقوام من أهل الكوفة؛يريد قليلا منهم؛ فلو أراد أنهم أتوه إلاّ نفرا يسيرا لقال: أتاني بنو تميم، وأتاني أهل الكوفة.

وكيف يجوز أن يرضى الله عزّ وجل عن أقوام ويحمدهم، ويضرب لهم مثلا في التوراة والإنجيل، وهو يعلم أنهم يرتدون على أعقابهم بعد رسول الله ﷺ ؟ إلاّ أن يقولوا إنه لم يعلم؛ وهذا هو شرّ الكفرين.(٣)

---

(١) إنّ من العقائد المترسّخة في قلوب الرافضة والمتعلقة في أذهانهم زعمهم كفر أكثر الصحابة وارتدادهم عن الإسلام، وقد أكثروا من النقول في كتبهم عن أكابرهم وعلمائهم هذه العقيدة، وقد ذكر العلامة محمد عبد الستار في كتابه بطلان عقائد الشيعة عددا منها؛ من بينها ما نقل الكشي عن أبي جعفر قال:«كان الناس أهل ردة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة فقلت: من الثلاثة؟ فقال المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي... »

ومنها ما قال القمي في تفسيره:« لم يبق من أصحاب رسول الله ﷺ إلا نافق إلا القليل» ينظر كتاب بطلان عقائد الشيعة ص (٦٠-٦٤).

بل ذهبت الرافضة إلى أبعد من هذا حيث جعلوا لعن الصحابة وسبهم من أخص عباداتهم التي يتقربون بها إلى الله، وأثبتوا من الأجر –بافترائهم على الله- ما لا يعد ولا يحصى لمن يسبهم صباحا ومساء. ينظر: فرق معاصرة (٤٣١/١).

(٢) ينظر فتح الباري (٢٨٦/٨)، وعمدة القاري (٢٤٣/١٥)، وتأويل مختلف الحديث ص(٢٣٣).

(٣) ينظر تأويل مختلف الحديث ص (٢٣٣-٢٣٥).

المطلب التاسع: قوله ﷺ « سحقا سحقا لمن غير بعدي».

هذا القول مما يصدر عن النبي ﷺ في الموقف؛ في حقّ أولئك الذين ارتدوا من بعده ﷺ أو أحدثوا وبدّلوا؛ فقد جاء في آخر حديث أبي حازم السابق: أن النبي ﷺ قال:(... فأقول: إنهم مني فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؛ فأقول سحقا سحقا لمن غير بعدي).(١)

الشرح.

قوله ﷺ :«سحقا سحقا » بسكون الحاء المهملة؛ ويجوز ضمها، معناه: بُعدا بعدا؛ والمكان السحيق: أي:البعيد؛ والتكرار للتأكيد والمبالغة.(٢)

الدلالات العقدية.

قد اشتمل قوله ﷺ :«سحقا سحقا لمن غيّر بعدي» على ما يلي:

شؤم البدع وخطورتها على أهلها.

إنّ في قوله ﷺ :«سحقا سحقا لمن غيّر بعدي» تحذيرا من البدع، وبيانا لشؤمها وسوء مصير أهلها؛ حيث إنّ الرسول استبعد هؤلاء عنه، وبالغ في ذلك بقوله ﷺ « سحقا، سحقا» لأن التكرار يفيد التأكيد.(٣) بل قد استدل بعض العلماء بهذا القول من النبي ﷺ على أنّ البدعة مانعة لنيل شفاعته ﷺ في الموقف والورود من حوضه ﷺ.(٤) إذ لا يمتنع أن يذادوا عن الحوض أوّلا ،ويقال لهم ذلك لِما عُلِم من أنهم قُضِي عليهم التعذيب على معاصيهم؛ ثم ينجون بالشفاعة؛ فيكون قوله ﷺ «سحقا،سحقا» تسليما لأمر الله مع بقاء الرجاء.(٥)

والنصوص الواردة في ذم البدع، والتحذير منها، وبيان عاقبة أهلها كثيرة معلومة.(٦)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب في الحوض،برقم (٦٥٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، برقم (٢٢٩١).

(٢) ينظر فتح الباري (١١/٣٨٥؛٤٧٣)، وشرح النووي على مسلم(٣/١٤٠).

(٣) ينظر الاعتصام (١/٩١،٥١)، وفتح الباري (١١/٣٨٥).

(٤) المصدر نفسه (١/٩٠).

(٥) ينظر فتح الباري (١١/٣٨٦).

(٦) ينظر الاعتصام (١/٣٨-٨٠)،ومعارج القبول (٣/١٢١١-١٢١٨).

المطلب العاشر: قوله ﷺ للمستغيث به «لا أملك لك شيئا».

إنّ مما يجري للنبي ﷺ من الأقوال في الموقف ما ثبت أنه ﷺ سيخاطب به أصحاب الغلول حين يطلبون منه الشفاعة في عرصات القيامة؛ وهم محمّلون ما غلّوه من الأموال على رقابهم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره؛ قال: لا ألفينّ أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، على رقبته فرس لها حمحمة، يقول يا رسول الله أغثني؛ فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك، وعلى رقبته بعير لها رغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت، فيقول يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، أو على رقبته رقاع تخفق فيقول يا رسول الله أغثني؛ فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغتك).(١)

الشرح:

قوله:« قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظّمه وعظم أمره » أصل الغلول في اللغة الخيانة مطلقا، ثمّ غلب اختصاصه في الاستعمال بالخيانه في الغنيمة؛ وقيل: سمّي بذلك لأنّ الأيدي مغلولة عنه؛ أي: محبوسة.(٢)

قوله: «لا أُلفين» بضم أوله وبالفاء، أي لا أجدنّ. هكذا بلفظ النفي المؤكّد؛ والمراد به النهي.

وقد رُوي بفتح الهمزة وبالقاف من اللقاء عند بعض رواة مسلم، والمعنيان متقاربان. ومنهم من حذف الألف على أنّ اللام للقسم؛ وفي توجيهه تكلّف والمعروف أنه بلفظ النفي المراد به النهي.

وقوله ﷺ:« على رقبته شاة لها ثُغاء» الثغاء: صوت الشاة؛ يقال: ثغت الشاة، تثغو.(٣)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول، وقول الله تعالى:﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ ﴾ ،برقم (٣٠٧٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول،برقم (١٨٣١).

(٢) ينظر شرح النووي على مسلم (٢١٦/١٢).

(٣) ينظر فتح الباري (١٨٦/٦).

وقوله ﷺ:«فرس لها حمحمة» حمحمة بفتح المهملتين صوت الفرس إذا طلب العلف.[(١)]

وقوله ﷺ:«لا أملك لك شيئا» أي: من المغفرة لأنّ الشفاعة أمرها إلى الله؛ ويكون ذلك أوّلا غضبا عليه لمخالفته؛ ثم يشفع بعد ذلك بإذن من الله في جميع الموحّدين.[(٢)]

وقوله ﷺ:«بعير له رُغَاء» الرغاء صوت البعير.

وقوله ﷺ:« صامت» أي الذهب والفضة، وقيل: ما لا روح فيه من أصناف المال.

وقوله ﷺ: «رقاع تخفق» أي: ثياب تتقعقع وتضطرب؛ وقيل: المراد بها ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع؛ وحمله على الثياب أنسب، لأنّ الحديث سيق لذكر الغلول الحسيّ.[(٣)]

---

(١) ينظر عمدة القاري (١٥/٧).

(٢) ينظر الديباج (٤/٤٤٨).

(٣) ينظر فتح الباري (٦/١٨٦).

المطلب الحادي عشر: الرد على الصوفية في مفهومهم الخاطئ في الشفاعة.

إنّ قوله ﷺ «لا أملك لك شيئا» للمستغيثين به في الموقف دليلا على أنه ﷺ -على علوّ منزلته عند الله تعالى- لا يملك شيئا من الشفاعة، وإنما هي لله جميعا، حيث قال ﷺ إنه يردّ هؤلاء المستغيثين به في الموقف ﷺ - ولو كانوا من أصحابه- بقوله ﷺ «لا أملك لك شيئا» لكونه لم يأته إذن بعدُ من الله تعالى في الشفاعة؛ مما يدل على أنّ أحدا من دون الله لا يملك الشفاعة بحال، وأنّ من يشفع إنما يشفع بعد إذن من الله تعالى.[1] كما قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2] فنصّ في أنّ الشفاعة لله وحده، ولا شافع إلاّ من شفاعته.[3]

وعليه ففي قوله ﷺ «لا أملك لك شيئا» رد على الغلاة من مشايخ الصوفية الذين يزعمون أنّ من خواصّهم إدخال كافّة مريديهم الجنة بغير حساب ولا عقاب؛ حيث يقول قائلهم:

«وليس لأحد من الرجال أن يُدخل كافّة أصحابه الجنة بغير حساب ولا عقاب - ولو عملوا من الذنوب ما عملوا، وبلغوا من المعاصي ما بلغوا- إلا أنا وحدي ».[4]

ولا شكّ أنّ من ادّعى هذا لنفسه أو لشيخه فقد زعم أنه أفضل من محمد بن عبد الله ﷺ، حيث يقول هو ﷺ لبنته وأخصّ أهل بيته ولأصحابه الذين آمنوا به، وعزّروه ونصروه من المهاجرين والأنصار إنه لا يغني عنهم من الله شيئا.[5]

---

(١) ينظر مجموع الفتاوى (٣٩٨/١٤).

(٢) سورة الزمر الآية (٤٤).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٢٣١/١٥).

(٤) ينظر رماح حزب الرحيم المطبوع مع جواهر المعاني (١٤٣/٢).

(٥) ينظر مجموع الفتاوى (١٠٤/٢-١٠٥).

الفصل الثاني: أقوال الملائكة وبقية المؤمنين في الموقف، ودلالاتها العقدية.

إنّ الملائكة الذين يأتي بهم الله سبحانه وتعالى شهداء على بني آدم في الموقف من أصناف أهل الإيمان الذين أخبر الله سبحانه ورسوله عنهم أقوالا في ذلك اليوم.

وكذلك بقيّة أهل الإيمان من الأفراط الذين أخبر الرسول ﷺ عن مخاطباتهم للرب ليأذن لهم في الشفاعة لواديهم.

وثبت في النصوص أيضا أقوال بعض عصاة أهل التوحيد، وأقوال صاحب البطاقة، ومخاطبات لأصحاب الأعراف، وغيرها من الأقوال التي جرت من أهل الإيمان.

وفيما يلي من المباحث ذكر هذه الأقوال؛ مع بيان ما فيها من الدلالات العقدية-بإذن الله تعالى.

المبحث الأول: أقوال الملائكة في الموقف ودلالاتها العقدية.

تجري من الملائكة في أرض الموقف جملة من الأقوال، يدلون في بعضها بشهاداتهم على بني آدم، ويتبرءون في بعضها من عبودية الخلق لهم، والبعض الأخرى تجري منهم تثبيتا لأهل الإيمان وإيناسا لهم في الموقف؛ إلى غير ذلك من المخاطبات؛ والمطالب التالية محل الدراسة لهذه الأقوال بعون الله تعالى.

المطلب الأول: شهادة الملائكة على بني آدم في الموقف.

إنّ مما يجري للملائكة من الكلام في الموقف ما يصدر منهم من أقوال يُدْلُون بها بشهادتهم على بني آدم وقت الحساب، ومما ورد في النصوص من تلك الشهادة:

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾.[١]

قال ابن كثير[٢] رحمه الله:

«يقول تعالى مخبرا عن الملك الموكّل بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أي: معتمدٌ محضر بلا زيادة ولا نقصان».[٣]

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾.[٤] قيل المراد بالأشهاد في الآية الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم.[٥]

---

(١) سورة ق الآية (٢٠-٢٣).

(٢) سبقت ترجمته.ص (٧٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٤٠٩/٤).

(٤) سورة هود الآية (١٨).

(٥) ينظر تفسير البغوي (٣١٩/٢).

المطلب الثاني: تبرؤهم من عبودية الخلق لهم.

إنّ مما أخبر الله به من أقوال الملائكة في الموقف ما خاطبوا به الرب سبحانه وتعالى يتبرؤون من زعم المشركين أنهم كانوا يعبدونهم في الدنيا؛ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا التبرّي في موضعين من القرآن.

الموضع الأول:قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً ﴾.(١)

الشرح:

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أي: ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة، العابدين الأوثان، و ما يعبدون من دون الله من الملائكة والإنس و الجن؛ فنقول للذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله:

أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، حتى تاهوا و هلكوا، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوةٍ منكم لهم فضلّوا سبيل الرشد و الحق، و سلكوا العطب.؟

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً ﴾أي: قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله: تنزيها لك يا ربنا و تبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون؛ إذ ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك؛ لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك؛ بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم؛ فما أضللناهم ولكنك يا ربّ متّعتهم، ومتّعت آباءهم بالنعم، ووسّعت عليهم الرزق، وأطلت لهم العمر، حتى غفلوا عن ذكرك، ونسوا موعظتك، والتدبر لكتابك، والنظر في عجائب صنعك وغرائب مخلوقاتك فكانوا قوما هلكى.(٢)

---

(١) سورة الفرقان الآية (١٧-١٨).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٣٧٢/٩)، وتفسير القرآن العظيم (٢٠٧٥/٣)،وتفسير القرطبي (١٣/١٣)، وفتح القدير(٩٧/٤).

والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾.[١]

الشرح:

يخبر الله تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على روؤس الخلائق؛ فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم قائلا: ﴿أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: هل أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أي: قالت الملائكة: تعاليت وتقدّست عن أن يكون معك إله، نحن عبيدك، ومفتقرون إلى ولايتك، ونبرأ إليك من هؤلاء. ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ أي: الشياطين، لأنهم هم الذين زيّنوا لهم عبادة الأوثان، فأطاعوهم. ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾أي: مصدّقون للجن، منقادون لهم؛ فالإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.[٢]

الدلالات العقدية.

يتضمن أقوال الملائكة في هذه الآيات ما يلي:

أنّ الملائكة ممن يسألهم الله تعالى في الموقف.

دلّ قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً ﴾ وقوله حكاية عنهم: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ أنّ الملائكة من جملة من يُسألون في الموقف، ولكن يكون الغرض من سؤالهم تبكيت المشركين، وتوبيخهم، وتكذيبهم على رؤوس الخلائق؛[٣] بخلاف سؤال غيرهم من الثقلين الذي يكون الغرض منه المحاسبة والجزاء.

---

(١) سورة سبأ الآية (٤٠-٤١).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٣٧٣/٣)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٦٥٠).

(٣) ينظر زاد المسير (٤٦٣/٦)،وتفسير القرطبي (٢٧١/١٤).

المطلب الثالث: قول الملائكة حين يسألهم الناس أفيكم ربنا «ليس فينا، وهو آت».

إنّ هذا القول مما يخاطب به الملائكة عامّة أهل الموقف حين يفزعون إليهم يسألونهم عن الرب سبحانه وتعالى.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه قال : (إذا كان يوم القيامة مُـدّت الأرض مَـدَّ الأديم في سعتها كذا وكذا، وجُمِع الخلائق بصعيد واحد جنّهم وإنسهم، فإذا كان كذلك قيضت هذه السماء الدنيا عن أهلها فينثرون على وجه الأرض؛ فلأهل السماء وحدهم أكثر من جميع أهل الأرض وجنهم وإنسهم بالضعف، فإذا نثروا على وجه الأرض فزع إليهم أهل الأرض وقالوا: أفيكم ربّنا؟ فيفزعون من قولهم ويقولون: سبحان ربنا؛ ليس فينا وهو آت؛ ثم تُقاض السماء الثانية، فلأهل السماء الثانية وحدهم أكثر من أهل السماء ومن جميع أهل الأرض جنّهم وإنسهم بالضعف، فإذا نُثروا على وجه الأرض فزع إليهم أهل الأرض وقالوا: أفيكم ربنا؟ فيفزعون من قولهم ويقولون: سبحان ربنا ليس فينا وهو آت...).[١]

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٦١٣/٤) برقم (٨٦٩٩)موقوفا على ابن عباس، وقال الذهبي:« إسناده قوي». وأورده الهيثمي في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (١٠٠١/٢) برقم (١١٢٢). مرفوعا، وقال المحقق :رجال الإسناد كلهم ثقات إلا شهر بن حوشب فهو صدوق كثير الأوهام، ثم قال: وللحديث شواهد. ينظر بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث. تحقيق د/حسين أحمد صالح الباكري (١١٠٢/٢).

الدلالات العقدية.

إنّ قول الملائكة لأهل الموقف:«سبحان ربنا ليس فينا وهو آت» يشتمل على ما يلي:

الأولى: إثبات صفة المجيء لله تعالى.

إنّ في قول الملائكة:«... ليس فينا وهو آت...» إثباتا لصفة المجيء لله تعالى على الحقيقة كما يليق بجلاله، وقد دلت على ثبوت هذه الصفة لله تعالى عدة نصوص؛ منها:قوله تعالى:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ .[١]

وقوله تعالى: ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ .[٢]، [٣].

قال الإمام أبو الحسن الأشعري [٤]رحمه الله في بينه عقيدة أهل السنة:

« ونصدّق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل عن النزول إلى سماء الدنيا، وأنّ الرب عز وجل يقول:(هل من سائل هل من مستغفر)[٥]وسائر ما نقلوه و أثبتوه خلافا لما قاله أهل الزيغ والتضليل.

ونعوّل فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ وإجماع المسلمين وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا، ولا نقول على الله مالا نعلم.ونقول: إنّ الله عزّ وجلّ يجيء يوم القيامة كما قال سبحانه:﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[٦]».[٧]

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١٠).

(٢) سورة الفجر الآية (٢١-٢٢).

(٣) ينظر معارج القبول (٣٠٣/١).

(٤) سبقت ترجمته.ص (٢٠).

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، برقم (٧٥٨).

(٦) سورة الفجر الآية (٢٢).

(٧) الإبانة ص (٢٠).

الثانية: الرد على الجهمية.

إنّ قول الملائكة لأهل الموقف:«... ليس فينا وهو آت...» يتضمن كذلك ردا على الجهمية وغيرهم من المعتزلة والأشاعرة[(١)] الذين ينكرون مجيئه تعالى على الحقيقة، ويؤولونه بمجيء ملائكته، أو مجيء أمر من أموره.[(٢)]

ووجه ذلك: أنّ الملائكة لو كانت هي التي تجيء وتأتي دونه تعالى ما قالت حين سألهم الناس: لم يأت ربنا وهو آت.[(٣)] أمّا تأويلهم المجيء بمجيء أمره فيبطله عليهم قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾[(٤)]

حيث إنّ الله تعالى فرّق في الآية بين إتيان الملائكة وإتيانه تعالى وإتيان بعض آياته، فقسّم، ونوّع، ومع هذا التقسيم يمتنع أن تكون الأقسام واحدا.[(٥)]

---

(١) سبق التعريف بهذه الفرق الثلاثة.

(٢) ينظر النقض للدارمي (٢/٦٧٠)، والكشاف للزمخشري(١/١٢٦)،وتفسير البيضاوي(١/٤٩٣) ؛ومختصر الصواعق ص(٣٥٧).

(٣) ينظر النقض للدارمي (٢/٦٧٠).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٥٨).

(٥) ينظر مختصر الصواعق ص (٣٥٨).

المطلب الرابع: تثبيتهم للمؤمنين في الموقف.

إنّ من الأقوال التي تصدر من الملائكة في الموقف ما يخاطبون به أهل الإيمان تثبيتا وتهنئة لهم في الموقف؛ ويبشّرونهم بما لهم عند الله تعالى من الأجر الكريم والثواب العظيم، والنعيم المقيم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾.[١]

الشرح.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾أي: قالوا: ربنا الله وحده لا شريك له؛ و لم يخلطوا توحيد الله بشرك غيره به، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى.[٢]

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ من عند الله سبحانه بالبشرى التي يريدونها؛ من جلب نفع، أو دفع ضرر، أو رفع حزن؛ وذلك:عند الموت؛ وقيل: يوم خروجهم من قبورهم؛ وقيل: يبشّرونهم عند الموت، وفي القبر، وحين البعث.[٣] قال ابن كثير رحمه الله:«وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدّا، وهو الواقع».[٤]

﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾أي: ممّا تقدمون عليه من أمور الآخرة؛ وقيل: لا تخافوا ردّ ثوابكم فإنه مقبول، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم.[٥]

«والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين، وعدم تقييد نفي الخوف والحزن بحالة مخصوصة؛ كما يُشعر به حذف المتعلق في الجميع».[٦]

---

(١) سورة فصلت الآية (٢٩-٣١).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٠٦/١١).

(٣) ينظر فتح القدير (٧٣٣/٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢٥٥٠/٤).

(٥) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٥٤٩/٤)، وفتح القدير (٧٣٣/٤).

(٦) فتح القدير (٧٣٣/٤).

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين: كنا قرناؤكم في الحياة الدنيا،نسدّدكم، ونوفّقكم، ونحفظكم بأمر الله؛كذلك نكون معكم في الآخرة نؤنّس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم.(١)

قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي: لكم في الجنة جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقرّ به العيون؛ وكل ما طلبتم وجدتموه حاضر ا بين أيديكم كما اخترتم وأردتم.(٢)

قوله تعالى: ﴿ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ أي هذا الثواب والنعيم المقيم، نزُلٌ وضيافة من غفور رحيم، حيث غفر لكم السيئات، ووفّقكم لفعل الحسنات، ثم قَبِلها منكم؛ فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.(٣)

الدلالات لعقدية.

إنّ هذه المخاطبات من الملائكة لأهل الإيمان تشتمل من الدلالات العقدية ما يلي:

-إثبات وجود صنف خاص برفقة أهل الإيمان من الملائكة.

إنّ قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿ ... أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ دليل على وجود صنف من الملائكة خاصّ برفقة أهل الإيمان وولائهم؛ ولا حظّ للكافرين فيهم. فكما أنّه تعالى قيّض للكفار قرناء من الشياطين يزيّنون لهم السيئات، ويؤزّونهم إلى المعاصي أزّا في الدنيا؛ ويثبّطونهم عن الخيرات، فكذلك قيّض للمؤمنين ملائكة يحسّنون لهم الحسنات، ويلهمونهم بإذن الله الخيرات؛ ويحثونهم على الطاعات.

فوصف هؤلاء الملائكة المتنزلين بأنهم أولياء يقتضي أنّ عملهم مع المؤمن عمل صلاح وتأييد؛ مثل إلهام الطاعات، ومحاربة الشياطين، ونحو ذلك؛ وبذلك تتم مقابلة تنزلهم على المؤمنين بذكر تقييض القرناء للكافرين.(٤)

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤/٢٥٥٠)، وتيسير الكريم الرحمن ص(٧١٥).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤/٢٥٥٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص(٧١٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/٢٨٦).

المبحث الثاني: مخاطبات المؤمنين للرب سبحانه ودلالاتها العقدية.

قد ثبت في الكتاب والسنة لأهل الإيمان جملة من الأقوال في الموقف؛ منها دعاؤهم لله سبحانه أن يتم لهم نورهم؛ ومنها كذلك مخاطباتهم له سبحانه وتعالى حين أتاهم في الموقف؛ وفي المطلبين التاليين ذكر هذه الأقوال مع بيان ما فيها من الدلالات العقدية.

المطلب الأول: دعاؤهم الله تعالى في الموقف.

إنّ مما أخبر الله به من أقوال أهل الإيمان في الموقف دعاؤهم الله سبحانه أن يتمّ لهم نورهم، ويغفر لهم سيئاتهم وخطاياهم.قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .(١)

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾ أي: ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله وإلى ما يرضيه عنكم؛ وتوبوا إليه تعالى توبة صادقة جازمة؛ تمحو ما قبلها من السيئات، وتلمّ شعث التائب وتجمعه، وتكفّه عمّا كان يتعاطاه من الدناءات.(٢)

وقوله: ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ أي: عسى ربكم أيها المؤمنون أن يمحو سيئات أعمالكم التي سلفت منكم، ويدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار يوم القيامة؛ يوم لا يخزي الله النبي محمدا والذين آمنوا معه حيث يكون نورهم يسعى أمامهم وبأيمانهم.(٣)

وقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: أنّ المؤمنين يقولون هذا؛ حين يرون نور المنافقين يوم القيامة قد طُفِئ؛ سائلين الله تعالى أن يتمم لهم نورهم، ويبلّغهم به الجنة؛ وأن لا يُسلَب منهم كما سُلِب نور المنافقين.(٤)

---

(١) سورة التحريم الآية (٨).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٢/١٥٨)، وتفسير القرآن العظيم (٤/٢٩٢٦).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٢/١٥٨).

(٤) ينظر تفسير البغوي(٤/٣٣٨)، وزاد المسير(٨/٣١٤).

المطلب الثاني: مخاطبتهم مع الله حين أتاهم في الموقف.

إنّ من المخاطبات التي أخبر الرسول ﷺ أنها تجري لأهل الإيمان في الموقف ما يخاطبون به الرب سبحانه وتعالى حين يأتيهم في الموقف لحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال أناس يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال (هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله.قال: فإنّكم ترونه كذلك؛ يحشر الناس يوم القيامة؛ فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبع؛ فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيدعوهم...).(١)

وفي لفظ مسلم:(...فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك؛ هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربّنا عرفناه، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون؛ فيقول:أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه).

الشرح.

قوله ﷺ :«هل تضارّون »بضمّ أوله وتشديد الراء من الضرر أي: لا تضرّون أحدا، ولا يضرّكم بمنازعة ولا مجادلة ولا مضايقة؛ وجاء في بعض الروايات بتخفيف الراء من الضير وهو لغة في الضرّ؛ أي: لا يخالف بعض بعضا فيكذبه، وينازعه فيضيره بذلك.

وقيل المعنى:لا تضايقون ولا تُزاحمون.وقيل:لا يحجب بعضكم بعضا عن الرؤية فيضرّبه.(٢)

وقوله:« ترونه كذلك» المراد تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح، وزوال الشك، ورفع المشقة والاختلاف.(٣)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الصراط جسر جهنم، برقم (٦٥٧٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان،باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى برقم (١٨٢). واللفظ للبخاري.

(٢) ينظر فتح الباري (١١/٤٤٦).

(٣) المصدر نفسه(١١/ ٤٤٧).

قوله ﷺ : «ومنهم من يتبع الطواغيت»جمع طاغوت ؛ قال جماهير أهل اللغة: الطاغوت كل ما عُبد من دون الله تعالى.

قوله:«وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها» قال العلماء: إنما بقوا في زمرة المؤمنين لأنهم كانوا في الدنيا متستّرين بهم، فيتستّرون بهم أيضا الآخرة، وسلكوا مسلكهم، ودخلوا في جملتهم، وتبعوهم ومشوا في نورهم، حتى ضُرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، وذهب عنهم نور المؤمنين.(١)

وقوله ﷺ :« فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك؛ هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون؛ فيقول:أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه».

قوله ﷺ:« فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون...» هذه المعرفة حصلت للمؤمنين لرؤية متقدمة منهم لصورة الله تعالى في الموقف، بدليل قوله ﷺ في رواية أخرى:« فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة...».(٢) وفي رواية أخرى « قال:هل بينكم وبينه علامة؟فيقولون نعم، فيكشف عن ساقه فيسجدون له».(٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله « وهذا يبين أنهم لم يعرفوه بالصفة التي وصف لهم في الدنيا، بل بآية وعلامة عرفوها في الموقف».(٤)

---

(١) ينظر شرح النووي على مسلم (١٨/٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ برقم (٧٤٣٧).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة برقم (١٢٠٣)، والطبراني في الكبير برقم (٩٧٦٣)، وقال:« رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات»المعجم الكبير (٣٦١/٩). وقال الهيثمي في المجمع (٣٤٣/١٠) بعد ذكره لهذا الحديث:« رواه كله الطبراني من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة»

(٤) بيان تلبيس الجهمية (١٤٤/٧).

المطلب الثالث: الرد على منكري صفة الكلام.

إنّ في قول المؤمنين للرب سبحانه :« أنت ربنا»-لَمَّا جاءهم سبحانه على صورته التي يعرفون وقال :« أنا ربكم»- دليلا على ثبوت الكلام لله تعالى على الحقيقة ، وأن المؤمنين يسمعونه منه تعالى؛ وهذا يتضمن الرد على الجهمية والمعتزلة[١]الذين يقولون إنّ كلامه مخلوق من مخلوقاته؛ وأنه تعالى إذا أراد الكلام يكوّن شيئا من الأشياء فيعبر عنه.[٢]

ووجه الرد عليهم بذلك: أنّ هؤلاء المؤمنين أثبتوا لمن سمعوا منه الكلام بالربوبية؛ ولو كان كلامه تعالى مخلوقا لأثبتوا الربوبية لغير الله تعالى.

وهذا الوجه مستفاد من قول الإمام أحمد في ردّه على الجهمية: من زعم أنّ مكوَّنا غير الله يقول لموسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .[٣] أو يقول: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [٤] فمن زعم ذلك فقد زعم أنّ غير الله تعالى ادّعى الربوبية.[٥]

وقد سبق ذكر ما يغني من أدلة الكتاب والسنة على ثبوت صفة الكلام لله تعالى على الحقيقة. [٦]

---

(١) سبق التعريف بهما.ص (٤٦).

(٢) ينظر الفرق بين الفرق ص(٩٤)، ومقالات الإسلاميين ص (٥٨٢)،والرد على الزنادقة والجهمية ص(٣٤)؛والتنبيه والرد(١/١٢٥).

(٣) سورة طه الآية (١٢).

(٤) سورة طه الآية (١٤).

(٥) ينظر الرد على الزنادقة والجهمية ص (٣٤-٣٥).

(٦) ينظر ص (١٩٠).

المطلب الرابع: الرد على منكري صفة المجيء.

إنّ في هذه المخاطبات بين المؤمنين والرب سبحانه وتعالى من قوله ﷺ «... فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك؛ هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه» إلى قولهﷺ «...فيقول:أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه» إثبات صفة المجيء لله تعالى، ردا على الجهمية وغيرهم من المعتزلة والأشاعرة[١]الذين ينكرون مجيئه تعالى على الحقيقة، ويؤولونه بمجيء ملائكته، أو مجيء أمر من أموره.[٢]

وقد سبق إيراد الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف في ثبوت هذه الصفة لله تعالى مما يغني عن الإعادة.

---

(١) سبق التعريف بهذه الفرق الثلاثة.ص (٤٦،١٢٩).

(٢) ينظر النقض للدارمي (٦٧٠/٢)، والكشاف للزمخشري(١٢٦/١)،وتفسير البيضاوي(٤٩٣/١) ؛ومختصر الصواعق ص(٣٥٧).

المطلب الخامس: الرد على منكري الرؤية.

إنّ في قول المؤمنين للرب سبحانه حين أتاهم في صورة غير صورته التي يعرفون « نعوذ بالله منك؛ هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه»؛ وقولهم له تعالى لـــمّا أتاهم على صورته التي يعرفون« أنت ربنا» إنّ في ذلك كله دليلا على ثبوت رؤيتهم الله سبحانه وتعالى بالأبصار والرد على منكريها.

والأدلة الدالة على ثبوت رؤية لله تعالى في الآخرة كثيرة معلومة؛ بل عدّ العلماء رحمهم أدلة إثبات الرؤية مما تواتر عن النبي ﷺ ، وأجمع عليها الصحابة.[(١)]

ومن تلك الأدلة:قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[(٢)] «قال ابن عباس وأكثر الناس: تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب».[(٣)]

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله: فالنظر في الآية إمّا أن يعنى به نظر الاعتبار؛ أو نظر الانتظار، أو نظر التعطف؛ أو يعنى به نظر الرؤية. ولا يجوز أن يكون الله عز وجل عنى بقوله ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ نظر التفكير والاعتبار، لأنّ الآخرة ليست بدار اعتبار؛ ولا يجوز أيضا أن يكون عنى نظر الانتظار؛ لأنّ النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه؛ وأيضا فإنّ نظر الانتظار لا يكون في الجنة، لأنّ الانتظار معه تنغيص وتكدير، وأهل الجنة لم يجز أن يكونوا منتظرين، لأنهم كلما خطر ببالهم شيء أُتوا به مع خطوره ببالهم؛ ولا يجوز كذلك أن يكون الله عزّ وجل أراد نظر التعطّف، لأنّ الخلق لا يجوز أن يتعطّفوا على خالقهم.وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صحّ القسم الرابع من أقسام النظر وهو الرؤية بالعين.[(٤)] ومنها ؛ قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾.[(٥)]

قال الإمام البيهقي[(٦)] رحمه الله:

---

(١) ينظر الإبانة للأشعري ص (١٤)؛ والاعتقاد للبيهقي ص (١٣٠-١٣١).

(٢) سورة الغاشية (٢٠-٢٣).

(٣) ينظر تفسير البغوي (٣٩٢/٤).

(٤) الإبانة للأشعري ص (٣٥) وما بعدها؛ بتصرف.

(٥) سورة يونس الآية (٢٦).

(٦) سبقت ترجمته.ص (٢٨).

« قد فسّر رسول الله ﷺ المبيـــّن عن الله عزّ وجلّ فَمَن بعده من الصحابة الذين أخذوا عنه والتابعين الذين أخذوا عن الصحابة أنّ الزيادة في هذه الآية النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى، وانتشر عنه وعنهم إثبات رؤية الله عز وجل في الآخرة بالأبصار».[١]

ومن الأدلة على ثبوت الرؤية من السنة قوله ﷺ :(هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: فإنّكم ترونه كذلك...).[٢]

قال الإمام الآجري[٣]رحمه الله في كتابه الشريعة : « كتاب التصديق بالنظر إلى وجه الله عز وجل...وأمّا أهل السعادة: فهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، فآمنوا بالله وحده و لم يشركوا به شيئا، وصدّقوا القول بالفعل، فأماتهم على ذلك، فهم في قبورهم ينعمون، وعند المحشر يبشّرون، وفي الموقف إلى الله عز وجل بأعينهم ينظرون، وإلى الجنة بعد ذلك وافدون، وفي نعيمها يتفكهون، وللحور العين معانقون، والولدان لهم يخدمون، وفي جوار مولاهم الكريم أبدا خالدون، ولربهم عزّ وجلّ في داره زائرون، وبالنظر إلى وجهه الكريم يتلذّذون، وله مكلّمون، وبالتحية لهم من الله عز وجل والسلام منه عليهم يكرمون».[٤] ثمّ قال رحمه الله: « فإن اعترض جاهل ممّن لا علم معه أو بعض هؤلاء الجهمية الذين لم يوفّقوا للرشاد، ولعب بهم الشيطان، وحُرِموا التوفيق فقال: وهل المؤمنون يرون الله عزّ وجلّ يوم القيامة؟ قيل له: نعم والحمد لله على ذلك.

فإن قال الجهمي: أنا لا أؤمن بهذا؛ قيل له : كفرت بالله العظيم.فإن قال: وما الحجة ؟

قيل: لأنّك رددت القران والسنة وقول الصحابة رضي الله عنهم وقول علماء المسلمين، واتّبعت غير سبيل المؤمنين، وكنت ممّن قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾[٥]».[٦]

---

(١) الاعتقاد للبيهقي ص (١٢٣).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٨٨).

(٣) سبقت ترجمته.ص (٦١).

(٤) الشريعة (٢٥٨/١).

(٥) سورة النساء الآية (١١٥).

(٦) الشريعة (٢٥٨/١).

المطلب السادس: مخاطبة المؤمن لربه بعدما عرض عليه ذنوبه.

إنّ مما يجري لأهل الإيمان من الأقوال في الموقف ما ثبت من مخاطبة بعض المؤمنين للرب عند ما عرض عليه صغار ذنوبه وخبّئ عنه كبارها.

فعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :(يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، قال: فتعرض عليه ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وهو مقرّ لا ينكر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة، قال: فيقول: إنّ لي ذنوبا ما أراها قال: قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه).(١)

الدلالات العقدية.

يتضمن قول المؤمن في هذا الحديث من الدلالات العقدية ما يلي:

أنّ الإنسان يتذكر جميع ذنوبه يوم القيامة.

إنّ في قول المؤمن:« إنّ لي ذنوبا ما أراها» بعد ما عُرِض عليه صغار ذنوبه، ثم أُعطي مكان كل سيئة منها حسنة دليلا على أنّ الإنسان يذكر جميع ذنوبه يوم القيامة، ويستحضرها، بل قد دلت النصوص على أنّ الإنسان يتذكر في ذلك اليوم جميع أعماله وأقواله سيئها وحسنها، وإن كان نسيها قبل ذلك.(٢)

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى ﴾.(٣)أي حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره وقد كان نسيه من فرط الغفلة، أو طول الأمد، أو شدة ما لقي، أو كثرته التي تعجز عن الضبط.(٤)

وهذا من تمام حكمته تعالى؛ ليرى العبد فضله إن غفر له فيشكره، ويرى عدله و يرضى بحكمه إن عذّبه.

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم (٢١٣٩٣)، وإسناده على شرط الشيخين.ينظر تحقيق المسند (٣١٣/٣٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٩/٨) برقم (٣٠٥٢).

(٢) دل قوله تعالى في سورة المجادلة﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾على أنّ الإنسان قد ينسى بعض أعماله لكن في ذلك اليوم يستحضرها كلها. ينظر روح المعاني للألوسي(٣٥/٣٠).

(٣) سورة النازعات الآية (٢٤-٢٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣٠٣٢/٤)، وروح المعاني (٣٥/٣٠).

المطلب السابع: مخاطبات صاحب البطاقة لله تعالى.

إنّ ممّا ثبت في النصوص أنه سيجري في الموقف لأهل الإيمان من الأقوال أيضا ما يخاطب به صاحب البطاقة الربَّ سبحانه وتعالى.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجّلا، كل سجّل مثل مدّ البصر، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب؛ فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب؛ فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم؛ فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله؛ فيقول: احضر وزنك، فيقول: ياربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم؛ قال: فتوضع السجلات في كفّة، والبطاقة في كفّة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة؛ فلا يثقل مع اسم الله شيء).(١)

الشرح.

قوله ﷺ «إنّ الله سيخلّص» بتشديد اللام أي: يميّز ويختار. وقوله:« فيُنشر » أي: يفتح.

قوله:« تسعة وتسعين سجلاّ» بكسرتين فتشديد؛ أي: كتابا كبيرا.

قوله ﷺ :«كل سجّل مثل مد البصر» أي: كل كتاب منها طوله وعرضه مقدار ما يمتدّ إليه بصر الإنسان.

قوله ﷺ :« أظلمك كتبتي » أي: الكرام الكاتبون.

قوله ﷺ: «فيقول أفلك عذر» أي: فيما فعلته؛ من كونه سهوا أو خطأ أو جهلا ونحو ذلك.

قوله ﷺ:« فتخرج بطاقة » البطاقة رقعة صغيرة يثبت فيها مقدار ما تجعل فيه.

قوله ﷺ :« فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله» أي: مكتوب فيها هذه الكلمة.

قوله ﷺ :« احضر وزنك»: أي الوزن الذي لك، أو وزن عملك، أو وقت وزنك، أو آلة وزنك وهو الميزان؛ ليظهر لك انتفاء الظلم، وظهور العدل وتحقق الفضل.

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، برقم (٢٦٣٩)، وابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله عز وجل يوم القيامة، برقم (٤٣٠٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦١/١) برقم (١٣٥).

قوله ﷺ :«فيقول يا ربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات» أي: ما قدرها بجنب هذه السّجلات الكثيرة.

قوله ﷺ :«فقال: إنك لا تظلم» أي: لا يقع عليك الظلم، ولا بدّ من حضورك الوزن كي يظهر أنْ لا ظلم عليك. ووجه مطابقة هذا جوابا لقوله:« ما هذه البطاقة» أنّ اسم الإشارة للتحقير؛ كأنه أنكر أن يكون مع هذا البطاقة المحقرة موازنةً لتلك السجلات، فَرُدّ بقوله:« إنك لا تظلم» أي: لا تحقر هذه فإنها عظيمة عنده سبحانه.

قوله:«فتوضع السجلات في كفة» الكفة: بكسر فتشديد؛ أي: فردة من زوجَيِّ الميزان.

قوله ﷺ :« فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة» أي: خفت السجلات ورجحت البطاقة.

قوله ﷺ : «ولا يثقل مع اسم الله شيء » أي:لا يرجّحه ولا يغلبه شيء؛ والمعنى: لا يقاومه شيء من المعاصي؛ بل يترجّح ذكر الله تعالى على جميع المعاصي.(١)

الدلالات العقدية.

يشتمل أقوال المؤمن في هذا الحديث على ما يلي.

-إثبات أن صحائف الأعمال مما يوزن يوم القيامة.

إنّ في قول المؤمن«ما هذه البطاقة مع هذه السجلات» دليلا على أنّ الصحائف التي كتبت عليها الأعمال مما يوزن يوم القيامة؛ بل قد ذكر جمهور العلماء أنه لا يوزن في الحقيقة غيرها.(٢)وإنما ينسب الوزن للأعمال نفسها أحيانا في النصوص كما في قوله ﷺ (ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق).(٣) لكون الصحائف تخفّ وتثقل بما دوّن فيها من الأعمال؛ وأمّا ما ورد في وزن العامل فالمراد به قدره وحرمته، وإنما نسب إليه الوزن لأنه هو الذي قام بالعمل.(٤)

---

(١) ينظر تحفة الأحوذي (٧/٣٣٠-٣٣١).

(٢) ينظر العقيدة السفارينية (٢/١٨٢).

(٣) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، برقم (٤٧٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٧٢١).

(٤) ينظر لمعة الاعتقاد مع شرح الشيخ ابن عثيمين ص (١٢١)، واليوم الآخر في القرآن والسنة ص(٣٥٤)

المطلب الثامن: الرد على منكري الميزان.

يتضمن قول المؤمن«ما هذه البطاقة مع هذه السجلات» أي:ما قدرها جنب تلك السجلات الكثيرة إقرار منه بأنها ستوزن بميزان حقيقي؛ حيث أنكر أن تكون البطاقة موازنة لتلك السجلات، وفي ذلك رد على من أنكر الميزان من المعتزلة ونفوا وجود ه وقالوا: إن الأعمال أعراض يستحيل وزنها، إذ هي لا تقوم بنفسها، وأنه لا حكمة في وزنها، لكون الله تعالى عالما بأعمال العباد، وأنه لا يحتاج إلى الميزان إلاّ البقّال والفوّال،[١] وأوّلوا النصوص الوارد في إثبات الميزان بالعدل.[٢]

وما ردت به النصوص من وصف الميزان بالثقل والخفة بالأعمال[٣]وأنّ لـــه كفتين، وما ورد كذلك في أنه يسع السماوات والأرض عظمةً كما في قوله ﷺ: (يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعته، فتقول: الملائكة يا رب لمن هذا؟ فيقول لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك).[٤] كل هـــذه الصفات تدل على أنّ المراد به ميزان حقيقي.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:٦١٢-٦١٣).

(٢) انظر:فتح الباري (٦٦٠/١٣).

(٣) ورد هاتان الصفتان للميزان في القرآن كما في سورة الأعراف الآية (٨-٩). وفي سورة القارعة الآية(٦- ٨).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك(٦٢٩/٤) برقم (٨٧٣٩).وصححه للألباني في السلسلة الصـــحيحة (٦٥٦/٢).

المطلب التاسع: مخاطبات أطفال المؤمنين للرب سبحانه وتعالى.

إنّ مما ثبت لأهل الإيمان في الموقف من الأقوال ما يجري لأطفال المسلمين من المخاطبات مع الرب سبحانه في شأن الشفاعة في آبائهم.

فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:(ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلاّ أدخلهما الله وأباهم بفضل رحمته الجنة، وقال يقال: لهم ادخلوا الجنة؛ قال: فيقولون: حتى يجيء أبوانا؛ قال: ثلاث مرات؛ فيقولون مثل ذلك؛ فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم).[1]

وفي رواية:(فيقال لهم: ادخلوا الجنة فيقولون: أندخل و لم يدخل أبوانا؟ فقال لهم -فلا أدري في الثانية -: ادخلوا الجنة وآباؤكم...).[2]

الشرح:

قوله ﷺ « ما من مسلمين» قيّده بالإسلام ليخرج الكافر.

قوله:« لم يبلغوا الحِنْث» أي: لم يبلغوا الحلم فتكتب عليهم الآثام.

يقال: بلغ الغلام الحنث إذا جرى عليه القلم؛ والحنث: الذنب.[3]

وإنما عُبِّر بالحنث عن البلوغ لِمَا كان الإنسان يؤاخذ بما يرتكبه فيه بخلاف ما قبله، وخصّ الإثم بالذكر لأنه الذي يحصل بالبلوغ، إذ الصبي قد يثاب.[4]

---

(١) رواه احمد في المسند برقم (٢٧٤٢٩)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز ص (١٦).

(٢) رواه اسحاق بن راهوية في مسنده (٢٥١/٤) برقم (٢٠٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٣/٩) برقم (٣٤١٦).

(٣) ينظر فتح الباري (١٢٠/٣).

(٤) ينظر مفردات القرآن (٣٥٩/١).

الدلالات العقدية.

يشتمل مخاطبات أفراط أهل الإيمان للرب على ما يلي:

الأولى: أنّ أفراط المؤمنين من أهل الجنة.

إنّ في قول الأولاد لما قيل لهم:«أدخلوا الجنة»؛ «حتى يجيء أبوانا»؛وفي رواية :«أنـــدخل و لم يدخل أبوانا» دليلا على أنّ من مات من أطفال المؤمنين فهو من أهل الجنة.(١)

وقد دل على ذلك ما روى أبو هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: (أولاد المؤمنين في جبل في الجنة يَكْفلهم إبراهيم و سارة حتى يردّهم إلى آبائهم يوم القيامة).(٢)

قال المناوي(٣)رحمه الله: «فيه أنّ أطفال المؤمنين في الجنة؛ وقد حكى جمع عليه الإجماع ».(٤)

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى:«أجمع من يعتدّ به من علماء المسلمين علـــى أنّ مـــن مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة؛ لأنه ليس مكلّفا».(٥)

وقد استشكل هذا بما رواه مسلم من حديث عائشة أنها قالت:(توفي صبيّ فقلت: طـــوبى له عصفور من عصافير الجنة؛ فقال رسول الله ﷺ :أوَلا تدرين أنّ الله خلق الجنة، وخلـــق النار، فخلق لهذه أهلا، ولهذه أهلا؟).(٦)

---

(١) ينظر التمهيد (١١٣/١٨).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٥٤١/١) برقم (١٤١٨)؛ وقال:«هذا حديث صحيح علـــى شـــرط الشيخين و لم يخرجاه »

(٣) المناوي هو زين الدين عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المنـــاوي القاهري، عالم مشارك في أنواع العلوم؛ من مؤلفاته: الروض الباســـم في شمائـــل المصـــطفى أبي القاسم، و شرح التحرير في فروع الفقه الشافعي، وتيسير الوقوف على أحكام الوقوف،وغيرها، توفي سنة ١٠١٣هـــ. ينظر معجم المؤلفين (١٤٣/٢).

(٤) فيض القدير (٥٣٨/١).

(٥) ينظر شرح الإمام النووي على مسلم (٢٠٧/١٦).

(٦) رواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم مـــوت أطفال الكفّار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٦٢).

وقد أجاب عنه العلماء بأنه ﷺ لعلّه نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع. أ ويحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنّ أطفال المسلمين في الجنة، فلمّا علم بذلك أخبر به.(١)

الثانية: إثبات شفاعة أفراط أهل الإيمان.

إنّ في قول الأولاد«حتى يجيء أبوانا»؛ وفي الرواية الثانية: «أندخل و لم يدخل أبوانا» دليلا على أنّ أفراط المؤمنين شفعاء مشفّعون عند الله في آبائهم يوم القيامة.

ولذلك ورد في فضل من مات له ولد فاحتسب أحاديث كثيرة منها: قوله ﷺ :

(ما من الناس من مسلم يتوفّى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلاّ أدخله الله الجنة؛ بفضل رحمته إيّاهم).(٢)

وقوله ﷺ :(أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا لها حجابا من النار. قالت امرأة واثنان؟ قال: واثنان).(٣)

وإنما خصّ الصغير بذلك لأنّ الشفقة عليه أعظم، والحبّ له أشدّ، والرحمة له أوفر.

وعلى هذا فمن بلغ الحنث لا يحصل لمن فقده ما ذُكِر من هذه الشفاعة؛ وإن كان في فقد الولد أجر في الجملة؛ وبهذا صرّح كثير من العلماء، وفرّقوا بين البالغ وغيره بأنه يتصوّر منه العقوق المقتضى لعدم الرحمة؛ بخلاف الصغير فإنه لا يتصور منه ذلك إذ ليس بمخاطب.(٤)

---

(١) ينظر شرح الإمام النووي على مسلم (٢٠٧/١٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المسلمين، برقم (١٣٨١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب،برقم (١٢٤٩).

(٤) ينظر فتح الباري (١٢٠/٣).

المبحث الثالث: مخاطبات المؤمنين بعضهم لبعض في الموقف.

إنّ من الأقوال التي ثبتت لأهل الإيمان في الموقف ما ورد في النصوص من مخاطبات بعضهم لبعض مبتهجين بأعمالهم، يبشّر بعضهم بعضا بالسعادة.

وفي المطلبين التاليين ذكر هذه المخاطبات مع دراستها؛ بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: ابتهاجهم بأعمالهم.

إنّ من المخاطبات التي تجري بين أهل الإيمان في الموقف ما حكاه الله سبحانه في القــرآن الكريم عنهم من مخاطبات بعد أخذهم كتبهم باليمين واطّلاعهم لما فيها؛ وذلك عند قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ .[١]

الشرح:

قال الشيخ السعدي[٢] رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة:

«وهؤلاء هم أهل السعادة، يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييــزا لهــم، وتنويها بشأنهم، ورفعا لمقدارهم؛ ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والســرور: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أي دونكم كتابي، فاقرأوه، فإنه يبشّر بالجنات وأنواع الكرامــات، ومغفــرة الذنوب وستر العيوب.

والذي أو صلني إلى هذا الحال ما منّ الله به عليّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له بالممكن من العمل».[٣] فقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ أي: علمت وأيقنت.[٤]

---

(١) سورة الحاقة الآية (١٩-٢٠).

(٢) سبقت ترجمته.ص (٣٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص (٨٤٥).

(٤) ينظر فتح القدير (٥/٣٩٧).

الدلالات العقدية.

قد تضمن هذه الأقوال التي تصدر عن أهل الإيمان بعد اطّلاعهم على ما في كتبهم بما يلي:

- **أهمية الإيمان بالبعث والجزاء.**

إنّ في قول هذا المؤمن الذي أوتي كتابه بيمينه ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ دليلا على أهمية الإيمان بالبعث والحساب وأثره في الحثّ على القيام بالطاعات، والانزجار عن الذنوب والسيئات؛ حيث عدّ هذا المؤمن ما منّ الله به من الإيمان بلقائه وأنه سيحاسب على أعماله السبب الأول في نجاته، وفوزه برضى الله ورحمته.

ولا شك أنّ من علم ما أعدّه الله للطائعين من الثواب، وما للعاصين من العقاب، علما واصلا إلى القلب، فلا بدّ أن يثمر له هذا الإيمان الجدّ في الأعمال الموصلة إلى الثواب،والحذر من الأعمال الموجبة للعقاب.(١)

ولقد وردت نصوص كثيرة تبين ما للإيمان بالبعث والجزاء من الثمرات النافعة والآثار الطيبة؛ ومن هذه الثمرات:

- أنّ الإيمان بالبعث والجزاء يسهّل على المؤمن الطاعات، ويحثه عليها.

قال الله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾.(٢)هذا أمر مِنَ الله تعالى بالاستعانة في الأمور كلها بالصبر والصلاة، وإخبارٌ بأنها شاقّة إلاّ على الخاشعين؛ الذين يوقنون بلقاء الله، فإنها سهلة عليهم وخفيفة؛(٣) فإنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر، وتوافر الجزاء، والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب، تسهل عليهم متاعب العبادات، ومشقّة الطاعات، بل يصير ذلك لهم لذّة خالصة، وراحة عندهم محضة.(٤)

قال ابن كثير رحمه الله:

---

(١) ينظر فتح الرحيم الملك العلام ص:(٧٤).

(٢) سورة البقرة الآية (٤٥-٤٦).

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص: (٣٧).

(٤) ينظر: فتح القدير (١/١٢٤).

«وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله؛ أي: وإنّ الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلاّ على الخاشعين الذين يظنون أهم ملاقو رهم أي: يعلمون أهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأهم إليه راجعون أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لـمّا أيقنوا بالمعاد والجزاء؛ سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات».(١)

- أن الإيمان بالبعث والجزاء يبعث على الإخلاص في الأعمال.

قال تعالى في وصف عباده الأبرار: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾(٢) أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر، ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفةً من سوء الحساب يوم المعاد؛ ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له للمحتاجين قائلين بلسان الحال: إنما نطعمكم رجاء ثواب الله ورضاه، ولا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ولا أنْ تشكرونا عند الناس؛ إنما نفعل هذا لعلّ الله أن يرحمنا ويتلقّانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير.(٣)

- أنّ كمال الإيمان بهذا اليوم يحمل على الثبات عند لقاء الأعداء، والصبر على الشدائد.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .(٤)

وهذا كما ترى ناشئ من كمال إيماهم بالله واليوم الآخر، وتصديقهم بأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ ومن لا يؤمن بلقاء الله تعالى لا يُتوقع منه مثل هذا.(٥)

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٩٢/١).

(٢) سورة الإنسان الآية (٧-١٠).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٣٠١٠/٤-٣٠١٢).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٤٩).

(٥) ينظر روح المعاني (١٧٢/٢).

- أنّ المؤمنين بالبعث والجزاء هم فقط المنتفعون بالآيات العيانية والآيات القرآنية.

قال الله تعالى بعد ما ذكر عقوبات المكذّبين: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾.[١]

أي: أنّ عقوباته للمكذّبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة؛ وأمّا من لا يؤمن بها، ولا يخاف عذابها، فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقّه، إذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة؛وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.[٢]

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.[٣]وقال أيضا: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾.[٤] أي: وأمّا من لا يؤمن بها، ولا يرجوها، ولا يخشاها، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية.[٥]

وبالجملة فمدار السعادة وقطب رحاها على التصديق بالوعيد، فإذا تعطّل من قلب الإنسان التصديق بالوعيد خرب خرابا لا يُرجى معه فلاح ألبتة.[٦]،[٧].

فصدق الإيمان بهذا اليوم وكمال التأهب له منشأ كل صلاح، ونكتة كل فلاح، وطريق كل نجاح في الدنيا والآخرة.

وعن هذا يقول العلامة ابن القيم رحمه الله:

« صدق التأهّب للقاء الله من أنفع ما للعبد، وأبلغه في حصول استقامته؛ فإنّ من استعدّ للقاء الله؛ انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله، وعلى محبته وإيثار مرضاته، واستحدثت همة أخرى وعلوما أخر... والمقصود أنّ صدق التأهّب للقاء هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة،

---

(١) سورة هود الآية (١٠٣).

(٢) ينظر الفوائد لابن القيم ص(١٣١).

(٣) سورة ق الآية (٤٥).

(٤) سورة النازعات الآية (٤٥).

(٥)ينظر الفوائد لابن القيم ص(١٣١).

(٦) ينظر مدارج السالكين (١/١٤٥-١٤٧).

(٧) ينظر الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص(٢٥٥).

والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى الله، ومنازل السائرين إليه؛ من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح؛ فمفتاح ذلك كلّه صدق التأهّب والاستعداد للقاء الله.

والمفتاح بيد الفتّاح العليم لا إله غيره ولا ربّ سواه » [١]

ويقول أيضا رحمه الله:

« اعلم أنّ القلب إذا خلا من الاهتمام بالدنيا والتعلّق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة، وتعلَّقَ بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العُدّة والتأهّب للقدوم على الله عزّ وجلّ؛ فذلك أول فتوحه، وتباشير فجره، فعند ذلك يتحرّك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه فيفعله، ويتقرب به إليه، وما يسخطه منه فيجتنبه، وهذا عنوان صدق إرادته، فإنّ كل من أيقن بلقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين، لا بدّ أن يتنبّه لطلب معرفة معبوده والطريق الموصلة إليه». [٢]

---

(١) طريق الهجرتين ص (٢٧٦).

(٢) مدارج السالكين (٣/٣٧٩).

المطلب الثاني: تبشير المؤمنين بعضهم لبعض.

إنّ من المخاطبات التي تجري لأهل الإيمان في الموقف أيضا ما ثبت في أنّ بعضهم يبشّر البعض بعد استلامهم كتبهم.

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾.[1] قال : يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، و يمدّ له في جسمه ستون ذراعا، قال: و يبيض وجهه، و يجعل على رأس تاج من لؤلؤ يتلألأ، قال: فينطلق إلى أصحابه؛ قال : فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم ائتنا به، و بارك لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول : أبشروا إنّ لكل رجل منكم مثل هذا...).[2]

---

(١)سورة الإسراء الآية (٧١).

(٢) رواه الحاكم في المستدر (٢/٢٦٥) برقم (٢٩٥٥) وصححه، ووافقه الذهبي.

المبحث الرابع: مخاطبات المؤمنين للكفار في الموقف.

إنّ من جملة المخاطبات التي تحدث في الموقف ما صدر من أهل الإيمان من أقوال ينكرون فيها على الكفّار دعاواهم، ويذكرون أسباب شقائهم، ويدعون عليهم باللعنة؛ وفي المطالب التالية ذكر هذه الأقوال مع دراستها؛ بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: إنكار المؤمنين على دعاوى الكفار في الموقف.

إنّ مما صدر من أهل الإيمان في الموقف من الأقوال ما خاطبوا به الكفارَ منكرين عليهم ما ادّعوه من قصر مدة لبثهم في الدنيا؛ قال الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾.(١)

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ يخبر الله تعالى عن يوم القيامة وسرعة مجيئه؛ وأنّه إذا قامت الساعة يحلف المجرمون بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا، أو في قبورهم إلاّ ساعة.(٢) ويمكن أن يكونوا استقلّوا مدة لبثهم، واستقرّ ذلك في أذهانهم؛ فحلفوا عليه وهم يظنون أنّ حلفهم مطابق للواقع؛ أو أنّهم كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل في الدنيا؛ وهذا هو الظاهر؛ لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا؛ فقد علم كل واحد منهم مقداره، وإن أرادوا لبثهم في القبور فقد حلفوا على جهالة، إذ كانوا لا يعرفون الأوقات في البرزخ.(٣)

قوله: ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ أي ما زالوا– وهم في الدنيا– يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب؛ ففي الدنيا كذّبوا الحق الذي جاءهم به الرسل، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس؛ وهو اللبث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.(٤)

---

(١) سورة الروم الآية (٥٥-٥٦).

(٢) ينظر فتح القدير (٤/٣٣٠)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٦١٥).

(٣) ينظر فتح القدير (٤/٣٣٠).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٦١٥).

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أي: الذين منّ الله عليهم بالعلم والإيمان فصار ذلك وصفا لهم من الملائكة والإنس، لقد لبثتم في قضاء الله الـــذي كتبه عليكم وفي حكمه إلى يوم البعث.(١) والمعنى: عُمّرتم عمرا يتـــذكّر فيـــه المتـــذكّر ويتدبّر فيه المتدبّر، ويعتبر فيه المعتبر.(٢)

قوله تعالى: ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: فلذلك أنكرتمـــوه في الـــدنيا، وأنكـــرتم إقامتكم في الدنيا وقتا تتمكّنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثـــاره من التكذيب والخسران دثاركم.(٣)

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٣٤٢/١).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٦١٥).

(٣) المصدر نفسه.

المطلب الثاني: ذكر المؤمنين أسباب شقاء الكفار.

إنّ من جملة ما جرى بين المؤمنين والكفار من مخاطبات في الموقف ما صدر من أهل الإيمان من أقوال يذكرون فيها الأسباب التي أدّت إلى شقاء الكفار.

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.[(١)]

الشرح:

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ هذا إخبار منه تعالى عمّا يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة، ومنها: أنّ الناس يغشاهم ظلمة شديدة، فيعطى المؤمنون النور، فيمشي المنافقون في نور المؤمنين، فإذا سبقهم المؤمنون فبقوا في الظلمة قالوا: انظرونا نستضيء من نوركم، فإنّا كنا معكم في الدنيا.[(٢)]

قوله تعالى: ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورا ﴾ أي: ارجعوا إلى الموضع الذي أخذنا منه النور، فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورا، فإنكم لا تقتبسون من نورنا.[(٣)]

قوله تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ هي خدعة الله التي أخبر أنه يخدع بها المنافقين، حيث يرجعون إلى المكان الذي قُسِّم فيه النور فلا يجدون شيئا، فينصرفون إلى المؤمنين وقد ضُرِب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب؛ وهذا السور هو الحائط الفاصل بين الجنة والنار.[(٤)]

قوله تعالى: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ لّما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه

---

(١) سورة الحديد الآية (١٣-١٥).

(٢) ينظر زاد المسير (١٦٥/٨)، وتفسير القرآن العظيم (٢٨١٧/٤)،

(٣) تفسير القرطبي (٢١٠/١٧).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٨١٧/٤-٢٨١٨).

عمّا قاله المنافقون إذ ذاك؛ وهو أنهم ينادون أهل الإيمان قائلين ألم نكن موافقين لكم في الظاهر، نصلي بصلاتكم في مساجدكم، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم؟.[1]

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه عمّا أجاب به المؤمنون المنافقين؛ أي: بلى كنتم معنا في الظاهر، وعملتتم مثل عملنا، ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق وإبطان الكفر، وبالشهوات واللذات، وتربصتم بمحمد ﷺ وبمن معه من المؤمنين حوادثَ الدهر، وقيل تربصتم بالتوبة؛ وشككتم في أمر الدين، ولم تصدّقوا ما نزل من القرآن، ولا بالمعجزات الظاهرة، وغرّتكم الأماني الباطلة التي من جملتها ما كنتم فيه من التربص بالمؤمنين، وطول الأمل، حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحالة الذميمة، فخدعكم بالله الشيطان.[2]

قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله، ما قُبل منه، فالنّار مصيركم، وإليها منقلبكم؛ وهي أولى بكم من كلّ منزل على كفركم وارتيابكم.[3]

الدلالات العقدية.

قد تضمن كلام أهل الإيمان في هذه الآيات على ما يلي:

إثبات حكم الإسلام في الظاهر للمنافق.

إنّ قوله تعالى مخبرا عن أهل الإيمان: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ لـمّا قال لهم المنافقون ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ دليل على أنّ المنافق – وإن كان كافرا في الباطن – يحكم له في الظاهر بالإسلام، ويعامل معاملة أهل الإسلام، حيث أنّ المؤمنين أثبتوا بقولهم: «بلى» أنّ المنافقين كانوا في الدنيا من جملتهم.

ومما استدل به العلماء رحمهم الله على إسلام المنافق ظاهرا قوله ﷺ :

---

(١) ينظر فتح القدير (٥/٢٤١).

(٢) ينظر فتح القدير (٥/٢٤١)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٨٠٣).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤/٢٨١٩).

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله؛ فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقّه، وحسابه على الله).[١]

قال الحافظ ابن كثير رحمه:« ومعنى هذا أنّ من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهرا، فإن كان يعتقدها؛ وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه في الآخرة جريان الحكم عليه في الدنيا، وكونه خليط أهل الإيمان».[٢]

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «و المنافقون هم في الظاهر مسلمون؛ وقد كان المنافقون على عهد النبي ﷺ يلتزمون أحكام الإسلام الظاهرة -لا سيما في آخر الأمر - ما لم يلتزمه كثير من المنافقين الذين من بعدهم؛ لعزّ الإسلام وظهوره إذ ذاك بالحجة والسيف».[٣]

وقال رحمه الله في موضع آخر:« والمقصود أنّ الناس ينقسمون في الحقيقة إلى مؤمن، ومنافق كافر في الباطن مع كونه مسلما في الظاهر، وإلى كافر باطنا وظاهرا».[٤]

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/١٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٤٦٩).

(٤) المصدر نفسه (٧/٤٧١).

المطلب الثالث: دعاؤهم على الكفّار باللعنة.

إنّ من الأقوال التي تصدر من أهل الإيمان في الموقف دعاؤهم اللعنة من الله على الكفّـــار؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ .(١)

الشرح:

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾أي: لا أحد أظلم منهم لأنفسهم، لأنهم افتروا على الله كذبا، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أنّ له شريكا وولدا، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾أي: فيحاسبهم على أعمالهم.(٢)

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ الأشهاد قيل:هم الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلغوا الرسالات.(٣)وقيل: هم جميع الخلائق.(٤) والمعنى أنهم يقولون: يا ربنا أتيناهم بالحق فكذّبوا، فنحن نشهد عليهم أنهم كذبوا عليك.(٥)

قوله تعالى: ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾هذا من تمام كلام الأشهاد: أي يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم؛ ويقولون أيضا: ألا لعنة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء. والفائدة في قول الأشهاد بهذه المقالة المبالغة في فضيحة الكفار، والتقريع لهم على رؤوس الأشهاد.(٦)

---

(١) سورة هود الآية (١٨).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٩/٩).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ينظر فتح القدير (٧٠٨/٢).

(٥) ينظر تفسير الطبري(٢١/٧).

(٦) ينظر فتح القدير (٧٠٨/٢).

المبحث الخامس: أقوال بعض عصاة أهل التوحيد في الموقف.

إنّ من الأقوال التي صدرت عن أهل الإيمان في الموقف تلك المخاطبات التي أخبر الله تعالى أنها ستجري من بعض عصاة الموحّدين؛ من أهل الرياء؛ وأصحاب الأعراف؛ وفي المطلبين التاليين ذكر أقوال هذا الصنف من المسلمين مع دراستها، بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: أقوال أهل الرياء.

إنّ أهل الرياء في الأعمال والأقوال من المسلمين ممن ثبت لهم في السنة أقوال في الموقف.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:(إنّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحبّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت؛ ولكنك فعلت ليقال: هو جواد؛ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار).(١)

وفي رواية: (إنّ الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكلّ أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ ألم أعلّمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا ربّ، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له كذبت، وتقول له الملائكة كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إنّ فلانا قارئ، فقد قيل ذاك.

ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله له: ألم أوسّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا ربّ قال فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدّق؛ فيقول الله له كذبت، وتقول له الملائكة كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة،باب من قاتل للرياء والسمعة دخل النار،برقم (١٩٠٥).

فقد قيل ذاك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له فيما ذا قتلت؟ فيقول :أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت،فيقول الله تعالى له كذبت، وتقول له الملائكة كذبت؛ ويقول الله:بل أردت أن يقال فلان جريء، فقد قيل ذاك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال:يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعّر بهم النار يوم القيامة).[1]

الشرح.

قوله ﷺ « أول ما يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد» قال العلماء رحمهم الله:قد يسبق إلى الفهم أنّ الأحاديث في الأولية متعارضة، وليس كذلك؛ لأنه لم يُرَد بكل منها أنه أول بالنسبة إلى كل ما يُسأل عنه، ويقضى فيه، بل أريد أنه أوّل بالنسبة إلى بابه، فأول ما يحاسب به من أركان الإسلام الصلاة، وأول ما يحاسب به من المظالم الدماء، وأول ما يحاسب به مما ينتشر به صيت فاعله هذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذا الحديث.[2]

وفي الحديثين دليل على تغليظ تحريم الرياء، وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال؛ وفيهما أيضا:أنّ العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصا، وكذلك الثناء على العلماء، وعلى المنفقين في وجوه الخيرات؛ كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصا.[3]

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة، برقم (٢٣٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦/١) برقم (٢٢).

(٢) ينظر الديباج (٥٠٠/٤).

(٣) ينظر تحفة الأحوذي (٤٧/٧-٤٨).

المطلب الثاني: أقوال أهل الأعراف.

إنّ من الأقوال التي حكاها الله سبحانه في القرآن الكريم عن بعض عصاة أهل التوحيد أيضا أقوال أهل الأعراف.

والأعراف في اللغة:جمع، واحدها عُرْف؛ وهو كل مرتفع من الأرض؛ وإنما قيل لعرف الديك عرفٌ لارتفاعه على ما سواه من جسده.(١)

أمّا في الشرع فقد قال ابن عباس ﷺ:« الأعراف تلّ بين الجنة والنار، حُبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار»وفي رواية عنه أيضا أنه قال:« هو سور بين الجنة والنار».(٢)

وقد قيل إنه سمّي أعرافا لأنّ أصحابه يعرفون الناس.(٣)

«واختلف أهل العلم والمفسّرون من هم أصحاب الأعراف، وما أعمالهم؟

والصحيح في ذلك؛ أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثمّ إنّ الله تعالى يدخلهم الجنة برحمته، فإنّ رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء».(٤)

ومما استُدِل به على هذا ما روي عن النبي ﷺ أنّه سئل عن أصحاب الأعراف؟ فقال: (هم آخر من يُفصَل بينهم من العباد، فإذا فرغ ربّ العالمين من الفصل بين العباد قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم).(٥)

أمّا أقوال أهل الأعراف فقد أخبر الله تعالى منها ما يلي:

---

(١) ينظر تفسير الطبري(٤٩٧/٥)، ومعاني القرآن للنحاس (٤٠/٣)،والتبيان في تفسير غريب القرآن ص (٢٠٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١١٦٨/٢)؛ وينظر مفردات القرآن ص(٩٦٩).

(٣) ينظر الدر المنثور (٤٦٠/٣)، وفتح القدير (٣٠٣/٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص (٢٦٨).

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦٣/٣)، وقال الحافظ ابن كثير: «وهذا مرسل حسن » تفسير القرآن العظيم (١١٦٩/٢).

١- قولهم: ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هذا جزء من آية يقول فيها الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . (١)

الشرح:

أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له الأعراف، لا من الجنة، ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر مَنْ عليه حال الفريقين، ويعرفون كلاّ من أهل الجنة وأهل النار بعلاماتهم؛ فكلّما رأوا أهل الجنة طمعوا أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيّونهم ويسلّمون عليهم؛ وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم أو مرّت بهم زمرة تُذهب بها إلى النار استجاروا بالله منها ومن حال أهلها.(٢)

٢- مخاطباتهم لأهل النار.

ومما حكى عنه الله تعالى أيضا من أقوال أهل الأعرف مخاطباتهم لأهل النّار.

قال الله تعالى:

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .(٣)

الشرح:

يقول الله تعالى مخبرا عن تقريع أهل الأعراف لرجالٍ من صناديد المشركين وقادتهم إذا رأوهم في النار، وهم منفردين في العذاب بلا ناصر ولا مغيث؛ فيقولون لهم تقريعا: لم ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال.(٤)

---

(١) سورة الأعراف الآية (٤٦-٤٧).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (١١٧٠/٢)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٢٦٧).

(٣) سورة الأعراف الآية (٤٨-٤٩).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (١١٧٠/٢).

ثم زادوا في التقريع أن أشاروا لهم إلى أناس كان هؤلاء المستكبرين يسخرون منهم في الدنيا، ويقولون إنهم لا ينالهم رحمة الله احتقارا وازدراء بهم، وإعجابا بأنفسهم- أنهم في الجنة آمنون مطمئنون، فرحون بكل خير.[١]

وهذا آخر ما تيسّر جمعه ودراسته من أقوال أهل الإيمان في الموقف؛ والله نسأل أن يجعلنا عن مخاوف ذلك الموقف العظيم من الآمنين، ومن حوض نبيه من الواردين الشاربين، وعند الحساب من الفائزين المفلحين، وعلى الصراط من المجيزين الناجين ؛ وإلى الجنة من الداخلين.

هذا والحمد لله في البدء والختام؛ وصلى الله وسلّم على عبده ورسوله خير الأنام.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص (٢٦٧).

الباب الثالث: أقوال الكفّار في الموقف، ودلالاتها العقدية.

إنّ نصوص الكتاب والسنة- كما أخبرت عن الأقوال التي تصدر عن أصناف أهل الإيمان من الأنبياء والملائكة وغيرهم من أفراد المؤمنين في الموقف- فقد سجّلت وحكت كذلك ما سيجري لأصناف الكفّار من مخاطبات في عرصات القيامة.

فذكرت المخاطبات التي تجري لعامّة أهل الكفر في ذلك اليوم؛ وبيّنت كذلك ما سيجري للمنافقين واليهود والنصارى من مخاطبات.

وفي الفصلين التاليين ذكر ما تيسّر جمعه من هذه الأقوال مع دراستها- بإذن الله تعالى.

الفصل الأول: أقوال عامة الكفار في الموقف.

إنّ هناك جملة من الأقوال أخبرت النصوص من الكتاب والسنة أنها تصدر عن عامّة الكفّار في أرض الموقف.

منها ما يخاطبون بها الربّ سبحانه وتعالى ينفون في بعضها إشراكهم بالله، ويقرّون في بعضها إبلاغ الرسل، وفي بعضها يستغربون في الصفة التي حشروا بها.

ومنها ما يخاطب بها بعضهم لبعض، كمخاصمتهم في أرض الموقف، ولعن بعضهم بعضا.

ومنها ما تخاطبوا بها فيما بينهم يستقصرون مدة بقائهم في الدنيا.

ومنها أيضا تلك المخاطبات خاطبوا بها جلودهم وأعضاءهم بعدما شهدت عليهم، وحكت ما كان منهم في الدنيا من أعمال وأقوال وممارسات.

إلى غير ذلك مما سيصدر من عموم الكفّار في ذلك اليوم؛ من تمنيات واعترافات، والمباحث التالية محلّ ذكر هذه الأقوال، مع بيان ما فيها من دلالات عقدية- بإذن الله تعالى.

المبحث الأول: مخاطباتهم للرب سبحانه في الموقف.

إنّ مّما جرى للكفّار من مخاطبات مع الربّ سبحانه في موقف القيامة ما صدر منهم من أقوال ينفون في بعضها شركهم بالله؛ ويقرّون في البعض الآخر بأنّ الرسل قد بلّغوا إليهم ما أرسلوا به من الله، وغير ذلك مما سيتم إيراده مع الدراسة في المطالب التالية.

المطلب الأول: نفيهم الإشراك بالله تعالى.

إنّ مما حكى الله سبحانه من أقوال الكفّار في الموقف تنصّلهم عن الشرك به، ونفيهم ذلك عن أنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾.(١)

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يخبر الله تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يسألون عن الأنداد التي كانوا يعبدونها من دون الله توبيخا لهم.(٢)

وقُصِد من قوله تعالى: ﴿جَمِيعاً﴾ التنبيه على أنّ الضمير عائد إلى المشركين وأصنامهم.

والمقصود من حشر أصنامهم معهم أن تظهر مَذلّة الأصنام، وعدم جدواها؛ كما يحشر الغالب أسرى قبيلة ومعهم من كانوا ينتصرون به، لأنهم لو كانوا غائبين لظنّوا أنهم لو حضروا لشفعوا، أو أنهم شُغِلوا عنهم بما هم فيه من الجلالة والنعيم.(٣)

وأضيف الشركاء في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾ إلى ضمير المخاطبين إضافة اختصاص؛ لأنهم هم الذين زعموا لهم الشركة مع الله في الإلهية، فلم يكونوا شركاء إلاّ في اعتقاد المشركين فلذلك أضافها إليهم.(٤)

---

(١) سورة الأنعام الآية (٢٢-٢٣).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٠٤٨/٢)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٢١٣).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧٤/٧).

(٤) ينظر زاد المسير (١٦/٣)، والتحرير والتنوير (١٧٥/٦).

وقوله: ﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: أنهم شركاء مع الله، وأنها تشفع يوم القيامة.[١]

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ في قوله: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أنها بمعنى الكلام والقول؛ أي لم يكن قِيلهم وكلامهم عند فتنتنا إيّاهم.

والثاني: أنها بمعنى المعذرة، أي: لم تكن معذرتهم.

والثالث: أنها بمعنى البلية؛ أي: لم تكن بليتهم التي ألزمتهم الحجة، وزادتهم لائمة.

والرابع: أنها بمعنى الافتتان؛ والمعنى لم تكن عاقبة فتنتهم.[٢]

وذِكْرُهم الرّب سبحانه بالإضافة إلى ضميرهم في قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ مبالغةٌ في التنصّل من الشرك؛ أي: لا ربّ لنا غيره.[٣]

والمراد: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال؛ إلاّ إنكارهم لشركهم، وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين.[٤]

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ المشركين إذا رأوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى وتجاوزه عن أهل التوحيد، قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلّنا ننجوا مع أهل التوحيد؛ فيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالكفر.[٥]

---

(١) ينظر زاد المسير (٣/١٦).

(٢) ينظر زاد المسير (٣/١٦)، وتفسير القرآن العظيم (٢/١٠٤٨).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (٧/١٧٧).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٢٣١).

(٥) ينظر الدر المنثور (٢/٥٤٣)، وتفسير البغوي (٢/٧٤)، وتفسير القرآن العظيم (٢/١٠٤٨).

الدلالات العقدية.

لقد تضمن قوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ بما يلي:

- أنّ الكذب يجري على لسان بعض الناس في الموقف.

إنّ ممّا يدلّ عليه قوله تعالى على لسان المشركين: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أنّ من أهل المعاصي من الكفّار والمنافقين وأصحاب الكبائر مَن يكذب على الله في بعض فترات يوم القيامة؛ ظنّا منه أنّ ذلك ينجيه في ذلك اليوم كما كان ينجوا به في الدنيا، كما ذكر الله تعالى عن المنافقين في قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.(١)

أي: أنّ المنافقين يحلفون بالله أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا، لأنّ من عاش على شيء مات عليه، وبعث عليه؛ ويعتقدون أنّ ذلك ينفعهم عند الله تعالى كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة، ثم قال تعالى منكرا عليهم حسبانهم: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.(٢)

وكما ذكر النبي ﷺ ذلك عن بعض أهل الكبائر من أهل الرياء والسمعة في قوله ﷺ (إنّ الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكلّ أمة جاثية، فأوّل من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلّمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا ربّ، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إنّ فلانا قارئ، فقد قيل ذاك.

ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله له: ألم أوسّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا ربّ، قال فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدّق؛ فيقول الله له: كذبت، وتقول له: الملائكة كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذاك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فيما ذا قتلت؟ فيقول: أمرت

---

(١) سورة المجادلة الآية (١٨).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤/٢٨٤٢).

بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت،فيقول الله تعالى له كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت؛ ويقول الله:بل أردت أن يقال فلان جريء، فقد قيل ذاك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعّر بهم النار يوم القيامة).[١]

والمقصود إثبات أنّ الكذب يقع من بعض الناس في ذلك اليوم إلاّ أنه لا يجدي، ولا ينفع، إذ الجبّار خبير، والكتب محضرة، والشهداء متوافرون. ولذا قال تعالى واصفا ذلك اليوم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾.[٢]أي: ذلك هو يوم الحق الذي لا يروج فيه الباطل، ولا ينفع فيه الكذب.[٣]

«ولا مانع من صدور الكذب مع ظهور الحقيقة يومئذ؛ لأنّ الحقائق تظهر لهم وهم يحسبون أنّ غيرهم لا تظهر له، ولأنّ هذا إخبار منهم عن أمر غائب عن ذلك اليوم فإنهم أخبروا عن أمورهم في الدنيا».[٤]

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد باب ما جاء في السمعة والرياء، برقم (٢٣٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦/١) برقم (٢٢).

(٢) سورة النبأ الآية (٣٩).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٨٦٨).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧٧/٧).

المطلب الثاني: إقرارهم بإبلاغ الرسل.

إنّ ممّا أخبر الله به أيضا من أقوال الكفّار في الموقف العظيم إقـــرارهم بمجـــيء الرســـل، وإبلاغهم للأمم جميع ما أرسلوا به؛ قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ .(١)

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ هذا أيضا مما يُقرع الله به كافري الجنّ والإنس يوم القيامة؛ حيث يسألهم -وهو أعلم: هل بلغتـــهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهام تقرير.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ ﴾ أي: من جملتكم؛ إذ الرسل من الإنس فقط، وليس مـــن الجنّ رسل كما قد نصّ على ذلك غير واحد من الأئمة من السلف والخلف.(٢)

قال ابن عباس:« الرسل من بني آدم ومن الجن نذر».(٣)

وقوله تعالى: ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي: يقرؤون عليكم آياتي الواضحات، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي، والخير والشر، والوعد والوعيد؛ وينذرونكم لقـــاء يـــوم القيامة، ويعلّمونكم أنّ النجاة فيه والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأنّ الشقاء والخسران في تضييع ذلك.(٤)

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي: أقررنـــا أنّ الرســـل قـــد بلّغونـــا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأنّ هذا اليوم كائن لا محالة.(٥)

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٣٠).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (١١١٤/٢).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ينظر تفسير البغوي (١٠٨/٢)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٢٥١).

(٥) ينظر تفسير القرآن العظيم (١١١٥/٢)، وفتح القدير (٢٣٦/٢).

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين في الدنيا بالرسل المرسلين إليهم والآيات التي جاءوا بها. وهذا يدلّ على أنّ الكفّار يقرّون في بعض مواطن القيامة، وينكرون في بعضها.(١)

الدلالات العقدية.

يشتمل قوله تعالى حكاية عن الكفّار ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ على ما يلي من الدلالات العقدية:

الأولى: إثبات عدله تعالى وأنه لا يعذّب إلاّ بعد قيام الحجة وإرسال الرسل.

إنّ في قول الكفّار: ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ اعترافا منهم وإقرارا بأنّ الرسل قد بّلغوهم رسالات الله تعالى، وأنذروهم لقاء يوم القيامة؛ وفي ذلك دلالة على عدله تعالى في خلقه، وأنه تعالى لا يهلك الأمم أو يعذّبهم في الدنيا أو في الآخرة، دون التنبيه والتذكير بالرسل، فيكون قد ظلمهم؛ فهو تعالى أجرى السنة على أنّه لا يأخذ أحدا إلا بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنبا إذا أُمر فلم يأتمر، أو نُهي فلم ينته، وذلك يكون بعد إنذار الرسل عليهم السلام.(٢)

قال الله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.(٣) أي: وما كنا مهلكي قوم إلاّ بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم.(٤)

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

«فإنّ الكتاب والسنة قد دلت على أنّ الله لا يعذّب أحدا إلاّ بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذّبه رأسا، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل، لم يعذبه إلاّ على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية».(٥)

---

(١) ينظر فتح القدير (٢٣٦/٢).

(٢) ينظر تفسير البغوي (١٠٩/٢).

(٣) سورة الإسراء الآية (١٥).

(٤) ينظر تفسير الطبري (٥٠/٨).

(٥) مجموع الفتاوى (٤٩٣/١٢).

وقال الشاطبي[١] رحمه الله تعالى:

«جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد إرسال الرسل، فإذا قامت الحجة عليهم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ولكل جزاء مثله».[٢]

الثانية: اتّفاق الرسل عليهم السلام في الإنذار بلقاء الله يوم القيامة.

إنّ قول عامّة الكفار في الموقف﴿ شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ﴾ بعد قوله تعالى لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ دليل على أنّ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه اتّفقوا في إنذار أممهم بلقاء الله تعالى، وأنّ الشرائع السماوية اتفقت في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، بل كانت الدعوة إلى الإيمان به من أول ما يقرع به الرسل آذان قومهم.

قال الله سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.[٣] أي: عذاب يوم القيامة.[٤]

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام في ذكره لقومه خصائص الرب سبحانه: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾.[٥]

﴾.[٥]

وقال عنه مخبرا عن دعائه عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.[٦] أي: أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أوّلهم وآخرهم.(٧)

وقال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.[١]

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي محدث فقيه أصولي لغوي توفي سنة ٧٩٠هـ وله مؤلفات نفيسة. انظر: شجرة النور في طبقات المالكية، ص (٢٣١) وإيضاح المكنون للبغدادي (١٢٧/٢).ومعجم المؤلفين (١١٨/١) والأعلام (٧٥/١).

(٢) الموافقات (٣٧٧/٣).

(٣) سورة الأعراف الآية(٥٩).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٤٣٢/٣).

(٥) سورة الشعراء الآية(٨٢).

(٦) سورة الشعراء الآية (٨٧-٨٩).

(٧) انظر تفسير ابن كثير(١٤٨/٦).

وقال تعالى لـــمّا نادى عبده موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ .(٢)

وقال حكاية عن أحد أتباع موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ .(٣)

وقال تعالى عن سحرة فرعون بعد إيمانهم: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلا (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ .(٤)

قال الحافظ ابن كثير(٥) رحمه الله بعد ذكر هذه الآيات:« الظاهر من السياق أنّ هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغّبونه في ثوابه الأبدي المخلد».(٦)

ومما يؤكّد على اتّفاق الرسل بالإنذار بهذا اليوم اتّفاقهم بالإخبار عن بعض أشراطه؛ فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

(كنّا تنحدّث بحجة الوداع والنبي ﷺ بين أظهرنا، ولا ندري ما حجة الوداع، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره، وقال: ما بعث الله من نبي إلا أنذره أمته، أنذره نوح والنبيون من بعده، وإنه يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه، فليس يخفى عليكم أنّ ربكم ليس على ما يخفى عليكم - ثلاثا - إنّ ربكم ليس بأعور؛ وإنه أعور العين اليمنى ،كأن عينه عنبة طافية).(٧)

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٣٦).

(٢) سورة طه (١٤-١٦).

(٣) سورة غافر الآية (٣٨-٣٩).

(٤) سورة طه الآية (٧٢-٧٦٥).

(٥) سبقت ترجمته.ص (٧٠).

(٦) تفسير القرآن العظيم (١٨٧٤/٣).

(٧) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي ، باب حجة الوداع، برقم (٤٤٠٢).

المطلب الثالث: استغرابهم لصفة حشرهم.

إنّ ممّا خاطب به الكفّار الربّ سبحانه وتعالى في الموقف ما صدر منهم من أقوال يستغربون فيها من الصّفة التي حشروا عليها؛ لمخالفتها للصفة التي كانوا عليها في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾.[١]

الشرح:

قوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ أي: من خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، وأعرض عنه، وتناساه، وأخذ من غيره هداه فإنّ له حياة شقاءٍ في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيّق حرج لضلاله؛ وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإنّ قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى؛ فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد؛ فهذا من ضنك المعيشة.[٢]

وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ أي: يُحشر أعمى البصر، وأعمى عن الحجة، لأنّ الله عمّم و لم يخصص عمىً دون عمى.[٣] وقيل: أعمى في حال وبصيرا في حال.[٤]

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ أي: يقول هذا المعرض على وجه الذلّ والمراجعة والضجر من هذه الحالة: ربّ لم حشرتني أعمى؛ وقد كنت في دار الدنيا بصيرا؟ فما الذي صيّرني إلى هذه الحال البشعة؟.[٥]

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، وتناسيتها، وأعرضت عنها، وأغفلتها،

---

(١) سورة طه الآية (١٢٤-١٢٦).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٨٨٦/٣).

(٣) ينظر تفسير الطبري (٤٦٩/٨).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٢٢٩/١١).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٤٨٨).

كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك، فإنّ الجزاء من جنس العمل.(١)
والجمع بين هذه الآية وبين الآيات التي فيها إثبات إدلاء الكفّار بحججهم، وإثبات رؤيتهم الأشياء هو ما قيل مِن أنّ لِيوم القيامة حالات ومواطن؛ تختلف فيها صفاتهم ويتنوّع عندها عذابهم.(٢)

الدلالات العقدية:

قد تضمن ما حكاه الله تعالى عن المعرض عن ذكره في هذه الآيات ما يلي:

-إثبات اختلاف الناس في الصفات التي يحشرون فيها.

إن قوله تعالى حكاية عن المعرض عن ذكره: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ دليل على أن الخلق يحشرون يوم القيامة على صور شتى وصفات متباينة تكون غالبا من جنس أعمالهم وأخلاقهم في الدنيا، لأنّ الجزاء من جنس العمل.(٣)
وقد ورد في نصوص من الكتاب والسنة صفات أخرى في حشر الكفار وبعض العصاة، منها ما ورد في أنّ المجرمين يحشرون على وجوههم.
قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾.(٤)
وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.(٥)
وعن أنس بن مالك ﷺ أنّ رجلا قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة).(٦)
ومنها ما ثبت أنّ المتكبرين يحشرون أمثال الذر؛ فقد روى الترمذي في سننه أنّ النبي ﷺ

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٨٨٧/٣).
(٢) ينظر فتح القدير (٥٥١/٣).
(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٨٨٧/٣).
(٤) سورة الإسراء الآية (١٧).
(٥) سورة الفرقان الآية (٣٤).
(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ برقم (٤٧٦٠).

قال: (يحشر المتكبّرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صور الرجال، يغشاهم الذلّ من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنّم يسمى بولس، تعلوهم نارالأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال).[١]

أي أنّ المتكبرين يحشرون على أمثال النمل الأحمر في الصغر والحقارة؛ ويكونون في غاية من المذلة والنقيصة، يطأهم أهل الحشر بأرجلهم من هوانهم على الله.[٢]

«والتحقيق أنّ الله يعيدهم عند إخراجهم من قبورهم على أكمل صورهم وجمع أجزائهم المعدومة تحقيقا لوصف الإعادة على وجه الكمال ثم يجعلهم في موقف الجزاء على الصورة المذكورة إهانة وتذليلا لهم جزاءا وفاقا».[٣]

وكذلك ورد في صفة حشر أهل الإيمان نصوص؛ منها قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير[٤] رحمه الله

« يخبر تعالى عن أوليائه المتّقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتّبعوا رسله، وصدّقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عمّا عنه زجروهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه؛ والوفد هم القادمون ركبانا، ومنه الوفود؛ وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه؛ وأمّا المجرمون المكذّبون للرسل، المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفا إلى النار عطاشا».[٥]

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، برقم (٢٤٩٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٢٠٤)، برقم (٢٠٢٥).

(٢) ينظر تحفة الأحوذي (٧/١٦٢-١٦٣).

(٣) تحفة الأحوذي (٢/١٦٤).

(٤) سبقت ترجمته.ص (٧٠).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/١٨٤٤).

وقال علي بن أبي طالب ﷺ :«ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها الذهب ونجائب سرجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت».(١)

وفي رواية: أنه ﷺ قرأ هذه الآية ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾ فقال:

« أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم، ولا يساقون سوقا، ولكنّهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم تنظر الخلائق إلى مثلها، عليها رحال الذهب، وأزمّتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يطرقوا باب الجنة».(٢)

والمقصود إثبات اختلاف الناس في الصفات التي يحشرون عليها على حسب أعمالهم التي قدّموها.

قال الإمام القرطبي(٣) رحمه الله تعالى:

«إنّ الناس إذا أُحيوا و بُعثوا من قبورهم فليست حالهم حالة واحدة و لا موقفهم و لا مقامهم واحدا؛ و لكن لهم مواقف و أحوال».(٤)

---

(١) تفسير البغوي (١٧٥/٣).

(٢) الدر المنثور (٥٣٩/٥).

(٣) سبقت ترجمته.ص (٢٤).

(٤) التذكرة (٥٢٨/٢).

المطلب الرابع: مخاطبة أولياء الجنّ من الإنس مع الرب سبحانه.

إنّ مما ثبت للكفّار في الموقف من المخاطبات ما خاطب به أولياءُ الجنّ من الإنس الـــربَّ سبحانه وتعالى معتذرين ممّا كان منهم من الطاعة للجن، والاستمتاع بهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنْ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنْ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .[1]

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ يقول تعالى: واذكر يا محمد فيما تقصّه عليهم، وتنذرهم به يومَ نحشر الجنّ وأولياءهم من الإنس؛ الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهـــم، ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.[2]

وقوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنْ الإِنسِ ﴾ أي: ثم نقول: يا معشر الجن قد استكثرتم من إغواء الإنس وإضلالهم؛ حتى صاروا في حكم الأتباع لكم.[3]

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنْ الإِنسِ ﴾ يعني: أولياء الشياطين الذين أطاعوهم من الإنس.[4]

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ استمتاع الجنّ من الإنس هو أنهم تلذّذوا بطاعة الإنـــس إيّاهم، وتلذّذ الإنس بقبولهم من الجن؛ حتى زنوا، وشربوا الخمر بإغواء الجن إياهم.

وقيل: كان الرجل إذا مرّ بواد في سفره؛ وخاف على نفسه؛ قال: أعوذ برب هذا الوادي من جميع ما أحذر؛ فهذا استمتاع الجن بالإنس؛ وأمّا استمتاع الإنس بالجن فهو ما كانوا يلقونه إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر. وقيل: استمتاع الجن بالإنس هو زعمهـــم أنّ الجن يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون.[5]

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٢٨).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (١١١٣/٢).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (١١١٣/٢)، فتح القدير(٢٣٤/٢).

(٤) ينظر تفسير البغوي (١٠٧/٢).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٧٥/٧).

قال ابن القيم رحمه الله:« يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر؛ فاستمتاع الجنّ بالإنس: طاعتهم لهم فيما يأمروهم به من الكفر والفسوق والعصيان؛ فإنّ هذا أكثر أغراض الجنّ من الإنس، فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مُنَاهم، واستمتاع الإنس بالجنّ: أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى، والشرك به بكل ما يقدرون عليه: من التحسين، والتزيين، والدعاء، وقضاء كثير من حوائجهم، واستخدامهم بالسحر والعزائم وغيرها، فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم: من الشرك والفواحش والفجور، وأطاعتهم الجنّ فيما يرضيهم: من التأثيرات والإخبار ببعض المغيبات؛فتمتع كل من الفريقين بالآخر».[1]

وقوله تعالى: ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أي:يوم القيامة؛ وهذا اعتراف منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به مما كانوا يكذّبون به.[2]وقيل المراد بقوله:﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ الموت.

وإنما أجاب الإنس و لم يكونوا هم المخاطبين بالتوبيخ؛ لأنهم أرادوا الاعتذار عن أوليائهم من الجنّ، ودفع التوبيخ عنهم؛ بأنّ الجن لم يكونوا هم المستأثرين بالانتفاع بتطويع الإنس؛ بل نال كل من الفريقين انتفاعا بصاحبه.

وهؤلاء المعتذرون يحتمل أنهم أرادوا مشاطرة الجناية إقرارا بالحقّ، وإخلاصا لأوليائهم؛ أو أرادوا الاعتذار عن أنفسهم لِما علموا مِن أنّ توبيخ الجنّ المغوِين منذر بتوبيخ المغوَين؛ فأقرّوا واعتذروا بأنّ ما فعلوه لم يكن تمرّدا على الله، ولا استخفافا بأمره، ولكنه كان لإرضاء الشهوات من الجانبين.

وقد اقتُصر على حكاية جواب الإنس لأنّ الناس المشركين هم المقصود من الموعظة بهذه الآية.[3]

ومعنى الآية تقريع الضالّين والمضلين؛ وتوبيخهم في الآخرة على أعين العالمين.[4]

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٢٣٧).

(٢) ينظر فتح القدير (٢/٢٣٤).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (٨/٦٩).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٧/٧٥).

وقوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: قال الله النار مقامكم، ماكثين فيه مكثا أبديا.[١]

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ اختلف في المراد بهذا الاستثناء؛ فقيل: أراد إلاّ قدر مدة ما بين بعثهم إلى دخولهم جهنم؛ يعني : هم خالدون في النار إلا هذا المقدار.

وقيل: الاستثناء يرجع إلى العذاب؛ أي: خالدون في عذاب النّار سوى ما شاء الله من أنواع العذاب. وقيل: الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار؛ و«ما» بمعنى«من» على هذا التأويل.[٢]

ولّما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه؛ ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .[٣]

الدلالات العقدية.

إنّ قول أولياء الجنّ من الإنس في هذه الآية يتضمن ما يلي من الدلالات العقدية:

الأولى:إثبات وقوع الاستمتاع بين الجن والإنس.

إنّ قوله تعالى على لسان أولياء الجنّ من الإنس: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ دليل على إمكانية وجود علاقة بين الجنّ والإنس، واستفادة بعضهم من بعض؛ واستمتاع كلّ من الجنسين بالآخر، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أنواعا كثيرة ممّا يستمتع به كلّ جنس منهما من الآخر؛ فقال:

الاستمتاع بالشيء هو أن يتمّتع به فينال به ما يطلبه ويريده ويهواه؛ ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم ببعض، ومن ذلك الاستمتاع بالفواحش؛ كاستمتاع الذّكور بالذّكور، والإناث بالإناث؛ ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام في الرياسة؛ كما يتمتّع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم، ويدخل في ذلك الاستمتاع بالأموال.

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم، وهؤلاء لهؤلاء في أغراضهم، فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال، أو قتل عدوّه، والإنس تطيع الجنّ؛ فتارة تسجد له، وتارة تسجد لما يأمره بالسجود له، وتارة تمكّنه من نفسه فيفعل به الفاحشة؛ وكذلك الجنيات؛ منهنّ من يريد

---

(١) ينظر تفسير البغوي (١٠٨/٢)، وتفسير القرآن العظيم (١١١٣/٢).

(٢) ينظر تفسير البغوي (١٠٩/٢).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٢٥١).

من الإنس الذي يخدمه ما يريد نساء الإنس من الرجال؛ وهذا كـــثير في رجـــال الجـــنّ ونسائهم، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسيّ، وقـــد يفعـــل ذلـــك بالذكران.

ومن استمتاع الإنس بالجنّ استخدامهم في الإخبار بالأمور الغائبة؛ كما يخبر الكهّان؛ فإنّ في الإنس من له غرض في هذا لِما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك؛ فإن كان القوم كفّارا -كما كانت العرب- لم تبال بأن يقال إنه كاهن؛ وإن كان القـــوم مســـلمين لم يُظهر أنّه كاهن؛ بل يجعل ذلك من باب الكرامات، وهو من جنس الكهّان؛ فإنّ الجنّيّ لا يخدم الإنسيّ بهذه الأخبار إلاّ لِما يستمتع به من الإنسيّ؛ بأن يطيعه الإنسيّ في بعض مـــا يريده؛ إمّا في شرك، وإمّا في فاحشة، وإمّا في أكل حرام، وإمّا في قتل نفس بغير حقّ.

ومن استمتاع الإنس بالجنّ أيضا استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبونه؛ من مال وطعام وثياب ونفقة؛ فقد يأتون ببعض ذلك، وقد يدلّونه على كنز وغيره.

ومن استمتاع الإنس بالجن كذلك استخدامهم فيما يطلبه الإنس من الشرك؛ فتارة يتمثّل الجني في صورة الإنسي، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه، فظن أنّه الشيخ نفسُه؛ وتـــارة يكون التّابع قد نادى شيخه وهتف به؛ يا سيدي فلان فينقل الجنّيّ ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسيّ؛ حتى يظنّ الشيخ أنه صوت الإنسيّ بعينه؛ ثمّ إنّ الشيخ يقول: نعـــم؛ ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل، فيظن ذلـــك الشخص أنه شيخه نفسه، وهو الذي أجابه وفَعل ذلك؛ حتى إنّ تابِعَ الشيخ قد يكون يده في إناء يأكل فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ، ويأخذ من الطعام، فيظن ذلك التابع أنّ شيخه حاضرٌ معه، والجني يمثّل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء، فيضع يده فيه، حتى يظـــن الشيخ أنّ يده في ذلك الإناء، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أنّ يدي كانت في الإنـــاء، فيصدّقه ويكون بينهما مسافة شهر، والشيخ في موضعه، ويده لم تَطُل، ولكن الجني مثّـــل للشيخ، ومثّل للمريد حتى ظنّ كلّ منهما أنّ أحدهما عند الآخر؛ وإنما كان عنده ما مثّله الجني وخيّله.

وفي الجملة فإنّ استمتاع الإنس بالجنّ والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس.(١)
وقال رحمه الله:

« فالجن والإنس قد استمتع بعضهم ببعض؛ فاستخدم هؤلاء هؤلاء؛ وهؤلاء هؤلاء في أمور كثيرة، كلّ منهم فعل للآخر ما هو غرضه، ليعينه على غرضه، والسحر والكهانة من هذا الباب، وكذلك ما يوجد لعبّاد الكفّار من المشركين وأهل الكتاب، ولعبّاد المنافقين والملحدين من المظهرين للإسلام والمبتدعين منهم، كلها بإعانة الجنّ والشياطين، لكن الشياطين تظهر عند كل قوم بما لا ينكرونه؛ فإذا كان القوم كفّارا لا ينكرون السحر والكهانة- كما كانت العرب وكالهند والترك المشركين- ظهروا بهذا الوصف لأنّ هذا معظّم عند تلك الأمة؛ وإن كان هذا مذموما عند أولئك-كما قد ظهر ذمّ هؤلاء عند أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى- أظهرته الشياطين فيمن يظهر العبادة، ولا يكون مخلصا لله في عبادته، متبعا للأنبياء، بل يكون فيه شرك ونفاق وبدعة، فتظهر له هذه الأمور التي ظهرت للكهّان والسحرة، حتى يظن أولئك أنّ هذه من كرامات الصالحين، وأنّ ما هو عليه هذا الشخص من العبادة هو طريق أولياء الله- وإن كان مخالفا لطريق الأنبياء- حتى يعتقد من يعتقد أنّ لله طريقا يسلكها إليه أولياؤه غير الإيمان بالأنبياء وتصديقهم، وقد يعتقد بعض هؤلاء أنّ في هؤلاء من هو أفضل من الأنبياء، وحقيقة الأمر: أنّ هؤلاء عارضوا الأنبياء كما كانت تعارضهم السحرة والكهّان، كما عارضت السحرة لموسى عليه السلام وكما كان كثير من المنافقين يتحاكمون إلى بعض الكهّان دون النبي ﷺ ويجعلونه نظير النبي ﷺ وكان في العرب عدة من هؤلاء».(٢)

وقال ابن القيم رحمه الله: عند بيانه لمعنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾« وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية؛ الذين لهم كشوف شيطانية، وتأثير شيطاني، فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان، أطاعوه في الإشراك ومعصية الله، والخروج عما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٨١-٨٥)، ودقائق التفسير (٢/١٣٠-١٣٨) بتصرف.

(٢) النبوات ص (٢٢١).

من المغيّبات والتأثيرات؛ واغترّ بهم من قلّ حظه من العلم والإيمان، فوالى أعداء الله، وعادى أولياءه، وأحسن الظنّ بمن خرج عن سبيله وسنته، وأساء الظنّ بمن اتّبع سنة الرسول ﷺ وما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين، وآراء المتحيّرين، وشطحات المارقين، وترهات المتصوفين.

والبصير الذي نوّر الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق؛ وكان ناقدا لا يروج عليه الزغل؛ تبيّن له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية وهي منطبقة عليهم».(١)

أمّا عن حكم الاستمتاع بالجنّ واستخدامهم، والاستعانة بهم؛ فقد قال فيه شيخ الإسلام رحمه الله: واستخدام الإنس للجنّ مثل استخدام الإنس للإنس في شيء؛ فمنهم من يستخدمهم في المحرّمات؛ من الفواحش والظلم والشرك، والقول على الله بلا علم، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين؛ وإنما هو من أفعال الشياطين.

ومنهم من يستخدمهم في أمور مباحة؛ إمّا إحضار ماله، أو دلالةٍ على مكان فيه مالٌ ليس له مالك معصوم، أو دفع من يؤذيه، ونحو ذلك؛ فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك.

و النوع الثالث: أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله؛ كما يستعمل الإنس في مثل ذلك؛ فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله؛ وينهاهم عمّا نهاهم الله عنه ورسوله، كما يأمر الإنس وينهاهم، وهذه حال نبينا محمد ﷺ وحال من اتّبعه واقتدى به من أمته، وهم أفضل الخلق؛ فإنهم يأمرون الإنس والجنّ بما أمرهم الله به ورسوله، وينهون الإنس والجنّ عمّا نهاهم الله عنه ورسوله؛ فالنبي ﷺ لم يستخدم الجن أصلا؛ لكن دعاهم إلى الإيمان بالله، وقرأ عليهم القرآن، وبلّغهم الرسالة، وبايعهم كما فعل بالإنس، والذي أوتيه أعظم ممّا أوتيه سليمان عليه السلام؛ فإنّه استعمل الجنّ والإنس في عبادة الله وحده وسعادتهم في الدنيا والآخرة، لا لغرض يرجع إليه؛ إلاّ ابتغاء وجه الله، وطلب مرضاته، واختار أن يكون عبدا رسولا على أن يكون نبيا ملكا.(٢)

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٢٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٧٨-٨٩). بتصرف.

الثانية: إثبات أنّ الآجال بيد الله تعالى.

إنّ في قوله تعالى على لسان أولياء الجنّ من الإنس: ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أي: استمتع بعضنا ببعض أيّام حياتنا حتى بلغنا الوقت الذي وقّتَّ لموتنا[١] دليلا على أنّ الآجال بيد الله سبحانه وتعالى؛ فهو الذي يكتب لكل شيء أجله؛ فيؤجّل للإنسان وقت الولادة ووقت الموت، ويؤقّت كذلك للأحداث زمانها ومكانها؛ فكل شيء بيده تعالى:

والأدلة على كون الآجال بيده الله تعالى كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾.[٢]

فقوله: ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾ يعني الموت. وقوله: ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ يعني الآخرة. والمعنى: أنّ تقدير الأجل الخاص الذي هو عمر كلّ إنسان، وتقدير الأجل العام وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهاؤها وانقضاؤها والمصير إلى الآخرة كل ذلك بيده تعالى.[٣]

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

(إنّ الله عزّ وجلّ قد وكل بالرحم ملكا، فيقول: أي رب نطفة، أي ربّ علقة، أي ربّ مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقا قال: قال الملك أي رب ذكر أم أنثى؟ شقيّ أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه).[٤]

وعن سلمان[٥] رضي الله عنه قال: «إنّ الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذاري إلى يوم القيامة فكتب الآجال والأرزاق والأعمال والشقوة والسعادة ».[٦]

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٣٤٢/٥).

(٢) سورة الأنعام الآية (٢).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٠٤٣/٢).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتب الحيض، باب مخلّقة وغير مخلّقة، برقم (٣١٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، برقم (٢٦٤٦)، واللفظ لمسلم.

(٥) سبقت ترجمته.ص (٨٤).

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦٧٧/٤).

المبحث الثاني: مخاطبات الكفار بعضهم لبعض في الموقف.

إنّ ممّا تحدّثت به النصوص من أقوال الكفّار ما جرى بينهم من مخاصمة وتلاعن في الموقف؛ وكذلك ما صدر منهم من أقوال يخاطبون بها جلودهم وأعضاءهم؛ وغير ذلك من المخاطبات التي حصلت فيما بين الكفّار.

وفيما يلي من المطالب إيراد هذه الأقوال مع بيان ما فيها من الدلالات العقدية- بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: مخاصمة بعضهم لبعض.

قد أخبر الله سبحانه وتعالى عن مخاصمة الكفّار بعضهم لبعض في الموقف عند قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.[١]

الشرح:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن مواقف الكفّار الذليلة بين يديه يوم القيامة؛ وأنّك لو رأيت حالهم يومئذ لرأيت أمرا عظيما، وهولا جسيما، حيث يجتمع الرؤساء وأتباعهم في الكفر والضلال يتخاصمون ويتحاجّون، ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللّوم والعتاب، بعد أن كانوا في الدنيا متعادضين، متناصرين، متحابّين.[٢]وقوله تعالى: ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾أي: يقول الأتباع للرؤساء المتبوعين: لولا أنتم صددتمونا عن الإيمان بالله والاتّباع لرسوله؛ لكنا مؤمنين بالله مصدّقين لرسوله وكتابه.[٣]

---

(١) سورة سبأ الآية (٣١-٣٣).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم(٣/٢٣٧٠)وفتح القدير(٤/٤٦٦)وتيسير الكريم الرحمن ص (٦٤٩).

(٣) ينظر فتح القدير (٤/٤٦٨).

قوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي: أنّ المتبوعين لّما اتّهمهم الأتباع بأنهم صدّوهم عن الإيمان، ووبّخوهم، أنكروا ذلك، وأثبتوا أنّ الأتباع هم الذين صدّوا أنفسهم؛ فقالوا لهم: لسنا نحن الذين حُلنا بينكم وبين الإيمان بعد إذ صممتم على الدخول فيه، بل أنتم منعتم أنفسكم حظّها بإجرامكم، وإيثاركم الكفر على الإيمان.(١)

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أي: أنّ الأتباع قالوا: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبّرتموه من المكر في الليل والنهار، إذ تحسّنون لنا الكفر، وتدعوننا إليه، وتقولون إنه الحق، وتقدحون في الحق، وتهجّنونه، وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا، وكيدكم إيّانا، حتى أغويتمونا وفتنتمونا.(٢)

قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾أي: الجميع مِن السادة والأتباع؛ فضمير الجمع عائد إلى جميع المذكورين قبلُ؛ والمعنى : أنهم كُشِف لهم عن العذاب المعدّ لهم عَقِب المحاورة التي جرت بينهم، فعلموا أنّ ذلك الترامي الواقع بينهم لم يغن عن أحد من الفريقين شيئا، فحينئذ أيقنوا بالخيبة، وندموا على ما فات منهم في الحياة الدنيا، وأسرّوا الندامة في أنفسهم، وكأنهم أسرّوا الندامة استبقاءً للطمع في صرف ذلك عنهم، أو اتّقاءً للفضيحة بين أهل الموقف.(٣)

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: يُغلّ الذين كفروا بالسلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم؛ وجاء بالظاهر تنويها بذمّهم، وإشعارا بموجب أغلالهم.(٤)

قوله تعالى: ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾أي: إنما نجازيكم بأعمالكم؛ كلٌّ بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع عذاب بحسبهم.(٥)

---

(١) ينظر روح المعاني (١٤٥/٢٢).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٦٤٩).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٣٧٠/٣)، والتحرير والتنوير(٢٠٩/٢٢).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٣٧٠/٣)، وتفسير البيضاوي (٤٠٢/١).

(٥) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٣٧٠/٣).

الدلالات العقدية.

قد تضمن ما حكاه الله سبحانه عن الكفار من المخاصمة من الدلالات العقدية ما يلي:

خطورة أئمة الضلال على الناس.

إنّ في قول الأتباع من الكفّار للمتبوعين في أرض الموقف﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾دليلا على خطورة الأئمة المضلين على عقائد الناس وسلوكهم، حيث أثبت هؤلاء الأتباع أنّ أؤلئك المتبوعين من الكبراء والسادة والزعماء هم الذين صدوهم عن الهدى بعد ما تبين لهم؛ وحسّنوا لهم الكفر، وودعوهم إليه، وزعموا لهم أنه الحق. وقدحوا في الحق، وهجّنوه لهم، وزعموا أنّه الباطل، فما زال مكرهم، وكيدهم لهم حتى أغووهم؛ وفي هذا تحذير شديد، وزجر عنيف، عن الطاعة العمياء، التي يكون فيها المطيع لِمُطاعه كالميّت في يد غاسله، سواء كان صالحا أو طالحا.

ولهذا تواردت النصوص من القرآن والسنة تبين أنّ الطاعة المطلقة إنما تجب لله ولرسوله ﷺوتحذّر من الطاعة العمياء، والتبعية المقيتة ومن تلك النصوص:

قوله الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾.[1]«أي: لا تتّخذوا غيره أولياء، تطيعوهم في معصية الله تعالى»[2]،وقال النبي ﷺ: (لا طاعة لمخلوق في معصية الله عزّ وجلّ).[3]

وقد جعل النبيّ ﷺ فتنة الأئمة المضلين أخوف ما يخاف منه على أمته. وما ذلك منه ﷺ إلا تنبيها على خطورتهم في إغواء العوام وإضلال الأتباع، وتحذيرا من الافتتان بهم، والوقوع في فخاخهم المنصوبة، وشباكهم الممدودة.

فقد روى الترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال:(إنما أخاف على أمتي الأئمة المُضِلّين، قال: وقال رسول الله لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من يخذلهم حتى يأتي أمر الله).[4]

---

(١) سورة الأعراف الآية(٣).

(٢) تفسير البغوي (١٢٣/٢).

(٣) رواه أحمد في المسند برقم(١٠٩٥)، وإسناده على شرط الشيخين؛ ينظر تحقيق المسند(٣٣٣/٢).

(٤) رواه الترمذي في سننه، كتاب الفتن،باب ما جاء في الأئمة المضلين،برقم:(٢٢٢٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٦/٢)، برقم (١٨١٧).

وعن أبي الدرداء[١] رضي الله عنه قال: (عهد إلينا رسول الله ﷺ أنّ أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلّون).[٢]

وروى ابن حبان من حديث ثوبان أن نبي الله ﷺ قال: (إنّ الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وأعطاني الكنزين: الأحمر والأبيض، وإنّ ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسنة عامة، وأن لا يسلّط عليهم عدوا من غيرهم فيهلكهم، ولا يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض. فقال: يا محمد إني إذا أعطيت عطاء فلا مردّ له، إني أعطيتك لأمتك أن لا يهلكوا بسنة عامة، وأن لا أسلّط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيحهم، ولكن ألبسهم شيعا، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا وبعض يفني بعضا وبعضهم يسبي بعضا، وإنه سيرجع قبائل من أمتي إلى الترك وعبادة الأوثان، وإنّ من أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلّين، وإنهم إذا وضع السيف فيهم لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة، وإنه سيخرج من أمتي كذّابون دجّالون قريبا من ثلاثين، وإني خاتم الأنبياء لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة حتى يأتي أمر الله).[٣]

والمراد بالأئمة المضلين: الأمراء والعلماء والعباد الذين يقتدي بهم الناس، ويحكمون فيهم بغير علم، فَيَضلّون ويُضِلّون، فهم ضالّون عن الحق، مُضِلُّون لغيرهم.[٤]

ولشدة الضرورة إلى اتّباع أئمة الهدى ومعرفتهم، والتفريق بينهم وبين أئمة الضلال أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى سلوك صراط أئمة الهدى، غير المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يعملون به، ولا الضالّين الذين يعملون على غير شرع من الله، بل بما تهوى أنفسهم، كالذين يأمرون أصحابهم بالاستغاثة بالمخلوقين من الأولياء وغيرهم، والعكوف على الأضرحة والقبور ودعاء أهلها، ونحو ذلك من الكفر والهذيان.[٥]

---

(١) سبقت ترجمته.ص (١١٠).

(٢) رواه أحمد في المسند برقم (٢٧٤٨٥)، وهو صحيح لغيره. ينظر تحقيق المسند (٤٧٨/٤٥).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٧١٤). وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط مسلم، ينظر تحقيق صحيح ابن حبان (١٠٩/١٥).

(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص(٣٢٥-٣٢٦).

(٥) ينظر: تيسير العزيز الحميد، ص(٣٢٦).

بل قد جعل الشارع القول بوجوب الطاعة المطلقة لأيّ أحد من النّاس نوعا من أنـــواع الشرك الأكبر.[١]

وكل ذلك حفاظا للأمة من الوقوع في شباك هؤلاء المضلين؛ وصيانة لها من الوقـــوع في فخوخهم.

فعن عدي بن حاتم[٢] ﷺ قال: (أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب؛ فقال: يـــا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٣] قال: أمّا إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكن كانوا إذا أحلّوا لهم شيئا اســـتحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه).[٤]

---

(١) ينظر أعلام السنة المنشورة ص (٢٢).

(٢) عدي بن حاتم هو أبو طريف عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، قدم علـــى النبي ﷺ سنة ٧هـــ، كان سيدا شريفا فاضلا كريما، منع قومه من الردة بثبوته علـــى الإســـلام وحسن رأيه، نزل الكوفة، وشهد مع علي الجمل وصفين والنهراون، ومات بالكوفة سنة ٦٧هـــ في أيام المختار وهو ابن مائه وعشرين سنة. ينظر:الاستيعاب في معرفة الأصـــحاب(١٠٥٧/٣-١٠٥٩).

(٣) سورة التوبة الآية(٣١).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب من سورة التوبة برقم (٣٠٩٤) وحسنه الألبـــاني في صحيح سنن الترمذي (٥٦/٣)، برقم (٢٤٧١).

المطلب الثاني: لعن بعضهم بعضا.

ورد في النصوص أنّ من الأقوال التي تصدر من الكفّار في الموقف تلاعنهم فيما بينهم.

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾.(١) قال: (يدعى أحدهم، فيعطى كتابه بيمينه، و يُمدّ له في جسمه ستون ذراعا، و يبيّض وجهه، و يجعل على رأسه تاج من لؤلؤ؛ قال: فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا، و بارك لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا؛ إنّ لكل رجل منكم هذا.

وأمّا الكافر فيؤتى كتابه بشماله، ويسوّد وجهه، و يزاد في جسمه ستون ذراعا على صورة آدم، ويلبس تاجا من النار، فيراه أصحابه؛ فيقولون: نعوذ بالله من شرّ هذا؛ اللّهم لا تأتنا بهذا، فيأتيهم فيقولون: اللهم أخّره؛ فيقول: أبعدكم الله، فإنّ لكل رجل منكم مثل هذا).(٢)

وقد جاء في القرآن الكريم آيات تدل على هذا التلاعن بين الكفّار في الموقف، وفي النار.

قال تعالى على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام في دعوته قومه:

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾.(٣)

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.(٤)

---

(١) سورة الإسراء الآية (٧١).

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل،برقم (٣١٣٦)، والحاكم في المستدرك (٢/٢٦٥)برقم (٢٩٥٥)وقال الترمذي :«هذا حديث حسن غريب»، وقال الحاكم المستدرك (٢/٢٦٥):« هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه »ووافقه الذهبي.وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب(٢/٢٣٢) برقم (٢١٠٥).

(٣) سورة العنكبوت الآية (٢٥).

(٤) سورة الأعراف الآية (٣٨-٣٩).

المطلب الثالث: استقصارهم مدة لبثهم في الدنيا.

إنّ مما صدر من الكفّار في الموقف من أقوال تخاطبوا بها فيما بينهم استقصارهم للمدة التي مكثوا فيها في الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾.[١]

الشرح:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ أي: يوم القيامة نسوق أهل الكفر بالله إلى الموقف؛ زرقَ العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.[٢]

والمراد أنّ خلقة الكفّار تتشوّه بزرقة عيونهم، وسواد وجوههم.[٣]

قوله تعالى: ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرا ﴾ أي: يتهامسون بينهم، ويسرّ بعضهم إلى بعض، قائلا: لقد كان لبثكم في الدنيا قليلا؛ إذ لم تلبثوا فيها إلاّ عشرة أيام، أو نحوها.[٤]

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾ أي: نحن أعلم بما يقولون حال تناجيهم بينهم، إذ يقول العاقل الكامل فيهم ما كان لبثكم في الدنيا إلا يوما؛ وذلك لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأنّ الدنيا كلها- وإن تكررت أوقاها، وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاها- كأها يوم واحد.

وكان غرض الكفّار في استقصار مدة الدنيا درء قيام الحجة عليهم لقصر مدة ما لبثوا فيها.[٥]

قال الإمام الطبري[٦] رحمه الله:

---

(١) سورة طه الآية (١٠٢-١٠٤).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٤٥٥/٨)، وتفسير القرآن العظيم (١٨٨١/٣).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٢١٧/١١).

(٤) ينظر تفسير الطبري (٤٥٥/٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم (١٨٨١/٣).

(٦) سبقت ترجمته.ص (١٦٢).

« وإنما عنى جلّ ثناؤه بالخبر عن قيلهم هذا القول يومئذ إعلامَ عباده أنّ أهل الكفـــر بـــه ينسون- من عظيم ما يعاينون من هول يوم القيامة، وشدّة جزعهم من عظيم ما يـــردون عليه- ما كانوا فيه في الدنيا من النعيم واللذات، ومبلغ ما عاشوا فيها من الأزمان، حـــتى يخيّل إلى أعقلهم فيهم وأَذْكرهم وأفهمهم أنهم لم يعيشوا فيها إلاّ يوما».(١)

وقد حصل أيضا من الكفّار مثل هذا الاستقصا لمدة بقائهم في الدنيا وهم في النار، قال الله تعالى عنهم: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.(٢)

والمعنى: أنّ الله تعالى سأل هؤلاء الأشقياء من أهل النار؛ كم مدة لبثكم في الأرض مـــن السنين؟ فأجابوا الله وقالوا: لبثنا يوما أو أقلّ من يوم، فنسي الأشقياء لعظيم ما هم فيه من البلاء والعذاب، وشدة ما حلّ بهم من نقمة الله مدّة مكثهم التي كانت في الدنيا، وقَصُـــر عندهم ذلك الأمد، حتى حسبوا أنهم لم يكونوا مَكثوا فيها إلاّ يوما أو بعض يوم، ولعـــلّ بعضهم كان قد مكث فيها الزمان الطويل والسنين الكثيرة.(٣)

---

(١) تفسير الطبري (٤٥٦/٨).

(٢) سورة المؤمنون الآية (١١٢-١١٤).

(٣) ينظر تفسير الطبري (٢٥١/٩).

المطلب الرابع: مخاطبتهم لجلودهم وأعضائهم.

إنّ من الأقوال التي صدرت من الكفّار في الموقف ما خاطبوا بها جلودهم حين أنطقها الله تعالى فشهدت عليهم بما عملوا في الدنيا؛ وهذه الشهادة من الجلود قد ثبت في القرآن الكريم والسنة؛ أمّا في القرآن: ففي قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .[(١)]

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن حال أعدائه الذين بارزوه بالكفر به؛ أي: اذكر يوم يُجمعون ويساقون إلى موقف الحساب سوقا عنيفا، لا يستطيعون امتناعا، فيُحبس أوّلهم على آخرهم، ليتلاحقوا، ويجتمعوا.[(٢)]

والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمّهم، والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب؛ وعُبّر عن موقف الحساب بالنار للإيذان بأنّ النّار عاقبة حشرهم، وأنهم على شرف دخولها. وقيل: لا مانع من إبقائه على ظاهره والقول بتعددّ الشهادة، فتشهد عليهم جوارحهم في الموقف مرّة وعلى شفير جهنّم أخرى.[(٣)]

قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ أي: جاءوا النّار التي حشروا إليها؛ أو موقف الحساب.

قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: نطقت جوارحهم بما كتمت الألسن من المعاصي التي عملوها في الدنيا.[(٤)]

---

(١) سورة فصلت الآية (١٩-٢٣).

(٢) ينظر فتح القدير (٧٢٨/٤)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٧١٣).

(٣) ينظر روح المعاني (١١٤/١١).

(٤) ينظر فتح القدير (٧٢٨/٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي: قال الكفار لجلودهم: لم شهدتم علينا وإنما كنّا نجادل عنكم.(١)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: ما نطقنا باختيارنا؛ بل أنطقنا الله، وليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة، حين أنطقنا الله الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد.(٢)

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: ركّب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفا؛ فمن قَدِر على ذلك قَدر على أن يُنطِق الجلود وغيرها من الأعضاء.(٣)

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكّتمون منّا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه، لأنّكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم، وهذا الظّن الفاسد- وهو اعتقادكم أنّ الله لا يعلم كثيرا من أعمالكم-هو الذي أتلفكم، وأرداكم عند ربكم، فخسرتم في مواقف القيامة أنفسكم وأهليكم.(٤)

أمّا من السنة فقد روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﵁ قال:

(كنّا عند رسول الله ﷺ فضحك؛ فقال: هل تدرون ممّا أضحك؟ قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال: مِن مخاطبة العبد ربه؛ يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول بلى؛ قال: فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلاّ شاهدا مني؛ قال: فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا، قال: فيختم على فيه؛ فيقال لأركانه انطقي؛ قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول بعدا لكنّ وسحقا، فعنكنّ كنت أناضل).(٥)

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٥/٣٠٥).

(٢) ينظر فتح القدير (٤/٧٢٨)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٧١٣).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٥/٣٠٥).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤/٢٥٤٦).

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٩).

الدلالات العقدية.

قد تضمن مخاطبة الكفار لجلودهم في الموقف بما يلي من الدلالات العقدية.

الأولى: أنّ الكافر يشهد عليه كل عضو من أعضائه.

دلّ مخاطبة الكفّار لجلودهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أنّ الكافر يشهد عليه يوم القيامة جميع أعضائه، وأنّ كل عضو يقول أنا فعلت كذا وكذا، يوم كذا وكذا، وإنما يخصّ بعضها بالذكر في النصوص لكون أكثر الذنوب تقع بها أو بسببها(١) كما خصّ الأيدي والأرجل بالذكر في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.(٢) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.(٣)

وقيل: إنمّا خصّ السمع والبصر والجلود بالذكر في الشهادة على هؤلاء دون بقيّة الجوارح لأنّ للسمع اختصاصا بتلقي دعوة النبي ﷺ وتلقي آيات القرآن؛ فيشهد عليهم سمعهم بأنهم كانوا يصرفونه عن سماع ذلك؛ ولأنّ للأبصار اختصاصا بمشاهدة دلائل المصنوعات الدالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، فذلك دليل وحدانيته في إلهيته؛ وأمّا شهادة الجلود فلأنّ الجلد يحوي جميع الجسد، فتكون شهادتها عليهم شهادة على أنفسها، وليظهر استحقاقها للحرق بالنّار دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر؛ ولذلك اقتصروا في توجيه الملامة على جلودهم، لأنها حاوية لجميع الحواس والجوارح.(٤)

الثانية: بيان خطورة الجهل بصفات الله تعالى.

إنّ في قول الجلود لأصحابها: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بيانا لما يتسبب من الجهل بصفات الله تعالى من الآثار السيئة؛ حيث شهدت على أصحابها أنّ الجهل بسعة علم الله، وظنّهم أنّه لا يعلم بكثير من

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٧١٣).

(٢) سورة يس الآية (٦٥).

(٣) سورة النور الآية (٢٤-٢٥).

(٤) ينظر التحرير والتنوير(٢٦٧/٢٤).

أعمالهم، أوردهم موارد الهلاك، حيث هوّن عليهم ركوب المعاصي، وارتكاب الجـرائم، فلو أنهم كانوا يقرّون باتّصاف الله تعالى بالعلم، واطّلاعه تعالى على كلّ ما يصدر منـهم من أقوال وأعمال، وأيقنوا ذلك؛ لأثمر ذلك فيهم الخوف من الله، والاستحياء من مراقبته ما ينزجرون بها عن المعاصي والمحرّمات.

ولـمّا كان العلم بكون الله تعالى خبيرا بعباده، مطّلعا عليهم، محيطـا بجميـع أقـوالهم وأعمالهم بهذه المثابة من الأهمية، والجهل بذلك بهذه الدرجة من الخطورة، أكثر الله تعالى في كتابه من تنبيه عباده على اتّصافه تعالى بسعة العلم، والإحاطة بما يصدر من العباد أيّـا كانوا، ليستقرّ ذلك في قلوبهم، ويستحضروه عند كل حركة وقول وعمل.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾.(٣)

الثالثة: خطر الظن السيئ بالله تعالى.

إنّ في قول الجلود لأصحابها: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ إثباتا لما يترتّب من سوء الظن بالله تعالى من الآثار السيئة في السلوك والعقيدة، حيث أثبتت الجلود لأهلها أنّ سوء ظنهم بالله جعلهم من الخاسرين الذين يستوجبون عذاب الله تعالى؛ ولذلك جعل الله تعالى الظن السيئ به من أوصاف المنافقين والمشركين، فقال الله تعالى:

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾.(٤)

---

(١) سورة آل عمران الآية (٢٩).

(٢) سورة الأنعام الآية (٥٩).

(٣) سورة يونس الآية (٦١).

(٤) سورة الفتح الآية (٦).

ولسوء الظن بالله أنواع كثيرة وصور عديدة، يبينها العلامة ابن القيم[1]رحمه الله تعـالى بقوله:

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختصّ بهم وفيما يفعلـه بغيرهـم، ولا يسلم عن ذلك إلاّ من عرف الله، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته.

فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن جوّز عليه أن يعذّب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوّي بينهم وبين أعدائه فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظنّ به أن يترك خلقه سدى معطَّلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسـله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملا كالأنعام فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجـازي المحسـن فيهـا بإحسانه والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظنّ أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصا لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار ولا قدرة بـل يعاقبه على فعله هو سبحانه به فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظنّ به أنه يجوز عليه أن يؤيّد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيّد بها أنبيـاءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، ويجريها على أيديهم يضلّون بها عباده فقد ظن بـه ظـنّ السوء.

ومن ظنّ أنه يحسن منه كلّ شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعتـه، فيخلـده في الجحيم أسفل السافلين، وينعّم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء فقد ظن به ظنّ السوء.

ومن ظنّ به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وترك الحق ولم يخبر به وإنما رمز إليه رموزا بعيدة وأشار إليه إشارات ملغزة؛ وأراد من خلقه أن يُتعِبوا أذهانهم في تحريف كلامه، ويتطلّبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي

(١) سبقت ترجمته. ص (٤٨).

بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه، فقد ظنّ به ظن السوء.

لأنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح فقد ظن بقدرته العجز.

وإن قال: إنه قادر و لم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء.

ومن ظنّ به أن يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظنّ به أنه كان معطّلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ثم صار قادرا عليه بعد أن لم يكن قادرا فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السماوات والأرض ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئا من الموجودات في الأعيان فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لا علم له ولا إرادة ولا كلام يقول به، وأنه لم يكلّم أحدا من الخلق ،ولا يتكلّم أبدا، ولا قال ولا يقول، ولا له أمر ولا نهي يقوم، به فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظنّ به أنه ليس فوق سماواته على عرشه بائنا من خلقه، وأنّ نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلى فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظنّ به أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظنّ به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين؛ فقد ظن به ظن السوء.

وبالجملة فمن ظنّ به خلاف ما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، أو عطّل حقائق ما وصف به نفسه ووصفته به رسله فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنّ له ولدا أو شريكا أو أنّ أحدا يشفع عنده بدون إذنه، أو أنّ بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقرّبون بهم إليه ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم ويحبونهم كحبه تعالى، ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظنّ به أنه إذا ترك لأجله شيئا لم يعوّضه خيرا منه، أو من فعل لأجله شيئا لم يعطه أفضل منه فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنّه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظنّ به أنّه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرّع إليه وسأله واستعان به وتوكّل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله؛ فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظنّ به أنه إذا أغضبه وأسخطه وخاض في معاصيه، ثم اتخذ من دونه وليّا ودعا من دونه ملكا أو بشرا حيا أو ميتا نجا بذلك من عذابه فقد ظنّ به ظن السوء؛ إذ ذلك زيادة في بعده من الله وفي عذابه.

ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطا مستقرا دائما في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه فلمّا مات استبدوا بالأمر دون وصية، وظلموا أهل بيته وسلبوهم حقّهم، وأذلّوهم وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائما، وهو تعالى يرى قهرهم لهم، وغصبهم إيّاهم حقّهم، وتبديلهم دين نبيهم، وهو يقدر على نصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصرهم ولا يُديلهم، بل يديل أعداءهم عليهم أبدا، أو أنه لا يقدر على ذلك بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته؛ ثم جعل المبدّلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تسلّم أمته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضة، فقد ظنّ به أقبح الظن وأسوأه.

سواء قالوا: إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر؛ أو أنه غير قادر على ذلك.فهم قادحون في قدرته أو في حكمته وحمده، وذلك من ظنّ السوء به؛ ولا ريب أنّ الرب الذي فعل هذا بغيض إلى من ظنّ به ذلك، غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك.

لكن رفوا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرمضاء بالنار فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يقدر على أفعال عباده ولا هي داخلة تحت قدرته فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والثنوية بربهم.

فأكثر الخلق بل كلّهم إلاّ من شاء الله يظنون بالله غير الحقّ ظن السوء؛ فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ؛ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك؛ وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتّش نفسه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها؛ رأى ذلك فيها كامنا كمون النار في الزناد؛ فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتّشت من فتّشته لرأيت عنده تعتبا على القدر، وملامة له واقتراحا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك.

فان تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلاّ فإني لا إخالك ناجيا.

فَلْيَعْتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، ولْيَتب إلى الله تعالى وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظنّ السوء، ولْيَظنَّ السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شرّ، المركّبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظنّ السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين الغنيّ الحميد الذي له الغنى التامّ، والحمد التامّ، والحكمة التامّة، المنزّه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك كلّها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل.[1]

---

(١) زاد المعاد (١٩٦/٣) فما بعدها؛ بتصرف.

المبحث الثالث: اعترافات الكفّار في الموقف.

إنّ مما أخبر الله به من مخاطبات الكفّار في الموقف ما صدر منهم من أقوال يعترفون فيهـــا بعدة أمور، منها:

اعترافهم بأنهم كانوا عن البعث غافلين، وعن يوم القيامة ساهين، غير مستعدّين له بصالح الأعمال والأقوال.

ومنها: اعترافهم بعسر ذلك اليوم وشدّته عليهم.

ومنها كذلك اعترافهم بأن أعمالهم كلها سجلت عليهم.

وغير ذلك من الاعترافات التي صدرت عنهم في الموقف؛ مما يتمّ إيرادهـــا ودراســـتها في المطالب التالية.

المطلب الأول: اعترافهم على أنفسهم بالغفلة عن يوم البعث.

قد أخبر الله عن اعتراف الكفّار بأنهم كانوا عن يوم القيامة غافلين عند قوله تعالى:

﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾.(١)

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي: يمتنع على القرى المهلَكَة المعذَّبة الرجوع إلى الدنيا، ليستدركوا ما فرّطوا فيه، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أُهلك وعُذّب.

فليحذر المخاطَبون أن يستمرّوا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم؛ فلا يمكن رفعه، ولْيقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ هذا تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصي مع قرب وقت خروج يأجوج ومأجوج إليهم؛ وهما القبيلتان العظيمتان من بني آدم، اللتان سدّ عليهم ذو القرنين لما شُكي إليه إفسادهم في الأرض.(٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَر ﴾ أي: وعد الله الذي وعد عباده أنه يبعثهم من قبورهم للجزاء والثواب والعقاب؛ فحينئذ تشخص أبصار الكفّار، فلا تكاد تطرف من شدّة ذلك اليوم وهوله.(٣)

قوله تعالى: ﴿ يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي: عند مجيء الوعد الحقّ بأهواله، وقيام الساعة بحقائقها؛ يقول الكفّار: ياويلنا قد كنّا قبل هذا الوقت في الدنيا في غفلة من هذا الذي نرى ونعاين ونعاني من عظيم البلاء، وما كنّا نعمل لهذا اليوم ما ينجينا من شدائده؛ بل كنّا ظالمين لأنفسنا بمعصيتنا ربّنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسل، وطاعتنا إبليس وجنده في عبادة غير الله عزّ وجلّ.(٤)

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٩٥-٩٧).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن ص (٥٠٣).

(٣) ينظر تفسير الطبري (٨٧/٩)، وتفسير البغوي (٢٢٦/٣).

(٤) ينظر تفسير الطبري (٨٧/٩)، وفتح القدير (٦١٠/٣).

وقد ورد أيضا في السنة ما يدل على اعتراف الكفّار بغفلتهم عن يوم الدين؛ فعن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

(قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا: لا، قال: فهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ قالوا: لا.

قال: فوالذي نفسي بيده؛ لا تضارّون في رؤية ربكم إلا كما تضارّون في رؤية أحدهما؛ قال: فيلقى العبدَ فيقول: أي فُلْ [١] ألم أكرمك وأسوّدك، وأزوّجك وأسخّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى؛ قال: فيقول أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا؛ فيقول: فإني أنساك كما نسيتني.

ثم يلقى الثاني؛ فيقول: أي فلْ؛ ألم أكرمك وأسوّدك وأزوّجك وأسخّر لك الخيل والإبل، وأذَرْك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي رب؛ فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا؛ فيقول: فإني أنساك كما نسيتني...).[٢]

الدلالات العقدية.

قد تضمن قول الكفار في هذه الآية بما يلي من الدلالات العقدية.

-بيان أثر الغفلة عن البعث في الانحراف.

إنّ في قوله تعالى حكاية عن الكفّار: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بيانا لما ينتج عن الغفلة عن يوم البعث والانحراف في الإيمان به من الآثار السيئة، والعواقب الوخيمة، حيث بيّن الكفّار من قولهم هذا أنّ ما وقع لهم من الفظائع وحلّ بهم من أنواع العذاب إنما كان بسبب غفلتهم عن ذلك اليوم العظيم، ونسيانهم له؛ مما نتج عنه عدم تقديمهم له صالحَ الأعمال والأقوال؛ وهذا نتيجة الغفلة عن البعث والجزاء دائما، فإنّه مفتاح لأبواب الشرّ كلها؛ ولذا يقرن الله تعالى كثيرا بين عدم الإيمان به تعالى وعدم الإيمان باليوم الآخر؛ كما

---

(١) قوله: أي فُلْ قال ابن الأثير: معناه يا فُلانُ، وليس تَرْخِيما له، لأنه لا يقال إلاَّ بسكون اللام، ولو كان ترخيما لفَتَحُوها أو ضَمُّوها، وإنما هي صِيَغة ارْتجِلت في باب النِّداء. ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر(٩٢٣/٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٧).

في قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾.(١)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾.(٢)

وقوله تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.(٣)

– كما أنّ الله تعالى استبعد حصول التقوى، والنجاة يوم القيامة عمّن كفر باليوم الآخر، فقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾.(٤) أي: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه؟.(٥)

–وأشار سبحانه وتعالى إلى ارتباط التّكذيب بيوم الدين بعقوق الوالدين؛ وعدم القيام ببرهما؛ فقال:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾.(٦)

– وبيّن ما يتسبّب من التكذيب بيوم الدّين من سوء الأخلاق، وانتزاع الرحمة من القلب، وعدم القيام بحقوق اليتامى والمساكين، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ

---

(١) سورة التوبة الآية (٢٩).

(٢) سورة التوبة الآية الآية (٤٥-٤٦).

(٣) سورة يوسف الآية (٣٧).

(٤) سورة المزمل الآية (١٧-١٨).

(٥) ينظر تفسير القرآن لعظيم (٤/٢٩٨٨).

(٦) سورة الأحقاف الآية (١٧-١٨).

الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .[1]

-ووَصَف اللهُ سبحانه وتعالى المنافقين وأهل الرياء بعدم الإيمان باليوم الآخر؛ فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .[2]

أي: أنّ الرياء يبطل الصدقة، ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين بل من فعل المنافقين.[3]

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً ﴾ .[4]

- وعللّ الله تعالى إعراض اليهود والنصارى عن التّحاكم إلى ما في التوراة والإنجيل بانحرافهم عن الإيمان الصحيح باليوم الآخر؛ فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .[5]

فهذا إنكار من الله تعالى على اليهود والنصارى المتمسّكين-فيما يزعمون- بكتابيهم اللذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دُعوا إلى التّحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتّباع محمد ﷺ تولّوا وهم معرضون عنهما؛ و إنّما حملهم وجرّأهم على مخالفة الحقّ افتراؤهم على الله فيما ادّعوه لأنفسهم؛ مِن أنّ النار لا تمسهم بذنوبهم إلاّ أياما معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم، واختلقوه، و لم ينزل الله به سلطانا.[6]

---

(١) سورة الماعون الآية (١-٧).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٦٤).

(٣) ينظر تفسير البغوي (١/١٨٩).

(٤) سورة النساء الآية (٣٨).

(٥) سورة آل عمران الآية (٢٤).

(٦) ينظر تفسير القرآن العظيم (١/٥٥١).

- وذكر الله تعالى أيضا أنّ الكفّار إنما استحقوا عذاب جهنّم لعدم إيمانهم بالحساب والجزاء؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً (٢١) لِلْطَّاغِينَ مَآباً (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً (٢٤) إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً (٢٥) جَزَاءً وِفَاقاً (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾.(١)أي: إنّهم استحقوا هذه العقوبات الفظيعة، لأنّهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، ولا أنّ الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للآخرة.(٢)

وبالجملة فإنّ الشكّ في الوعد والوعيد شكٌ في إلهية الله تعالى وربوبيته؛ بل شكّ في وجوده؛ إذ إنه يستحيل عليه تعالى أن يُنسب إليه إرسال الخليقة هملا وتركها سدى؛ تعالى الله عن هذا الحسبان علوّا كبيرا

ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفرا به سبحانه؛ لأنه إنكار لقدرته ولإلهيته؛ وكلاهما مستلزم للكفر به؛ قال تعالى:

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.(٣)،(٤)

---

(١) سورة النبأ الآية(٢١-٢٧).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص(١٠٧٢).

(٣) سورة الرعد الآية (٥).

(٤) ينظر مدارج السالكين (١٢٦/١).

المطلب الثاني: اعترافهم بصدق الرسل.

إنّ ممّا جرى للكفّار في الموقف من المخاطبات ما صدر منهم من أقوال يعترفون فيها بأنّ الرسل قد صدقوا فيما كانوا يخبروهم به من مجيء يوم القيامة، وأنّ كلّ ما كانوا ينذروهم به من فظائعه وأهواله حقّ.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾.(١)

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي: ويقول هؤلاء المشركون، المكذّبون وعيد الله، والبعث بعد الممات-يستعجلون ربهم بالعذاب- متى الوعد بقيام الساعة أيها القوم؛ وهذا قولهم لأهل الإيمان بالله ورسوله.(٢)

قوله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي: ما ينتظرون إلاّ صيحة واحدة؛ وهي نفخة إسرافيل، تأخذهم وهم يختصمون في أمور دنياهم، فيموتون في مكانهم وهذه نفخة الصعق.(٣)

قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما لَهُ وما عليه، ولا يُمهلون فينقلبون إلى أهليهم؛ والمعنى: أنّ الساعة لا تمهلهم لشيء.(٤)

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور؛ والنَّسلان هو المشي السريع.(٥)

---

(١) سورة يس (٤٨-٥٢).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٠/٤٤٨).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٥/٣٦).

(٤) ينظر تفسير البغوي (٤/١١)، وفتح القدير (٤/٥٣١).

(٥) ينظر تفسير القرآن العظيم (٣/٢٤٥١).

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ أي: ينادي الكفّار عند بعثهم من القبور بالويل، فكأنهم يقولون له: احضر؛ فهذا أوان حضورك.(١)

﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، وإنما سمّوه مرقدا من الرّقدة التي هي النوم، لأنّ عذاب القبر بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالنوم.

وقيل: إنما يقولون هذا لأنّ الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فينامون، فإذا بعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة؛ دعوا بالويل.(٢)

قوله تعالى: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ هذا جواب عليهم من جهة الملائكة، أو من جهة المؤمنين.

وقيل: هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض.

والمعنى : هذا الذي وعد الرحمن به، وصدق فيه المرسلون فكذّبنا به؛ فأقرّوا حين لم ينفعهم الإقرار.(٣)

«ولا تحسب أنّ ذكر الرحمن في هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنّه في ذلك اليوم العظيم سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون».(٤)

الدلالات العقدية.

قد اشتمل قول الكفّار في هذه الآية بما يلي.

-إثبات رفع عذاب القبر عن أهله بين النفختين.

إنّ في قوله تعالى مخبرا عن الكفّار: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ دليلا على أنّ عذاب القبر يرتفع عن أهله بين النفختين؛ نفخة الصّعق ونفخة البعث، فينامون بينهما نومة؛ فقد روي

---

(١) ينظر فتح القدير (٥٣١/٤).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٤٥١/٣)، وتفسير البغوي (١٢/٤).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٣٩/١٥)، وفتح القدير (٥٣١/٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص (٦٦٥).

عن أبي بن كعب[١] رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية:« ينامون نومة قبل البعث، فيجدون لذلك راحة فيقولون: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا».[٢]

وقال مجاهد[٣]:« للكافر هجعة يجد فيها طعم النوم قبل يوم القيامة، فإذا صيح بأهل القبور يقول الكافر: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ».[٤]

وقال الإمام البغوي [٥]رحمه الله عند تفسير هذه الآية:«قال أبي بن كعب وابن عباس و قتادة[٦]: إنما يقولون هذا؛ لأنّ الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل».[٧]

---

(١) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية الأنصاري الخزرجي، له كنيتان: أبو المنذر؛ وأبو الطفيل؛ وشهد العقبة وبدرا، قال النبي ﷺ أنه أقرأ الأمة، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ لما قدم المدينة،وكان عمر يقول:أبي سيد المسلمين، وقد اختلف في وقت وفاته، فقيل: توفي سنة ٢٢هـ في خلافة عمر؛ وقيل: سنة ٣٠هـ في خلافة عثمان وقيل غير ذلك. ينظر أسد الغابة (٣٠/١-٣١).

(٢) ينظر الدر المنثور (٦٣/٧).

(٣) سبقت ترجمته.ص (٢٩).

(٤) ينظر الدر المنثور (٦٣/٧).

(٥) البغوي هو محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي، صاحب القدم الراسخ في التفسير، والباع المديد في الفقه،من مصفاته شرح السنة، ومعالم التنزيل، وغيرها، توفي سنة ٥١٦هـ. وله بضع وسبعون سنة. ينظر السير (٤٣٩/١٩-٤٤٢).

(٦) سبقت ترجمته. ص (٢٣).

(٧) تفسير البغوي (١٢/٤).

المطلب الثالث: اعترافهم بعسر الموقف وشدته عليهم.

إنّ ممّا أخبر الله به سبحانه عن الكفّار في الموقف ما صدر منهم من مخاطبات يعترفون فيها بشدة الموقف وعسره عليهم؛ قال الله سبحانه: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعاً أَبصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .(١)

الشرح.

قوله تعالى :﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ يقول تعالى: فتولّ يا محمّد عن هؤلاء الذين يُعرضون عن الآيات، ويقولون إنها سحر مستمر؛ أعرض عنهم وانتظرهم.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ أي:يوم يدعوهم الداعي وهو إسرافيل إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء والزلازل والأهوال.(٢)

وقوله تعالى: ﴿ خُشَّعاً أَبصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ أي: ذليلة أبصارهم، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأنّ العزّ والذّلّ يتبين فيها.(٣)

وقوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ أي: يخرجون من القبور منتشرين؛ كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابةً للداعي جراد منتشر في الآفاق؛ وإنما شبههم بالجراد المنتشر لأنّ الجراد لا جهة له يقصدها؛ فهو أبدا مختلف بعضه في بعض، فهم يخرجون فزعين، ليس لأحد منهم جهة يقصدها.

وقوله تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ أي: مسرعين إليه لا يخالفون، ولا يتأخّرون.(٤)

قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أي: يوم شديد الهول عبوس. وفي إسناد هذا القول إلى الكفّار دليل على أنّ اليوم ليس بشديد على المؤمنين.(٥)

وقد جمع الله سبحانه في هذه الآيات أهوالا كثيرة بعضها آخذة بحجز بعض، بحسن اتّصال ينقل كل منها ذهن السامع إلى الذي بعده؛ من غير شعور بأنّه يعدد له أشياء.

---

(١) سورة القمر الآية (٦-٨).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٧٥٧/٤)، وفتح القدير (١٧٣/٥).

(٣) ينظر فتح القدير (١٧٢/٥).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٧٥٨/٤)، وزاد المسير (٩١/٨).

(٥) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٧٥٨/٤).

وقد عد سبعة من مظاهر هذه الأهوال:

أولها: دعاء الداعي، فإنّه مؤذن بأنهم محضرون إلى الحساب.

الثاني: أنه يدعو إلى شيء عظيم؛ لأنّ في قوله﴿ شَيْءٍنُكُرٍ﴾ من الإبهام ما يُشعِر بأنّه مهول.

وثالثها: وصف ﴿ شَيْءٍ ﴾بأنه ﴿نُكُرٍ﴾أي موصوف بأنّه تنكره النفوس، وتكرهه.

ورابعها: ﴿خُشَّعاًأَبصَارُهُمْ﴾ أي: ذليلة؛ ينظرون من طرف خفيّ، لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس؛ وهي نظرة الخائف المفتضح. وهو كناية لأنّ ذلّة الذليل، وعزة العزيز تظهران في عيونهما.

وخامسها: تشبيههم بالجراد المنتشر في الاكتظاظ، واستتار بعضهم ببعض من شدة الخوف؛ زيادةً على ما يفيده التشبيه من الكثرة والتحرك.

وسادسها: وصفهم ب﴿مُهْطِعِينَ﴾والمهطع: الماشي سريعا، مادًّا عنقه، وهي مشية مذعورٍ، غير ملتفت إلى شيء.

سابعها: قولهم: ﴿هَذَايَوْمٌعَسِرٌ ﴾وهذا مِن أثرِ ما في نفوسهم من خوف.[1]

قال الإمام الشوكاني[2]رحمه الله:« وفي إسناد هذا القول إلى الكفّار دليل على أنّ اليوم ليس بشديد على المؤمنين».[3] وقد وصف الله تعالى هذا اليوم بالعسر على الكفّار في آيات أخرى، منها:قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَتَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً ﴾.[4] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾.[5]

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧٧/١٧).

(٢) الشوكاني هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، ولد باليمن بهجرة شوكان سنة ١١٧٣هـ، ونشأ بصنعاء وولي قضاءها سنة ١٢٢٩هـ، له مؤلفات منها: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، وغيرها، توفي سنة١٢٥٠هـ. ينظر الأعلام (٢٩٨/٦).

(٣) فتح القدير (١٧٣/٥)، وانظر تيسير الكريم الرحمن ص (٧٨٩).

(٤) سورة الفرقان الآية (٢٥-٢٦).

(٥) سورة المدثر الآية (٨-١٠).

المطلب الرابع: اعترافهم بأنّ أعمالهم كلّها سجّلت عليهم.

إنّ مما ذكر الله سبحانه وتعالى من أقوال الكفّار في الموقف أيضا ما صدر منهم من مخاطبات يعترفون فيها بأنّ أعمالهم كلّها مسجّلة عليهم ومُحْصاة، لم تَضِع منها شيء؛ و لم يذر العادُّ منها ذرّة إلاّ دوّنها في صحيفة أعمالهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾.[(١)]

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي: واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها من على وجه الأرض، ونسيّرها كما نسيّر السحاب، وتكون الأرض ظاهرة؛ ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ قد اجتُثّت ثمارها، وقُلعت جبالها، وهُدم بنيانها؛ فأصبحت بارزة ظاهرة.[(٢)]

قوله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ أي: جمعناهم إلى موقف الحساب؛ فلم نترك و لم نُبقِ منهم تحت الأرض أحدا.[(٣)]

قوله تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً ﴾ أي: وعرضوا على الله تعالى مصطفين، ظاهرين، ترى جماعتهم كما ترى كلّ واحد منهم، لا يحجب أحد أحدا.[(٤)]

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ ﴾ أي: يقال لهم: لقد جئتمونا حُفاة عراة؛ لا مال معكم ولا ولد.[(٥)]

---

(١) سورة الكهف الآية (٤٧-٤٩).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٢٣٣/٨)، وتفسير القرطبي (٣٦١/١٠).

(٣) ينظر تفسير الطبري (٢٣٣/٨).

(٤) ينظر تفسير النسفي (١٦/٣).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٣٦١/١٠).

قوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾ أي: زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا، وأن لن نجعل لكم موعدا للبعث.[(١)]

قال الإمام الطبري[(٢)]رحمه الله : «وهذا الكلام خرج مخرج الخبر عن خطاب الله بـه الجميع؛ والمراد منه الخصوص؛ وذلك أنّه قد يَرِد القيامة خلقٌ من الأنبياء والرسل، والمؤمنين بـالله ورسـله وبالبعث، ومعلوم أنّه لا يقال يومئذ لمن وردها من أهل التصديق بوعد الله في الدنيا، وأهل الـيقين فيها بقيام الساعة: بل زعمتم أن لن نجعل لكم البعث بعد الممات والحشر إلى القيامة موعـدا؛ وأنّ ذلك إنما يقال لمن كان في الدنيا مكذّبا بالبعث وقيام الساعة».[(٣)]

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾أي:كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير؛ فآخذ بيمينه وآخذ بشماله.[(٤)]

وقيل المراد بالكتاب: الكتاب الذي سطّر فيه ما تعمل الخلائق قبل وجودهم.[(٥)]

وقيل: المراد به الحساب؛ وإنما عبّر عنه بالكتاب لأنّ الناس يحاسـبون علـى أعمـالهم المكتوبة؛ والقول الأول أظهر.[(٦)]

قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾أي:خائفين، وجلين مما في الكتاب الموضوع، لِمـا يتعقّب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع، والمجازاة بالعذاب الأليم.[(٧)]

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ يعني أنهم إذا قرءوا كتابهم، ورأوا ما قد كتـب عليهم فيه من صغائر ذنوبهم وكبائرها، نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله وضجّوا، مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، و لم يقدروا أن ينكروا صحتها.[(١)]

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (٣٦١/١٠).

(٢) سبقت ترجمته.ص (١٦٢).

(٣) تفسير الطبري (٢٣٣/٨).

(٤) ينظر تفسير الطبري (٢٣٤/٨)، وتفسير القرآن العظيم (١٧٧٨/٣).

(٥) ينظر زاد المسير (١٥٢/٥).

(٦) ينظر تفسير القرطبي (٣٦٢/١٠).

(٧) ينظر فتح القدير (٤١٧/٣).

قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ﴾ أي: وجدوا ما عملوا في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة؛ أو وجدوا جزاء ما عملوا مكتوبا مثبتا.[٢]

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ أي: أنه تعالى لا يأخذ أحدا بجرم أحد، ولا يأخذه بما لم يعمله.

وقيل: المراد أنه تعالى لا ينقص طائعا من ثوابه، ولا يزيد عاصيا في عقابه.[٣] فهو تعالى يحكم بين عباده في أعمالهم جميعا، ولا يظلم أحدا من خلقه؛ بل يعفو ويصفح، ويغفر ويرحم، ويعذّب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النّار من الكفّار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي، ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم.[٤]

الدلالات العقدية.

تضمن قول الكفار في هذه الآية بما يلي من الدلالات العقدية.

- أنّ الكرام الكاتبين يسجّلون كل ما يصدر من ابن آدم.

إنّ قوله تعالى مخبرا عن الكفّار: ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ دليل على أنّ الملائكة كَتَبةَ أعمال بني آدم يسجّلون عليه كلّ ما صدر منه من فعل أو قول، حتى إنهم ليكتبون قوله: أكلت، شربت، ذهبت ، جئت، وقد دلّ على هذا جملة من النصوص، منها قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .[٥]و قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .[٦] و قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .[٧]،[٨].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٣٤/٨).

(٢) ينظر فتح القدير (٤١٧/٣).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٣٦٢/١٠).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (١٧٧٩/٣).

(٥) سورة ق الآية (١٧-١٨).

(٦) سورة المطففين الآية (١٠-١٢).

(٧) سورة الزخرف الآية (٨٠).

(٨) ينظر شرح العقيدة الطحاوية ص (٥٥٧).

بل يكتبون حتى أنينه؛ فعن مجاهد [١] قال:« يُكتب على ابن آدم كل شيء يتكلم به، حتى أنينه في مرضه».[٢]

وذُكر عن الإمام أحمد رحمه الله أنّه كان يئن في مرضه، فَبَلَغه أنّ الملك يكتب كل شيء حتى الأنين، فلم يئن حتى مات رحمه الله.[٣]

بل قد ذكر بعض العلماء رحمهم الله أنّ الكتبة يسجّلون النيات وأعمال القلوب؛ قال ابن أبي العزّ [٤]رحمه الله بعد ما ساق جملةً من الأدلة على كتابة الملائكة لجميع أعمال الإنسان؛ قال بعد ذلك:

« ثم قد ثبت بالنّصوص المذكورة أنّ الملائكة تكتب القول والفعل وكذلك النية، لأنها فعل القلب فدخلت في عموم﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾؛ويشهد لذلك قوله ﷺ:(قال الله عزّ وجلّ: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئةً، وإذا همّ عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرا).[٥] وقال رسول الله ﷺ: قالت الملائكة: ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به؛ فقال : ارقبوه؛ فإن عملها فاكتبوها بمثلها،وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرّائي).[٦]».[٧]

وقد قيل إنّ الملكين لا يكتبان إلاّ ما فيه ثواب أو عقاب. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن هذه الآية:

---

(١) سبقت ترجمته.ص (٢٩).

(٢) ينظر الدر المنثور (٥٩٦/٧).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٧٠٧/٤).

(٤) سبقت ترجمته.ص (٤٥).

(٥) رواه مسلم في صحيحه،كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب،برقم (١٢٨).

(٦) رواه مسلم في صحيحه،كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب برقم (١٢٩).

(٧) شرح العقيدة الطحاوية ص (٥٦١).

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.[(١)] فقال: إنما يكتب الخير و الشر، لا يكتب يا غلام اسرج الفرس؛ و يا غلام اسقني الماء، إنما يكتب الخير و الشرّ.[(٢)]

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾».[(٣)]

---

(١) سورة ق الآية (١٧-١٨).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٥٠٥/٢) برقم (٣٧٣٠)، وينظر فتح القدير (١١١/٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٧٠٧/٤).

المبحث الرابع: تمنيات الكفّار في الموقف.

إن مّما جرى للكفّار في الموقف من المخاطبات ما صدر منهم من أقوال يتمَنّوْن خلالها جملةً من الأمور، منها: تمنّيهم الهداية، ومنها تمنيهم عدم إيتائهم كتب أعمالهم، وغير ذلك من التمنيات التي حصلت منهم في أرض الموقف؛ وفي المطالب التالية ذكر هذه التمنيات، مع بيان ما تتضمنه من دلالات عقدية؛ بإذن الله.

المطلب الأول: تمنّي الكفار الهداية.

لـمّا علم الكفّار أنّ عدم الهداية هو سبب ما هم فيه من الشقاء وسوء الحال والمآل تمنوا- وقد فات أوانه- لو أنهم كانوا في الدنيا من المهتدين؛ وقد حكى الله تعالى عن أمنيتهم تلك بقوله:

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾.(١)

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يقول تعالى مخبرا عمّا يوبّخ به الكفّار المشركين يوم القيامة؛ حيث يناديهم فيقول: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، وتزعمون أنهم ينصرونكم، ويشفعون لكم، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد.(٢)

قوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي: حقّت عليهم كلمة العذاب، وهم رؤساء الضلال الذين اتُّخِذوا أربابا من دون الله.(٣)

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أي: أضللناهم كما كنّا ضالّين.(٤)

---

(١) سورة القصص الآية (٦٢-٦٤).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢١٨٥/٣)، وفتح القدير (٢٥٩/٤).

(٣) ينظر فتح القدير (٢٥٩/٤).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٢٦٩/١٣).

قوله تعالى: ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾أي: أنّ رؤساء الضّلال أو الشياطين تـــبرّءوا ممّـــن أطاعهم؛ فشهدوا عليهم أنّهم أغوَوْهم فاتّبعوهم، ثم تبرءوا من عبادهم.[١]

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾أي: ليخلّصوكم مما أنتم فيه؛ كما كنتم ترجون منهم ذلك في الدار الدنيا.

قوله: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾أي: وتَيقّنوا أنهم صائرون إلى النّار لا محالة.[٢]

وقوله: ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾أي: ودّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا.[٣]

وقيل: المعنى ودّوا لو أنهم كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل التي يدفعون بها العـــذاب عنهم.[٤]

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢١٨٥/٣)، وفتح القدير (٢٥٩/٤).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢١٨٥/٣).

(٣) ينظر تفسير الطبري (٩٣/١٠).

(٤) ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود (٢٢/٧).

المطلب الثاني: تمني الكافر عدم إيتائه كتابه.

إنّ مما أخبر الله به من تمنّيات الكفّار في الموقف تمنيهم لـــمّا رأوا ما في كتبهم من الفضائح وقبح العمل، وانجلاء الحساب عمّا يسوء هم أنهم لم يعطوا كتبهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾.[(١)]

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ أي: وأمّا من أعطي يومئذ كتاب أعماله بشماله.[(٢)]

وقوله تعالى: ﴿ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ أي: يقول لِما يرى فيهـــا مـــن الفضائح: ليتني لم أعط كتابي، و لم أعلم حسابي.[(٣)]

وقوله تعالى: ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴾ أي: يا ليت الموتة التي متّها في الدنيا كانت القاضية من كلّ ما بعدها، والقاطعة للحياة، فلم أحي بعدها؛ يتمنّى أنه لم يبعث للحساب.[(٤)]

قال قتادة[(٥)]: تمنى الموت و لم يكن في الدنيا شيءٌ عنده أكرهَ منه وشرًّا من الموت.[(٦)]

وقوله تعالى: ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ أي: ما نفعني؛ حيث لم أقدّم منه شيئا في الدنيا لهذا اليوم، و لم يدفع عني من عذاب الله شيئا.[(٧)]

وقوله تعالى: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ أي: ضلّت عني حجتي؛ و لم يدفع عني مـــالي ولا جـــاهي عذاب الله وبأسه؛ بل خلص الأمر إليّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير.[(٨)]

---

(١) سورة الحاقة الآية (٢٥-٢٩).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٢١٩/١٢).

(٣) ينظر تفسير النسفي (٢٧٦/٤)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٨٤٦).

(٤) ينظر تفسير البغوي (٣٥٨/٤).

(٥) سبقت ترجمته. ص (٢٣).

(٦) ينظر تفسير البغوي (٣٥٨/٤)، وفتح القدير (٣٩٨/٥).

(٧) ينظر تفسير البغوي (٣٥٨/٤)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٨٤٦).

(٨) ينظر تفسير البغوي (٣٥٨/٤)، وتفسير القرآن العظيم (٢٩٥٨/٤).

المطلب الثالث: تمني الكافر طاعة الرسل.

إنّ ممّا جرى للكفّار من التّمنيات في الموقف تمنيهم طاعة الرسول ﷺ، وذلك حينما رأوا أنّ سبب ما هم فيه من الغمّ والهمّ هو مفارقتهم طريق الرسول، ومخالفتهم لما جاء به من عند الله من الحق المبين؛ قال الله تعالى مخبرا عنهم: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾.[1]

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ أي: ويوم تشقّق السّماء عن الغمام؛ وجُعِلت « الباء » في قوله: « بِالْغَمَامِ » مكان « عن »؛ وهذا إخبار من الله تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، التي منها انشقاق السماء وتفطّرها، وانفراجها بالغمام؛ وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السماوات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.[2]

وقوله تعالى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ :أي الملك الثابت الذي لا يزول للرحمن يومئذ؛ لأنّ الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك في الحقيقة، وفائدة التقييد بالظرف أنّ ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصّةٌ في هذا اليوم؛ وأمّا فيما عداه من أيّام الدنيا فلغيره ملك في الصورة وإن لم يكن حقيقيا.[3]

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ أي: و يوم يعض الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندما و أسفا على ما فرّط في جنب الله، و أوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صدّه عن سبيل ربه يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول طريقا إلى النجاة من عذاب الله.[4]

---

(١) سورة الفرقان الآية (٢٥-٢٧).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٣٨٢/٩)، وتفسير القرآن العظيم (٢٠٨٠/٣).

(٣) ينظر فتح القدير (١٠٤/٤).

(٤) ينظر تفسير الطبري (٣٨٤/٩).

والظاهر أنّ العضّ هنا حقيقة؛ ولا مانع من ذلك، ولا موجب لتأويله. وقيل: هو كناية عن الغيظ والحسرة.

والمراد بالظالم كل ظالم يرد ذلك المكان، وينزل ذلك المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص؛ إذ الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.(١)

وهذا التمني قد صدر من الكفار أيضا وهم في النار، قال الله تعالى مخبرا عنهم: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ﴾ .(٢)

الدلالات العقدية.

يشتمل قوله تعالى حكاية عن الظالم في الموقف﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ على ما يلي:

- أن سعادة الدنيا والآخرة في طاعة الله ورسوله.

إنّ قول الكفّار في الموقف ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ دليل على أنّ النّجاة في الدنيا والآخرة في طاعة الله ورسوله، لذلك تمنى الكفّار لو أنهم قصروا الطاعة وصرفوها لله وللرسول ﷺ.

وقد كثرت النصوص من الكتاب والسنة في بيان أنّ مدار السعادة في الدنيا والآخرة على طاعة الله ورسوله، منها:

قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .(٣) وقوله عز وجلّ: ﴿ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُون ﴾ .(٤)

أي: الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله هم الفائزون بنجاتهم من العذاب لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأمّا من لم يتصف بوصفهم ، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.(٥)

---

(١) ينظر فتح القدير (١٠٤/٤).

(٢) سورة الأحزاب الآية (٦٦).

(٣) سورة النساء الآية(١٣).

(٤) سورة النور الآية(٥٢).

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص (٥٤٣).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيما ﴾ .[١]

فطاعة الله ورسوله، هي سبب السعادة عاجلا وآجلا، وكل شرّ وقع في العالم سببه مخالفة الرسول ﷺ والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول، وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها، إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتّب عليه، فطاعته عليه السلام هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين.[٢]

يقول ابن القيم [٣] رحمه الله:

«فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا وباطنا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإنّ كل ما دعا إليه ففيه الحياة فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة؛ وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ ».[٤]

---

(١) سورة الفتح الآية(١٧).

(٢) ينظر الرسالة التبوكية ص (٤٣).

(٣) سبقت ترجمته. ص (٤٨).

(٤) الفوائد ص (٨٨).

المطلب الرابع: تمني الكافر اتخاذ قرناء صالحين.

إنّ ممّا أخبر الله تعالى عن الكفّار من التمنيات في موقف القيامة تمنيهم اتّخاذ قرناء صالحين غير قرنائهم الذين أضلّوهم عن طاعة الله في الدنيا؛ قال الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ .(١)

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ﴾ هذا دعاء من الكافر على نفسه بالويل والثبور على مخالَلَته الكافر الذي أضلّه في الدنيا، متمنّيا أن لم يتخذ من صرفه عن الهدى، وعدل به عن طريق الضلالة حبيبا مصافيا.(٢)

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أي: والله لقد أضلني هذا الذي اتخذته خليلا عن القرآن، أو عن الموعظة، أو كلمة الشهادة، أو مجموع ذلك بعد إذ جاءني، وتمكّنْتُ منه، وقدرت عليه.(٣)

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ أي: يخذله عن الحق، ويقبّحه له، ويصرفه عنه؛ ويزيّن له الباطل، ويدعوه إليه، ويستعمله فيه، ثم يتخلّى عنه، ويتبرّأ منه.(٤)

وهذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها؛ ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، أو من تمام كلام الظالم، وأنه سمّى خليله شيطانا بعد أن جعله مضلاّ، أو أراد بالشيطان إبليس لكونه الذي حمله على مخاللة المضلّين.(٥)

وحكم هذه الآية عام في حقّ كل متحابَّيْن اجتمعا على معصية الله.(٦)

---

(١) سورة الفرقان الآية (٢٧-٢٩).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٠٨١)، وفتح القدير (١٠٥/٤)،وتيسير الكريم الرحمن ص(٥٥٣).

(٣) ينظر فتح القدير (١٠٥/٤).

(٤) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢٠٨٢)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٥٥٣).

(٥) ينظر فتح القدير (١٠٥/٤).

(٦) ينظر تفسير البغوي (٣١٢/٣).

الدلالات العقدية.

قد اشتمل قوله تعالى على لسان هذا الكافر: ﴿ يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ على ما يلي من الدلالات العقدية:

الأولى: بيان خطورة قرناء السوء.

إنّ في قوله تعالى حكاية عن الكافر: ﴿ يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ بيانا لما في اتخاذ القرناء السوء ومجالسة الأشرار من المخاطر والآثار السيئة، حيث ندم هذا الكافر –وقد فات أوان الندم– على اتّخاذه الأشرار من النّاس جلساء له من دون الأخيار، مبينا أنّ ذلك هو سبب ما هو فيه من الشقاء، حيث أضلّوه عن اتباع ما جاء به الرسول ﷺ،ولهذه المصائب والمخاطر المتسببة من الجلساء والقرناء الأشرار ورد النهي في القرآن الكريم والسنة المطهّرة عن مجالسة أهل الأهواء من الكفّار، وأمثالهم من المشككّين، والمستهزئين، والمبتدعين.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.[١] أي: إذا رأيت أولئك الذين يستهزئون بآياتنا ويسبّون من أنزلها، ومن تكلّم بها، ويكذّبون بها، فصدّ عنهم بوجهك ،وقم عنهم، ولا تجلس معهم.[٢]

وقد حذّر النبي ﷺ من مرافقة الأشرار بقوله: (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إمّا أن يحذيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحا طيبة. ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد ريحا خبيثة).[٣]

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى:

«وفيه فضيلة مجالسة الصالحين، وأهل الخير، والمروءة، ومكارم الأخلاق، والورع، والعلم،

---

(١) سورة الأنعام الآية(٦٨).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٥/٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب البيوع،باب في العطار وبيع المسك،برقم (٢١٠١)؛ ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب؛ باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء برقم (٢٦٢٨).

والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر، وأهل البدع، ومن يغتاب الناس، أو يكثر فجوره وبطالته؛ ونحو ذلك من الأنواع المذمومة ».[١]

وقال العيني[٢]«فيه النهي عن مجالسة من يتأذى بمجالسته كالمغتاب والخائض في الباطل والندب إلى من ينال بمجالسته الخير من ذكر الله وتعلم العلم وأفعال البر كلها».[٣]

وأمر النبي ﷺ بانتقاء الأخلاّء واختيارهم لكثرة ما يؤثّر القرين في قرينه فيقتدي ويتأسّى به في سلوكياته وأخلاقه، فقال ﷺ: (الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل).[٤] يعني الإنسان على عادة صاحبه وطريقته وسيرته، فليتأمّل المرء وليتدبّر من يصاحبه ويؤاخيه ويجالسه، فمن رضي دينه وخلقه خالَلَه، ومن لا؛ تجنّبه، فإنّ الطباع سرّاقة، والصحبة مؤثّرة في إصلاح الحال وإفساده.[٥]

ومن هذا المنطلق كان السلف رحمهم الله تعالى يمنعون من مصاحبة أهل البدع، والاستماع إليهم ، ومجالستهم، حفاظا على دينهم، وصيانة لعقيدتهم.

قال الحسن[٦]رحمه الله:

«لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم».[٧]

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/١٦٨).

(٢) سبقت ترجمته.ص (١٩٨).

(٣) عمدة القاري (١١/٢٢١).

(٤) رواه أبو داود في سننه، كتاب الادب، باب من يؤمر أن يجالس، برقم (٤٨٣٣)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، برقم (٢٣٧٨). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٩١٧/٣)، برقم (٤٠٤٦).

(٥) ينظر تحفة الأحوذي (٤٢/٧).

(٦) الحسن البصري هو الحسن بن أبي الحسن واسم أبيه يسار البصري، وأمه خيرة مولاة أم سلمة، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، رأى عليا وطلحة وعائشة، وكان عابدا ناسكا كثير العلم فصيحا؛ مات سنة ١١٠هـ وقد قارب التسعين. ينظر تهذيب التهذيب(١/٣٨٨-٣٩١).

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي(١/١٥٠).

وقال سفيان الثوري.[١]رحمه الله:«من أصغى إلى صاحب بدعة، خرج من عصمة الله ووكل إليها- يعني إلى البدعة ».[٢]

وقال أبو القاسم: [٣]« وترك مجالسة أهل البدعة ومعاشرتهم سنة لئلا تَعلق بقلوب الضعفاء المسلمين بعض بدعهم، وحتى يعلم الناس أنهم أهل بدع، ولئلا تكون مجالستهم ذريعة إلى ظهور بدعتهم».[٤]

قال الشيخ السعدي[٥]رحمه الله:« فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان، وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، ولْيُوال من ولايته فيها سعادته، ويعادي من تنفعه عداوته، وتضره صداقته، والله الموفق».[٦]

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، وكان آية في الحفظ، وكان ربما دلس توفي سنة ١٦١هـ ينظر تهذيب التهذيب (٥٦/٢-٥٧). وحلية الأولياء (٣٥٦/٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية(٣٤/٧،٢٦)؛ وابن بطة في الإبانة الكبرى ص: (٤٤٤)؛ وينظر شرح السنة للبربهاري ص: (١٢٧).

(٣) سبقت ترجمته ص (٢١).

(٤) الحجة في بيان المحجة (٥٥٠/٢).

(٥) سبقت ترجمته.ص (٣٩).

(٦) تيسير الكريم الرحمن ص (٥٥٣).

المطلب السادس: تمني الكافر عمل الصالحات في دنياه.

إنّ مما صدر من الكفّار في الموقف من التمنيات أيضا تمنيهم لو أنهم قدّموا أعمالا صـــالحة تنجيهم ممّا عاينوه من عذاب الله في ذلك اليوم؛ قال الله تعالى مخبرا عنـــهم: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾.[١]

الشرح.

يخبر تعالى عمّا يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: حقّـــا؛ ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ يعني إذا رجّت وزلزلت زلزلة، وحرّكت تحريكا بعد تحريك، ووطئت ومهّدت، وسوّيت الأرض والجبال، وقامت الخلائق من قبورهم لربهم.[٢]

وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ يعني: لفصل القضاء بين خلقه؛ وذلـــك بعـــدما يستشفعون إليه تعالى بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله عليه وسلامه عليـــه؛ فيجيء الربّ لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه تعالى صفوفا.[٣]

قوله تعالى: ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ أي: جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يقودونها، لها تغيّظ وزفير، حتى تنصب على يسار العرش.[٤]

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ يعني يوم يجاء بجهنم يتّعظ الكـــافر، ويظهـــر التوبة؛ ومن أين له التوبة!!!.[٥] وقيل: يتذكر الإنسان عمله، وما كان أسلفه، وكيـــف تنفعه الذكرى؛ وقد فات أوانها، وذهب زمانها؟! [٦]

---

(١) سورة الفجر الآية (٢١-٢٤).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٦٥٧)، وتفسير القرآن العظيم (٣٠٩١/٤).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٣٠٩١/٤).

(٤) ينظر تفسير البغوي (٤٥٤/٤).

(٥) ينظر تفسير البغوي (٤٥٤/٤).

(٦) ينظر تفسير القرآن العظيم (٣٠٩٢/٤)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٨٨٣).

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي: يقول متحسّرا ليتني قدّمت الخير والعمل الصالح لحياتي في الآخرة التي لا موت فيها.[١]

قال الحسن[٢]«علم والله أنه صادف هناك حياة طويلة لا موت فيها ».[٣]

وليس في هذا التمني شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله؛ وإنما يدلّ على اعتقاد كونه متمكّنا من تقديم الأعمال الصالحة في الدنيا.[٤]

قال الشيخ السعدي [٥]رحمه الله تعالى:

« وفي الآية دليل على أنّ الحياة التي ينبغي السّعي في أصلها وكمالها، وفي تتميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء ».[٦]

---

(١) ينظر تفسير البغوي (٤/٤٥٤)، وتيسير الكريم الرحمن ص (٨٨٣).

(٢) سبقت ترجمته.ص (٣٧٩).

(٣) الدر المنثور (٨/٥١٢).

(٤) ينظر روح المعاني (٣٠/١٢٩).

(٥) سبقت ترجمته.ص (٣٩).

(٦) تيسير الكريم الرحمن ص (٨٨٣).

المطلب السادس: تمني الكافر كونه ترابا.

من جملة ما حكى الله سبحانه وتعالى للكفّار من أمنيات في أرض الموقف تمنّيهم أن كانوا في الدار الدنيا ترابا،ولم يكونوا خلقوا وخرجوا من الوجود، قال الله تعالى مخبرا عن أمنيتهم تلك: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾.(١)

الشرح.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعني : إنّا حذّرناكم أيّها النّاس عذابا قد دنا منكم؛ وقرب.(٢)

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي: يُعرض عليه جميع أعماله؛ خيرها وشرّها، قديمها وحديثها.(٣)

وقيل: المعنى يوم ينظر المرء المؤمن ما قدّمت يداه من خير اكتسبه في الدنيا، أو شرّ سلفه، فيرجو ثواب الله على صالح أعماله، ويخاف عقابه على سيئها.(٤)

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ أي: يودّ الكافر يومئذ أنّه كان في الدار الدنيا ترابا، ولم يكن خُلِق ولا خرج إلى الوجود؛ وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة، وقد سطّرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة.

وقيل: إنما يودّ ذلك ويتمناه حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنّه تعالى ليقتصّ للشاة الجمّاء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابا، فتصير ترابا؛ فعند ذلك يقول الكافر: ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ أي: كنت حيوانا فأرجع إلى التراب.(٥)

---

(١) سورة النبأ الآية (٤٠).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٤١٨/١٢).

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٣٠٢٦/٤).

(٤) ينظر تفسير الطبري (٤١٨/١٢).

(٥) ينظر تفسير القرآن العظيم (٣٠٢٦/٤-٣٠٢٧).

الفصل الثاني: أقوال أهل الكتاب والمنافقين في الموقف.

إنّ هذين الصنفين من الكفّار من جملة من ثبت لهم أقوال خاصّة في الموقف؛ ولذا خصّوا بالذكر هنا بعد ذكر أقوال عامّة الكفّار في ذلك اليوم.

وفي المبحثين التاليين ذكر ما ورد في النصوص من مخاطباتهم في الموقف؛ مع دراستها.

المبحث الأول: أقوال أهل الكتاب في الموقف.

قد ثبت في السنة المطهّرة لكل من اليهود والنصارى أقوال في الموقف، يتم في المطلبين التاليين ذكرها.

المطلب الأول: أقوال اليهود في الموقف.

إنّ مما ثبت لليهود من مخاطبات في الموقف ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (أن أناسا في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: نعم، هل تضارّون في رؤية الشمس بالظهيرة ضوءٌ ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا قال: وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ضوءٌ ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا؛ قال النبي ﷺ:ما تضارّون في رؤية الله عز وجل يوم القيامة إلا كما تضارّون في رؤية أحدهما؛ إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذّن تتبع كل أمّة ما كانت تعبد، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار.حتى إذا لم يبق إلاّ من كان يعبد الله بر أو فاجر وغبّرات أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنّا نعبد عزيرا ابن الله؛ فيقال لهم: كذبتم ما اتّخذ الله من صاحبة ولا ولد. فماذا تبغون؟ فقالوا عطشنا ربنا فاسقنا، فيشار ألاّ تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار).(١)

الشرح.

قوله ﷺ:«حتى يبقى من كان يعبد الله من برّ أو فاجر، وغبرات من أهل الكتاب»قوله: «وغُبّرات أهل الكتاب» بضم الغين وتشديد الباء المفتوحة جمع غبّر، الذي هو جمع غابر، والمعنى: بقايا أهل الكتاب، مِنْ غبر الشيء، يغبر ، غبورا، إذا مكث، وبقي.(٢)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ برقم (٤٥٨١).

(٢) ينظر عمدة القاري (١٨/١٧٢).

ولّما كان اليهود وكذا النصارى ممن كان لا يعبد الأوثان لِما كانوا يدّعون أنهم يعبدون الله تعالى تأخّروا مع المسلمين؛ فلمّا حقّقوا على عبادة مـــن ذُكـــر مـــن الأنبيـــاء؛ ألحقـــوا بأصـــحاب الأوثان؛ فأمّا من كان متمسّكا بدينه الأصلي فلا يدخل في هذا.[١]

قوله ﷺ «فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟» قدّم اليهود في الخطاب بسبب تقدّم ملّتـــهم على ملة النصارى؛ والظاهر أنّ قائل ذلك لهم هو الملك الموكّل بذلك.[٢]

قوله ﷺ « قالوا: كنا نعبد عزيرا بن الله» قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «هـــذا فيـــه إشكال؛ لأنّ المتصف بذلك بعض اليهود، وأكثرهم ينكرون ذلك. ويمكن أن يجاب بـــأنّ خصوص هذا الخطاب لمن كان متصفا بذلك، ومن عداهم يكون جوابهم ذكر من كفروا به، كما وقع في النصارى، فإنّ منهم من أجاب بالمسيح ابن الله؛ مع أنّ فيهم من كـــان بزعمه يعبد الله وحده وهم الاتحادية الذين قالوا إنّ الله هو المسيح بن مريم».[٣]

قوله ﷺ« فيقال لهم كذبتم» التكذيب راجع إلى اعتقادهم كون عزير ابـــن الله ســـبحانه وتعالى؛ لا إلى قولهم إنهم كانوا يعبدونه.[٤]وفي هذا نفي اللازم وهو كونه ابن الله، ليلزم نفي الملزوم، وهو عبادة ابن الله.[٥]

---

(١) ينظر فتح الباري (٤٤٩/١١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فتح الباري (٤٤٩/١١).

(٤) ينظر عمدة القاري (١٢٩/٢٥).

(٥) ينظر فتح الباري (٤٤٩/١١).

الدلالات العقدية.

قد تضمّن ما حكاه الرسول ﷺ عن اليهود في هذا الحديث بما يلي:

- وجود فرقة من اليهود قالت ببنوّة عزير لله سبحانه وتعالى.

إنّ قول اليهود في الموقف:«كنّا نعبد عزير ابنَ الله» دليل على أنّه كان من اليهود من يعتقد بنوة عزير لله سبحانه، وسبب قولهم بذلك هو أنه هو الذي أعاد لهم التوراة بعد أن ضاعت، وأعاد لهم بناء الهيكل.(١)

قال ابن حزم رحمه عند تعداده فرق اليهود:«...والصدوقية؛ ونسبوا إلى رجل يقال له صدوق؛ وهم يقولون بين سائر اليهود إنّ العزير هو ابن الله تعالى الله عن ذلك؛ وكانوا بجهة اليمن...».(٢)

وهذه الفرقة قد انقرضت؛ و لم يبق من الفرق اليهودية المشهورة من يقول بهذا القول.(٣)

---

(١) ينظر الموسوعة الميسرة (٢/٥٠٥).

(٢) الفصل (١/٨٢).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٨/١٠٧).

المطلب الثاني: أقوال النصارى في الموقف.

إنّ مما ثبت للنصارى من الأقوال في الموقف ما ورد في تتمة حديث أبي سعيد الخدري السابق: أنّ النبي ﷺ قال:

(...ثم يدعى النصارى؛ فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله. فيقال لهم: كذبتم؛ ما اتّخذ الله من صاحبة ولا ولد؛ فيقال لهم ما تبغون؟ فكذلك مثل الأوّل).[١]

الدلالات العقدية.

دلّ ما حكاه النبي ﷺ عن النصارى في الموقف على ما يلي:

- اعتقاد النصارى بأنّ المسيح ابن الله سبحانه.

إنّ القول بألوهية المسيح وأنّه ابن الله تعالى واضح في الديانة النصرانية المحرّفة؛ بل هو أصل من أصولها التي اتّفقت عليه طوائف النصارى المشهورة، فهي كلها تقول بالأقانيم الثلاثة الأب؛ والابن؛ وروح القدس؛ وتقول عن الله ثالث ثلاثة، وتقول عن المسيح عليه السلام إنه ابن الله.[٢]

وقد دعا النصارى إلى القول بهذه الفرية على الله تعالى وعلى عبده المسيح عليه السلام أمور منها:

- ما رأوا من إحيائه عليه السلام الموتى مع كونه من غير أب.[٣]
- ما ورد في كتبهم من إطلاق أبوة الله للمسيح؛[٤]

ومن الأمثلة على ذلك:

ما ورد في إنجيل متى من كلام عيسى عليه السلام على زعمهم:

---

(١) سبق تخريجه ص (٣٨٤).

(٢) ينظر قاموس الكتاب المقدس ص (٣٢٣)، والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ص (٤٦). ودقائق التفسير (٢/٣٠).

(٣) ينظر فتح القدير (٢/٥١٢).

(٤) ينظر الجواب الصحيح (٣/٢٣٦)،ودراسات في الأديان ص (٢٣٨).

« فكل من يعترف بي قدّام الناس، أعترف له أنا أيضا قدّام أبي الذي في السماء»؛
وقوله عن وقت القيامة «وأمّا ذلك اليوم فلا يعلم بها أحد من ملائكة السماوات إلاّ أبي وحده».(١)

والجواب عن هذا من وجوه:

الأول: أنّ النّصارى اعتمدوا في إثبات هذا على ألفاظ وردت في الأناجيل، وهذه الأناجيل لا تصلح أن تكون مستندا لهذا؛ لأنها كتب غير موثوقة، إذ لم يستطع النّصارى أن يثبتوا صحة نسبتها إلى الأشخاص الذين نسبت إليهم؛ فضلا عن أن ينسبوها إلى المسيح عليه السلام أو إلى الله تعالى.(٢)

الثاني: أنّ نسبة الأبوة إلى الله تعالى ليست خاصّة بالمسيح لديهم؛ حيث ورد في كتبهم تسمية الله أبا لغير المسيح عليه السلام ؛ فقد نقلوا فيها أنّ الله قال لإسراءيل (يعقوب عليه السلام): « أنت ابني البكر »؛ وقال لداود: عليه السلام « ابني وحبيبي»؛ وقال المسيح عليه السلام مخاطبا الحواريين:«أبي؛ وأبيكم»؛ وهم يسلّمون أنّ المراد بهذا في حقّ غير المسيح معنى الرب، لا معنى التولّد الذي يخصّون به المسيح عليه السلام. وعليه؛ فهذا حجة عليهم، لأنه إذا ورد تسميته تعالى أبا لغير المسيح في كتبهم؛ وليس المراد بذلك إلاّ معنى الرب؛- أي:أبوة النعمة والإحسان- عُلم أنّ هذا اللفظ في لغة كتبهم يراد به ذلك، فيجب حمله في حقّ المسيح على هذا المعنى.(٣)

---

(١) ينظر دراسات في الأديان ص (٢٣٨).

(٢) ينظر دراسات في الأديان ص (٢٣٩).

(٣) ينظر الجواب الصحيح (٢٣٩/٣)، ودراسات في الأديان ص (٢٤١).

المبحث الثاني: أقوال المنافقين في الموقف.

إنّ ممّا حكاه الله تعالى من أقوال الكفّار في الموقف أيضا مخاطبات أهل النفاق، فقد ثبت في النّصوص أنهم خاطبوا الله تعالى في الموقف، وخاطبوا كذلك أهل الإيمـــان؛ وفي المطلـــبين التاليين ذكر هذه المخاطبات مع دراستها، بإذن الله تعالى.

المطلب الأول: مخاطبات المنافقين للرب سبحانه وتعالى.

ثبت من أقوال المنافقين في الموقف ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال:(قالوا يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا: لا، قال: فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ قالوا: لا؛ قال: فوالذي نفسي بيده؛ لا تضارون في رؤية ربكم إلاّ كما تضارون في رؤية أحدهما.قال: فيلقى العبدَ فيقول: أي فُلُ؛ ألم أكرمك، وأســوّدك، وأزوّجــك، وأسخّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول أفظننت أنـــك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني.

ثم يلقى الثاني؛ فيقول: أي فل؛ ألم أكرمك، وأسوّدك، وأزوّجك، وأسخّر لـــك الخيـــل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي ربّ؛ فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا؛ فيقول: فإني أنساك كما نسيتني.

ثم يلقى الثالثَ فيقول له مثل ذلك؛ فيقول: يا ربّ آمنت بـــك وبكتابـــك وبرســـلك، وصلّيت، وصمت، وتصدّقت، ويثني بخير ما استطاع؛ فيقول: ههنا إذا؛

قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكّر في نفسه من ذا الذي يشهد علـــيّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي؛ فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه).(١)

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٨٨).

الشرح.

قوله ﷺ «فيقول أي فل» هو بضمّ الفاء وإسكان اللام؛ ومعناه: يا فلان.[١]

وقوله ﷺ « أسودك » أي: أجعلك سيدا على غيرك.[٢]

قوله ﷺ:« وأذرك ترأس » أي: جعلتك رئيس القوم وكبيرهم.

وقوله ﷺ «وتربع » أي: وتأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها. يقال: ربعتهم أي: أخذت ربع أموالهم. وقيل: معناه تركتك مستريحا لا تحتاج إلى مشقة وتعب؛ من قولهم: أربع على نفسك أي: ارفق بها.[٣]

وقوله ﷺ:« فيقول ههنا إذا » أي: قف هاهنا حتى يشهد عليك جوارحك، إذ قد صرت منكرا.[٤]

---

(١) ينظر شرح النووي على مسلم (١٠٣/١٨).

(٢) ينظر الديباج (٢٨٣/٦).

(٣) ينظر شرح النووي على مسلم (١٠٤/١٨).

(٤) المصدر نفسه.

المطلب الثاني: مخاطبات المنافقين لأهل الإيمان.

إنّ مما حكاه الله تعالى من أقوال المنافقين في الموقف مخاطبتهم لأهل الإيمان حينما قسّمت الأنوار،فرأوا المؤمنين يمشون بنورهم، وقد طفئ نور المنافقين، وبقوا في الظلمات حائرين. قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾.[(١)]

وقد سبق شرح هذه الآية واستخلاص ما فيها من دلالات عقدية عند مبحث «مخاطبات المؤمنين للكفار»، وإنما أعيد ذكرها هنا لما فيها من حكايته تعالى مخاطبات المنافقين لأهل الإيمان بقوله: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ وقولـــه: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾.

وهذا آخر ما تيّسر جمعه من أقوال المكلّفين في البرزخ والموقف، ولله تعالى الحمد في البدء والختام، وهو تعالى أعلم، وصلّى على نبينا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا؛ والحمد لله ربّ العالمين.

(١) سورة الحديد الآية (١٣-١٤).

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آلـــه وصحبه أجمعين.

وبعد هذه الجولة الطويلة في ثنايا ما حكاه الله تعالى عن المكلّفين من أقوال في البرزخ وفي الموقف يجد الباحث نفسه ليسجّل أهم النتائج التي توصل إليها والتي من أهمها:

- كثرة ما حكاه الله سبحانه وأخبر به الرسول ﷺ مما يصدر عن الناس من الأقـــوال في البرزخ والموقف، وأنّ ذلك كله من كمال علمه تعالى المحيط الشامل لأخبار العبـــاد وأحوالهم مما كان منهم ويكون.
- كمال رحمته تعالى حيث إنه سبحانه يخبر عباده ما سيجري منـــهم مـــن مخاطبـــات ويصدر منه من أقوال، ويعلمهم تفاصيل ما يحصل لهم في البرزخ والموقف ليكون ذلك عونا للمطيع على الاجتهاد وحضا له على الصبر، ويكون كذلك زجـــرا للعاصـــي وردعا له وتحذيرا، وتنبيها له من الغفلة. فالله سبحانه إنما يُعلم عباده بجزئيـــات يـــوم القيامة؛ ليكون السامع على بصيرة، فيخلّص نفسه من ذلك الهـــول، لأنّ في معرفـــة جزئيات الشيء قبل وقوعه رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها، بخلاف مجيء الأمر بغتة.(١)

قال الله سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ .(٢)

أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان العربي الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفـــى عليكم لفظه ولا معناه، وذكرنا فيه أنواعا من الوعيد؛ تارة بذكر أسماء الله تعالى الدالة على العدل والانتقام؛ وتارة بذكر المثلات التي أحلها بالأمم السابقة؛ وتارة بذكر آثار الذنوب وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة وما فيها من المزعجـــات والمقلقات؛ وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب، كل ذلك رحمة بالعباد، لعلهم يتّقون الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم.(٣)

---

(١) ينظر فتح الباري (٣٧٥/١١).

(٢) سورة طه الآية (١١٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص (٤٨٦).

- كثرة أدلة العقيدة وتوفرها، وسهولة الوقوف عليها لمن أراد أخذها من خلال الكتاب والسنة، حيث تم الاستدلال بما حكى الله تعالى من كلام أهل البرزخ والموقف على كثير من أصول العقيدة، وهذا التسهيل والتوفير لأدلة التوحيد نابع عن شدة حاجة العباد إليها، فمن كمال الرب سبحانه وتعالى، وتمام نعمته، وبلوغ حكمته، أنه كل ما كانت حاجة العباد إلى الشيء أشدّ وأكبر، كان بذله لهم أكثر، وطرق وصولهم إليه أيسر وأسهل، وهذا في الخلق والأمر.

فإن حاجتهم لما كانت إلى الهواء أكثر من الماء والقوت —مثلا- كان موجودا معهم في كل مكان وزمان، ولَمّا كانت حاجة العباد إلى أدلة التوحيد ماسة، ومعرفتهم لها ضرورة، كان اشتمال القرآن والسنة بل والكتب الإلهية عليه أكثر من اشتمالها على ما عداها، وذلك لشرفها وعظمتها، وشدة الحاجة إلى معرفتها.(١)

- تكامل الوحيين- القرآن والسنة- في عرض القضايا وبسط الأحكام، من حيث إذا أجمل في أحدهما قضيةٌ ما؛ جاءت في الثاني-غالبا- مفصّلة، وهذا الذي حصل في طريقتهما في عرض أحوال الناس وأقوالهم في البرزخ ، حيث مجملة في القرآن مفصلة في السنة أيما تفصيل؛ وهذا إنما يدل على أنّ أحدهما لا يغني عن الآخر بحال، فقد ورد في القرآن فرائض من أصول الدين لم يعرف تحديدها ولا كيفية أدائها إلا عن طريق السنة، وذلك مثل عدد الصلوات في اليوم، وعدد الركعات في كل صلاة، وعدد أشواط الطواف، وأنصبة الزكاة، وغير ذلك من الأمور المجملة في القرآن وفسرته السنة.(٢)

- أنّ ما ورد في اختلاف أسئلة الملائكة في البرزخ كمّا وكيفيّة إنما يرجع إلى تفاضل الناس في الإيمان؛ فمن كان إيمانه أكمل وأفضل؛ كانت فتنته بالأسئلة أخفّ وأقلّ، ومن كان إيمانه أنقص وأضعف وأعماله أقل؛ كانت فتنته بالأسئلة أكثر وأشد. أو يكون بعض الرواة اقتصر على بعض السؤال، وأتى به غيره على الكمال.

وعلى هذا أيضا يُحمل ما ورد في اختلاف أجوبة أهل الإيمان عن أسئلة الملائكة.

---

(١) ينظر الصواعق المرسلة (١/٣٦٥-٣٦٦).

(٢) ينظر الحجة في بيان المحجة (١/٣٥٤-٣٥٧).

- أنّ ما ثبت في النصوص من أحوال الخلق وأقوالهم يوم القيامة مما ظاهره التّعارض إنما يعود غالبا على اختلاف أحوال الناس من حيث الإيمان وعدمه، أو على اختلاف المقام حيث يكون للخلق فيه عدة مقامات، كمقام البعث، ومقام الحشر، ومقام الحساب فقد يثبت لهم شيء في مقام ما، وينفى عنهم في مقام آخر؛ أو يعود ذلك على طول ساعات ذلك اليوم واختلاف فتراتها.
- أنّ أمور الآخرة ليس للعقل فيها مجال، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس، ولا عادة؛ وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب؛ ومن توقّف في ذلك دلّ على خسرانه وحرمانه.

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الفرق والمذاهب

فهرس المصادر والمراجع

الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق: د. فوقية حسين محمود ط الأولى: ١٣٩٧هـ، دار الأنصار، القاهرة.

الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لأبي عبد الله عبيدالله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق : د.عثمان عبد الله آدم الأثيوبي، ط الثانية، ١٤١٨هـ.دار الراية – الرياض.

إثبات عذاب القبر، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د. شرف محمود القضاة، ط الثانية: ١٤٠٥هـ، الناشر: دار الفرقان، الأردن.

الإحكام في أصول الأحكام لعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي، ط الأولى ، ١٤٠٤هـ دار الحديث القاهرة.

إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، وبذيله المغني عن حمل الأسفار لأبي الفضل عبد الرحيم العراقي، ط الأولى ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان.

الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، لـ د. صالح بن فوزان الفوزان، ط الأولى: ١٤٢٤هـ .

الأسماء والصفات للإمام أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي،تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي،ط الأولى ١٤١٣هـ، مكتبة السوادي- جدة.

الإصابة في تمييز الصحابة، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط الأولى: ١٤١٢هـ دار الجيل، بيروت.

أصول الإيمان لمحمد بن عبد الوهاب، تحقيق : باسم فيصل الجوابرة.

الأصول من الكافي، لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي، ط الثالثة: ١٣٨٨هـ دار الكتب الإسلامية، طهران.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي الموريتاني المالكي الأفريقي، وتتمته لتلميذه عطية محمد سالم ويليه: دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب لمحمد الأمين الشنقيطي، اعتناء الشيخ صلاح الدين العلايلي، ط الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، دار إحياء التراث العربي.

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط الثانية: ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م، دار المعرفة، بيروت.

الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني، تحقيق: محمد زاهد بن حسن الكوثري، ط الثانية، مؤسسة الخانجي.

إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، لمحمد بن إبراهيم بن علي

بن المرتضى الحسني القاسمي، ط الثانية ، ١٩٨٧م دار الكتب العلمية - بيروت.
الإيمان (معالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته) لأبي عبيد القاسم ابن سلام، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني، ط الأولى - ١٤٢١ هـ -٢٠٠٠ م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض.
اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم محمد بن أبي بكر الزرعي، ط الأولى ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م دار الكتب العلمية – بيروت.
اعتقاد أئمة الحديث، لأبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، ط الأولى: ١٤١٢هـ دار العاصمة، الرياض.
الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، ط الأولى: ١٤٠١هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس تحقيق : محمد حامد الفقي، ط الثانية ، ١٣٦٩هـ.مطبعة السنة المحمدية – القاهرة.
بطلان عقائد الشيعة وبيان زيغ معتنقيها ومفترياتهم على الإسلام من مراجعهم الأساسية، لمحمد عبد الستار التونسوي، ط ١٤٠٨هـ دار العلوم للطباعة، القاهرة.
بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، للحافظ نور الدين الهيثمي، تحقيق : د. حسين أحمد صالح الباكري، ط الأولى ، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٢م. الناشر: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
بغية المستفيد بشرح منية المريد، لمحمد بن العربي السائح التيجاني، ط ١٣٨٠هـ مطبعة الحلبي، مصر.
تأويل مختلف الحديث، لعبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق : محمد زهري النجار، ط ١٣٩٣ - دار الجيل – بيروت.١٩٧٢
تاريخ بغداد لأحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية – بيروت.
تحفة الأحباب- الرسالة التبوكية للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المشهور بابن القيم، ط الثانية ١٤٠٤هـ١٩٨٤م. طبع الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض- المملكة العربية السعودية.
تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية – بيروت.
التدمرية، تحقيق الإثبات للأسماء والصفات، وحقيقة الجمع بين الشرع والقدر، لشيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق د/محمد بن عودة السعوي، ط الخامسة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، مكتبة العبيكان.

التدمرية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: د. محمد بن عودة السعوي، ط الخامسة: ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، مكتبة العبيكان، الرياض.
التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط الأولى ١٤٠٥هـ دار الكتاب العربي، بيروت.
تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي- لبنان.
تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، ط الأولى: ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، دار ابن حزم، بيروت.
التفسير الكبير للفخر الرازي، ط الثالثة، دار الكتب العلمية، طهران.
تفسير مجاهد، لمجاهد بن جبر المخزومي تحقيق : عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي، المنشورات العلمية – بيروت.
التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي،ط الثانية١٣٩٦هـ،دار الكتب الحديثة.
تقريب التهذيب، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، ط الأولى: ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، دار الرشيد، سوريا.
تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل لأبي بكر محمد بن الطيب بن جعفر الباقلاني، تحقيق : عماد الدين أحمد حيدر ط الأولى ، ١٩٨٧م.مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.
التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي ،محمد عبد الكبير البكري، ط ١٣٨٧ وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب.
التنبيه والرد على أهل الأهواء، لأبي الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، ط الثانية: ١٩٧٧م، المكتبة الأزهرية، القاهرة.
التنبيهات اللطيفة للشيخ عبد الرحمن السعدي. دون سنة الطبع والتاريخ.
تهذيب التهذيب، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط الأولى: ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، دار الفكر، بيروت.
التوسل أنواعه وأحكامه لمحمد ناصر الدين الألباني، تنسيق محمد عيد العباسي، ط الثالثة، المكتب الإسلامي – بيروت.
التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية، للأستاذ محمد الفقي، ط الأولى: ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم لأحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق : زهير الشاويش، ط الثالثة، ١٤٠٦هـ المكتب الإسلامي – بيروت.
تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلى اللويحق، ط الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، دار ابن حزم، بيروت.
الجامع الصحيح سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى أبي عيسى الترمذي السلمي، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
جامع كرامات الأولياء، ليوسف النبهاني، تحقيق: إبراهيم عقوة، ط ١٤١١هـ المكتبة الثقافية، بيروت.
الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد بن أبي بكر بن الفرج القرطبي ط الأولى دار الحديث –القاهرة.
الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين لوليد بن أحمد الحسين ط الأولى ١٤٢٢هـ، مجلة الحكمة- بريطانيا.
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، تحقيق : د.علي حسن ناصر،د.عبد العزيز إبراهيم العسكر د. حمدان محمد، ط الأولى ، ١٤١٤هـ. دار العاصمة – الرياض.
الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) لابن القيم محمد بن أبي بكر الزرعي دار الكتب العلمية – بيروت.
جواهر المعاني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، لعلى حرازم براده، ط ١٢٨٠هـ مطبعة الحلبي، مصر.
حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية تحقيق علي الشر بجي وقاسم النوري،الطبعة الأولى ١٤١٢هـ١٩٩٢م.
حاشية السندي على النسائي، لنور الدين بن عبدالهادي أبي الحسن السندي، تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة، ط الثانية ، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م.مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب.
الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إملاء الحافظ أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي المدخلي، ط الثانية: ١٤١٩هـ ١٩٩٩م، دار الراية، الرياض.
الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار؛ لدكتور غالب عواجي ط الأولى ١٤١٧هـ١٩٩٧م، دار لينة –مصر.
خلق أفعال العباد لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق : د. عبدالرحمن عميرة ط،١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨م. دار المعارف السعودية – الرياض.
الخوارج أول فرقة في تاريخ الإسلام؛ مناهجهم وأصولهم وسماتهم قديما وحديثا، للدكتور ناصر عبد

الكريم العقل ط الأولى ١٤١٦هـ، دار الوطن- الرياض.

الدر المنثور، لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، ط ١٩٩٣م. دار الفكر - بيروت

دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية، لـ د. سعود بن عبد العزيز الخلف، ط الثالثة، مكتبة أضواء السلف، الرياض.

دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، لـ د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ط الأولى: ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، مكتبة الرشد، الرياض.

الذيل على طبقات الحنابلة، لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق د/عبد الرحمن بن سليمان العثيمين،ط الأولى ١٤٢٥هـ،مكتبة العبيكان- الرياض.

الرد على البكري لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، تحقيق : محمد علي عجال ط الأولى ، ١٤١٧هـ،مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة المنورة.

الرد على الجهمية لأبي سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي، تحقيق : بدر بن عبدالله البدر ، ط الثانية ، ١٩٩٥م. دار ابن الأثير - الكويت.

الرد على الزنادقة والجهمية لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق : محمد حسن راشد، ط ١٣٩٣هـ المطبعة السلفية - القاهرة.

رسالة الشرك ومظاهره، لمبارك بن محمد الميلي، تحقيق: أبي عبد الرحمن محمود، ط الأولى: ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، دار الراية، الرياض.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل محمود الألوسي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة لابن القيم دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.

رياض الجنة لتخريج أصول السنة، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأندلسي الشهير بابن أبي زمنين، تحقيق وتخريج: عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، ط الأولى: ١٤١٥هـ، مكتبة الغرباء، المدينة المنورة.

زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط الثالثة ، ١٤٠٤هـ.المكتب الإسلامي - بيروت.

زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط الثالثة: ١٤٠٤هـ المكتب الإسلامي، بيروت.

زاد المعاد في هدي خير العباد لمحمد بن أبي بكر الزرعي ابن القيم، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - عبد

القادر الأرناؤوط، ط الرابعة عشر ، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦م.مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت – الكويت.

الزهد، لعبد الله بن المبارك بن واضح المروزي، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية –بيروت.

سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، ط الأولى ١٤١٦هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني الأزدي، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الفكر، بيروت.

سنن ابن ماجه، لمحمد بن يزيد أبي عبدالله القزويني، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ط: دار الفكر، بيروت.

سير الأعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط الأولى: ١٤٠٥هـ ١٩٨٤، مؤسسة الرسالة، بيروت.

شجرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن عماد الحنبلي، ط الثانية: ١٣٩٩هـ دار إحياء التراث العربي.

شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، لهبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم؛ تحقيق : د. أحمد سعد حمدان؛ ط ١٤٠٢هـ، دار طيبة – الرياض.

شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، تحقيق عبد الكريم عثمان، ط الثانية، مكتبة وهب بمصر.

شرح السنة للإمام أبي الحسن بن علي بن خلف البربهاري، تحقيق خالد بن قاسم الردادي، ط الخامسة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، دار الصميعي – الرياض- المملكة العربية السعودية.

شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي،ط الأولى ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية- بيروت.

شرح العقيدة السفارينية للشيخ محمد بن صالح العثيمين،ط الأولى١٤١٦هـ مدار الوطن.الرياض.

شرح العقيدة الطحاوية، للإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط، ط الثانية: ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس،ط الثانية ١٤١٤هـ،دار الهجرة – الرياض.

شرح القصيدة النونية المسماة: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية د/محمد خليل هراس، ط الأولى ١٤٠٦هـ١٩٨٦م، دار الكتب العلمية-بيروت.

شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد تأليف موفق الدين ابن قامة المقدسي شرح محمد بن صالح العثيمين.دار ابن خزيمة الطبعة الأولى ١٤١٧هـ١٩٩٧م.

الشريعة للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق د.عبد الله بن عمـــر الـــدميجي، ط الأولى ١٤١٨هــ، دار الوطن- الرياض.
شعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلـــول، ط الأولى ، ١٤١٠هــ، دار الكتب العلمية – بيروت.
صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمـــي البســـتي، تحقيـــق : شعيب الأرنؤوط، ط الثانية ، ١٤١٤هـــ - ١٩٩٣م.مؤسسة الرسالة – بيروت.
صحيح ابن خزيمة لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيســـابوري، تحقيـــق : د. محمـــد مصطفى الأعظمي، ط، ١٣٩٠ هــ- ١٩٧٠م المكتب الإسلامي – بيروت.
صحيح سنن أبي داود لمحمد ناصر الدين الألباني، ط الأولى١٤٠٩،المكتب الإسلامي بيروت.
صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري ،تحقيق : محمد فؤاد عبد البـــاقي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
الصلة بين التصوف والتشيع، لـــ د. كامل مصطفى الشيـــبـــي، ط الثانية.
الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي ابن القيم، تحقيق : د. علي بن محمد الدخيل الله، ط الثالثة ، ١٤١٨هـــ – ١٩٩٨م،دار العاصمة – الرياض.
ضعيف الترغيب والترهيب لمحمد ناصر الدين الألباني،مكتبة المعارف – الرياض.
طبقات أعلام الشيعة المسمى: نوابغ الرواة في رابعة المئات، لآغا بزرك الطهراني، ط دار الكتاب العربي، بيروت.
طبقات المفسرين لأحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، ط الأولى ١٤١٧هــــــ ١٩٩٧م، مكتبة العلوم والحكم.
طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، تحقيق عبد السلام عبد المعين، ط الأولى ١٤٢٢هـــ ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، لمحمد النور بن ضـــيف الله، تحقيق: يوسف الفضل، ط ١٩٩٢م، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم.
طريق الهجرتين وباب السعادتين لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم، تحقيق : عمر بن محمود أبو عمر، ط الثانية ، ١٤١٤ هــ- ١٩٩٤م. دار ابن القيم – الدمام.
ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم لمحمد ناصر الدين الألباني، ط الثالثـــة – ١٤١٣هـــــــ- ١٩٩٣م.المكتب الإسلامي – بيروت.
العاقبة في ذكر الموت لعبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي أبو محمد تحقيق : خضر محمـــد خضر،ط الأولى ، ١٤٠٦ - ١٩٨٦مكتبة دار الأقصى – الكويت.

العبودية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، شرح: عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، ط الأولى: ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، دار الفضيلة، الرياض، دار ابن حزم، بيروت.

العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) لمحمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني، تحقيق : أبو محمد أشرف بن عبد المقصود ط الأولى ، ١٩٩٨م مكتبة أضواء السلف —الرياض.

علماء نجد خلال ثمانية قرون لعبد الله بن عبد الرحمن آل بسام، ط الثانية ١٤١٩هـ، دار العاصمة — الرياض.

العلو للعلي الغفار، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق : أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود، ط الأولى ١٩٩٥،مكتبة أضواء السلف — الرياض.

عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي، ط الثانية ، ١٤١٥هـ. دار الكتب العلمية — بيروت.

غريب الحديث لإبراهيم بن إسحاق الحربي ، تحقيق : د. سليمان إبراهيم محمد العايد، ط الأولى ، ١٤٠٥هـ، جامعة أم القرى - مكة المكرمة.

غريب الحديث لابن الجوزي أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن عبيدالله، تحقيق : د.عبدالمعطي أمين قلعجي، ط الأولى ، ١٩٨٥م. دار الكتب العلمية - بيروت.

الفائق في غريب الحديث لمحمود بن عمر الزمخشري، تحقيق : علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الثانية؛ دار المعرفة — لبنان.

فتاوى أركان الإسلام لمحمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان، ط الأولى ١٤٢١هـ، دار الثريا- الرياض.

فتاوى أركان الإسلام، لمحمد بن صالح بن عثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، ط الأولى: ١٤٢١هـ دار الثريا، الرياض.

الفتاوى الكبرى لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، تحقيق : حسنين محمد مخلوف، ط الأولى ، ١٣٨٦هـ دار المعرفة — بيروت.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط ١٣٧٩هـ دار المعرفة، بيروت.

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، تعليق سعيد محمد اللحام، ط الأولى ١٤١٢هـ، دار الفكر.

فرق الشيعة، لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي، ط ١٣٥٥هـ ١٩٣٦م، المطبعة الحيديرية، النجف.

الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، ط

الثانية: ١٩٧٧م، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لــ د. غالب بن علــي العــواجي، ط الرابعة: ١٤٢٢هــ ٢٠٠١م، المكتبة العصرية الذهبية، الرياض.
الفصل في الملل والأهواء والنحل لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم مكتبة الخانجي – القاهرة.
الفوائد لمحمد بن أبي بكر الزرعي ابن القيم، ط الثانية ، ١٣٩٣ هــ- ١٩٧٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.
فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي، تعليق ماجد الحموي، ط الأولى ، ١٣٥٦هــ
قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: عبد القــادر الأرنؤوط، ط الثانية: ١٤٢٢هــ ٢٠٠٢م، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض.
قاموس الكتاب المقدس، تأليف: نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومــن اللاهــوتيين، ط الثانيــة عشرة، دار مكتبة العائلة، القاهرة.
قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر لمحمد صديق حسن خان القنوجي، تحقيق : د.عاصم بن عبدالله القريوتي، ط الأولى ، ١٩٨٤م، عالم الكتب - بيروت.
كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكــر بــن فــرج الأنصاري القرطبي، تحقيق: د. الصادق بن محمد بن إبراهيم، ط الثانيــة ١٤٢٦هــــ، مكتبــة دار المنهاج، الرياض.
كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزوجل لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق : د.عبــد العزيز بن إبراهيم الشهوان، ط الخامسة ، ١٩٩٤م، مكتبة الرشيد – الرياض.
كتاب الشريعة للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري،الطبعة الأولى ١٤١٨هــ ١٩٩٨م دار الوطن –الرياض.
لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، ط الأولى دار صادر، بيروت،.
لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق : بدر بن عبد الله البدر، ط الأولى ، ١٤٠٦هــ،الدار السلفية – الكويت.
المجتبى من السنن، لأحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي، تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة ط الثانيــة: ١٤٠٦هــ ١٩٨٦م، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
مجموع الفتاوى لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس،جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمــد بن قاسم؛ ط ١٤١٦هــ؛ ١٩٩٥م؛ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق : محمود خــاطر ط ، ١٤١٥ هــــ- ١٩٩٥م.مكتبة لبنان ناشرون – بيروت.

مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، للشيخ محمد بن الموصلي، تحقيق: سيد إبـــراهيم، ط الأولى: ١٤٢٢هـــ ٢٠٠١م، دار الحديث، القاهرة.
مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعـــي، تحقيق : محمد حامد الفقي، ط الثانية ، ١٣٩٣ هــ- ١٩٧٣م.دار الكتاب العربي – بيروت.
المستدرك على الصحيحين، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق : مصطفى عبـــد القادر عطا، بيروت ط الأولى ، ١٤١١ هــ- ١٩٩٠م. دار الكتب العلمية – يروت.
مسند أبي يعلى لأحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي، تحقيق : حسين ســـليم أســـد، ط الأولى ، ١٤٠٤ هــ- ١٩٨٤م، دار المأمون للتراث – دمشق.
مسند الإمام أحمد بن ، أشرف على تحقيقه الشيخ شعيب أرنؤوط، ط الأولى ، مؤسســـة الرســـالة- بيروت.
مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريـــزي؛ محمـــد ناصـــر الـــدين الألبـــاني؛ط الثالثـــة ١٤٠٥هـــ١٩٨٥م، المكتب الإسلامي- بيروت.
مصنف عبد الرزاق أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق : حبيب الـــرحمن الأعظمـــي، ط الثانية ، ١٤٠٣هـــ. المكتب الإسلامي – بيروت.
المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق : كمال يوسف الحوت، ط الأولى ، ١٤٠٩هـــ.مكتبة الرشد – الرياض.
معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، للحافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق: عمـــر بـــن محمود أبو عمر، ط الأولى ١٤١٨هـــ ١٩٩٧م، دار ابن حزم، بيروت، دار ابن القيم، الدمام.
معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، ط الأولى: ١٤١٤هـــ ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.
معجم ألفاظ العقيدة لأبي عبد الله عامر عبد الله فالح، تقديم الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، ط الأولى ١٤١٧هـــ ١٩٩٧م، مكتبة العبيكان ــــ الرياض.
المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد الســـلفي، ط الثانية ، ١٤٠٤ هــ- ١٩٨٣م.مكتبة العلوم والحكم – الموصل.
معجم المؤلفين المعاصرين في آثارهم المخطوطة والمفقودة، لمحمد خير رمضان يوسف، مكتبة الملك فهد الوطنية- الرياض.

معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، تأليف عمر رضا كحالة، ط الأولى١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة.
مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لأبي بكر محمد بن أيوب الزرعي ابن القيم دار الكتب العلمية – بيروت.
المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني؛ ط الأولى ١٤١٨هـ–١٩٩٧م، مكتبة نزار مصطفى الباز–مكة المكرمة.
مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ١٤١١هـ ١٩٩٠م، المكتبة العصرية، بيروت.
مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها، لـ د. جابر إدريس بن علي أمير، ط الأولى: ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، مكتبة أضواء السلف، الرياض.
المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق : بسام عبد الوهاب الجابي، ط الأولى ، ١٤٠٧ هـ– ١٩٨٧م، الجفان والجابي – قبرص.
المكتبة التجارية الكبرى – مصر.
معتقد فرق المسلمين واليهود والنصارى والفلاسفة والوثنين في الملائكة المقربين، لدكتور محمد عبد الوهاب العقيل، ط الأولى ١٤٢٢هـ، مكتبة أضواء السلف– الرياض.
الملل والنحل، لمحمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط ١٤٠٤هـ دار المعرفة، بيروت.
المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي ط الثانية ، ١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
المواقف لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق : د.عبد الرحمن عميرة، ط الأولى ١٩٩٧م دار الجيل – بيروت.
الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف: د. مانع بن حماد الجهني، ط الثالثة: ١٤١٨هـ، الناشر: دار الندوة العالمية، الرياض.
موطأ الإمام مالك، لمالك بن أنس الأصبحي، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي –مصر.
النبوات لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية ط ١٣٨٦هـ. المطبعة السلفية – القاهرة.
النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادت المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي،

محمود محمد الطناحي، ط ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، المكتبة العلمية، بيروت.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن خلكان،ط ١٣٩٨هـ، دار صادر- بيروت.
يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار لصديق حسن خان،تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا مكتبة عاطف – مصر الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ،١٩٧١م.
ينظر شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط الثالثة، ١٤١٦هـ،دار ابن الجوزي- الدمام.
اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة، لعبد المحسن بن زبن المطيري، ط الأولى: ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

فهرس الموضوعات.